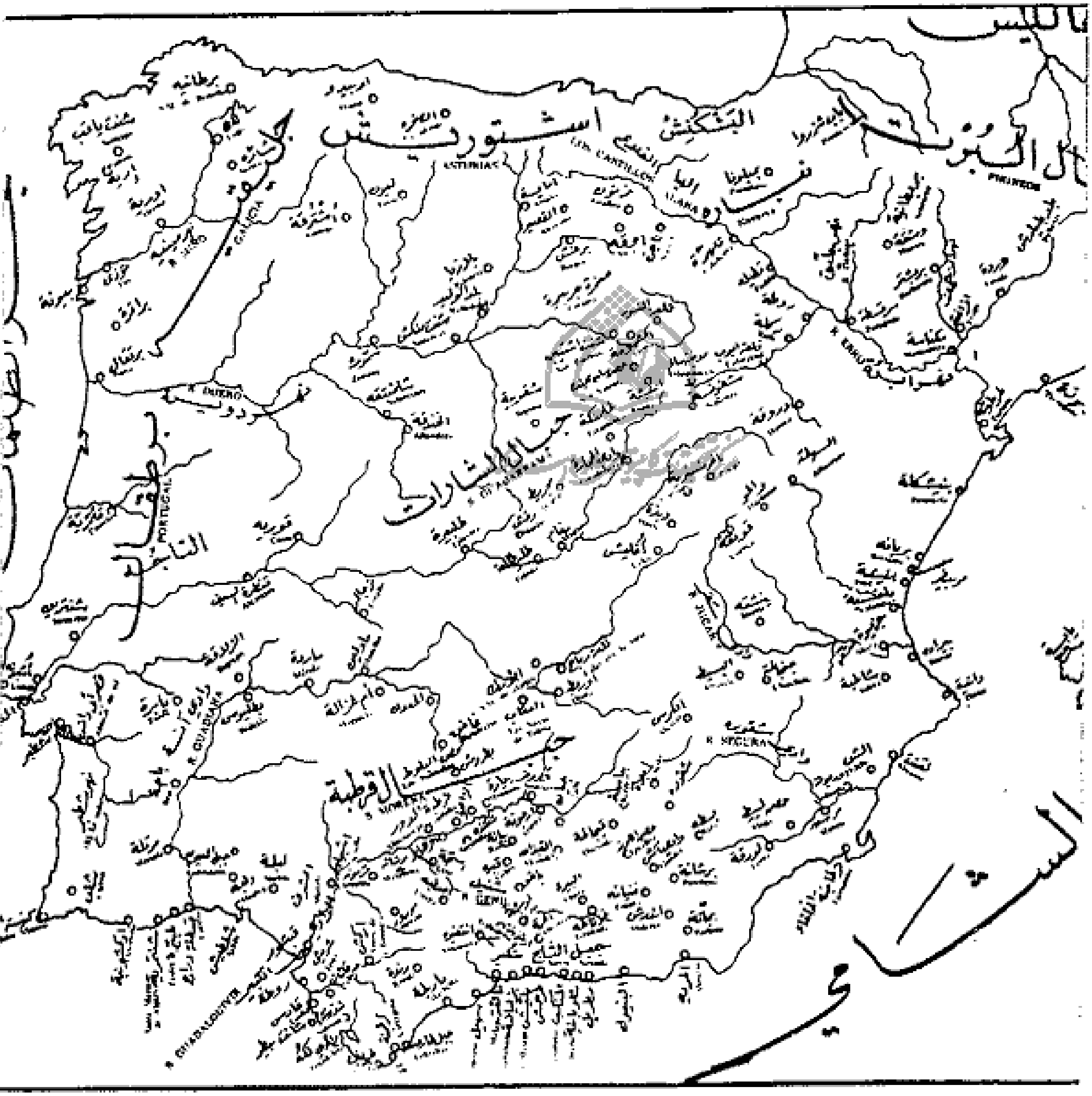
دراسات أندلسية

شبوب



ذو القعدة 1409 العدد 2 : خاص بابن الأبار جوان 1989

مجلّـــة دراســـات أندلسيـــة

مجلّة علميّة مختصة في الدراسات المتعلقة بإسبانيا الإسلامية

مؤسسهـا ومديرهـا

جمعـــة شيخـــة

تصدر المجلة مرّتين كل سنة في جانفي وجوان.

ثمن العدد :

— بتونس : 3,000 د.

— بالبلدان العربية : 4,000 د.

— بقية البلدان : 5,000 د.

توجّه المراسلات باسم مدير المجلة إلى العنوان التالي : د. جمعة شيخة

ص. ب. رقم 51 — 1008 تونس — باب منارة — الجمهورية التونسية — تليفون : 227.616

تسدد قيمة الاشتراكات عن طريق حوالة بريدية في الحساب الجاري 94 — 543 تونس أو بواسطة حوالة بنكية.

لا تلتزم المجلة بما ينشر فيها من آراء، ولا ترد الفصول المخطوطة إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.

— يرجى من المؤلّفين أن يرفقوا مقالاتهم بملخّص بالعربية أو الفرنسية.

مجلــــة
دراسات أندلسية

العدد الثاني (خاص) بابن الأبّار

1409 / 1989

تونـــــس

طبع بمطبعة المغاربية للطّباعة والنّشر والإشهار
(3200 نسخة)

الفهـــرس

الصفحة

قائمة كتب أندلسيّة وغيرها منشورات :

تصدير

هذا العدد الثّاني من مجلة (دراسات أندلسية) يصدر في موعده الذي حدّد له وضبط. ولمن عرفنا وتجاهلنا، أو شكّ في نزاهتنا وجدّيتنا، نقول : إننا على الموعد دائما وسنبقى. ومجلّة (دراسات أندلسيّة) وجدت لتستمرّ في خدمة تراث إنساني خالد مازال يعبق أريجه إلى اليوم . وما لاح في الأفق من صعوبات منتظرة وغير منتظرة لايفلّ من عزيمتنا ولا ينقص من ثقتنا في أنّ المشرّع التونسي بالأمس واليوم حبا ومازال يحبو الثّقافة بربوعنا بكثير من عنايته وتشجيعه .

والدّراسات الأندلسيةّ كغيرها من ميادين النّشاط الثقافي شملتها هذه العناية . فبين ظهور العدد الأوّل من مجلّتنا في ديسمبر 1988 وصدور العدد الثّاني هذا في جوان 1989 شاركت تونس على المستويين الرّسمي والفكري في ثلاث ملتقيات تهمّ الأندلس :

ففي تونس عاش الجامعيّون الإسبان والتونسيون أسبوعا ثريا بالدّراسات العلميّة والبحوث الأكاديميّة حول التّراث الأندلسي وتأثيره في الثقافة العربيّة والإسبانيّة قديما وحديثا . وقد نظّمّ هذا الملتقى مركز الدّراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس[1] من 3 إلى 10 فيفري 1989[2].

وفي أندة المدينة الأندلسيّة الحالمة النّائمة ملتقى علمي حول الشّاعر والمؤرّخ الكبير ابن الأبّار البلنسي نظّمته جامعة أليكانت تحت إشراف اللّجنة الثّقافية للتربية والعلوم ببلنسيّة ومشاركة بلديّة أندة[3] ، من 20 إلى 22 فيفري 1989[4] .

وفي تونس ثانية انعقد بإشراف مركز الدّراسات والبحوث العثمانيّة والموريسكيّة والتوثيق والمعلومات بزغوان ، المؤتمر العالمي الرّابع للدّراسات الموريسكيّة حول الموريسكيّين

---

(1) وعد الدّكتور عبد الوّهاب بوحديبة مدير المركز المنظم للملتقى بنشر أعماله في كتاب خاص .

(2) افتتح هذا الملتقى الدّكتور عبد السّلام المسدّي وزير التّعليم العالي والبحث العلمي .

(3) اقتسمت مجلّة شرق الأندلس ومجلّة (دراسات أندلسيّة) نشر أعمال هذا الملتقى . وها هي مجلّة (دراسات أندلسيّة) تفي بوعدها وتنشر البحوث التي ألقيت بالعربيّة في ملتقى ابن الأبّار في عددها هذا الثّاني . وستنشر مجلّة (شرق الأندلس) البحوث التي قدّمت بالإسبانية والفرنسيّة .

(4) حضر هذا الملتقى يوم افتتاحه سفير تونس بمدريد الأستاذ عبد الرّزاق الكافي، وكان العلم التونسي يرفرف فوق بلديّة أندة طيلة انعقاد النّدوة .

وتفكيرهم الدّيني وإشكاليّة الكتابة التّاريخيّة والعربيّة الإسلاميّة عن الموريسكيّين[5] من 15 إلى 19 مارس 1989[6] .

ولا نرى في هذه الملتقيات إلّا ضربا من لقاء العلماء الأجلّاء والباحثين المختصّين في ميدان من المعرفة مضبوط ومحدّد لتدقيق المناهج ، وتبادل الخبرات ، وتوسيع الآفاق . لقد كان العلماء في القرون الماضية يشدّون الرحّال ويضربون في الأرض وينتقلون من قطر إلى قطر للقاء عالم أديب ، أو مدرّس لبيب ، أو فقيه له نظر ودراية ، أو محدّث له حفظ ورواية. فبينا ترى أحدهم في هذا البلد جالسا جلسة المتعلّم متنقلا من حلقة إلى أخرى يكرع من ينابيع المعرفة ، ويطلب إجازته من شيوخه فيُجاز ، تراه في بلد آخر وقد تصدّر حلقة الدرس يحدّث بما علم ، ويشرح ما غمض ،ويجيب من سأل ، ويجيز من طلب . وهو لا يتحرجّ من أن يكون الطالب المستفيد حينا ، والشيخ العالم حينا آخر . كلّ ذلك في تواضع من لا يَشْبع طالبا ، وفي أريحيّة من لا يَنضب عطاء .

وقد لا نجد فرقا بين هذا العالم الرّحالّة مع من يلتقي بهم في بلدان مختلفة ، وبين الملتقيات العلميّة اليوم . فبينا ترى الأستاذ والباحث الشهير متحدّثا في اختصاصه محللّا ، والآذان إلى كلامه صاغية والأنظار إلى حركاته شاخصة ، تراه بعد قليل مستمعا بدوره مُنصتا ، ولِمَ لا مستفيدا ومستفسرا ! وبهذا التداول تتلاقح الأفكار ، وتتدفّق المعلومات ، وتتطوّر البحوث وتتقدّم العلوم . فكم من فكرة في الذّهن غامضة اتّضحت ، وكم منهج في البحث غير قويم استقام ، وكم من رأي غير صائب تمسّك به صاحبه طويلا فتخلّى عنه وقد تجلّت له الحقيقة . وترى القوم بعد ذلك — خلال فترة الاستراحة — ما بين مجيب عن سؤال ، أو مستفسر عن مقال ، أو مُهدٍ لكتاب ، خلال ذلك نوادر تُحكى وطرائف تُروى تهيّئ النّفوس للأخذ والعطاء في جلسة علميّة أخرى دسمة.

إنّ عصرنا بكلّ ما أوتي من وسائل تقنية في التّبليغ متطوّرة قضى بها على الرّغبة في مصاحبة الكتاب ، وأغرى النّاس بالثّقافة السّريعة السّهلة والسطحية أحيانا ، سوف لن يقدر على المسّ من ناموس الملتقيات العلميّة والنّدوات الفكريّة . فهذه لها نكهتها وطرافتها وفائدتها وستبقى ما بقي الإيمان بالثّقافة الحرّة الأصيلة المتفتّحة .

د. جمعة شيخة

مدير المجلّــة

---

(5) وعد الدّكتور عبد الجليل التميمي مدير المركز المنظم للملتقى بنشر أعماله في كتاب خاص .

(6) دشن الأستاذ الحبيب بولعراس وزير الشؤون الثقافيّة مكتبة المركز بزغوان يوم افتتاح المؤتمر في 1989/3/15 .

أعمال ملتقى ابن الأبّار بأندة

انعقد في الفترة ما بين 20 فيفري 1989 إلى 22 منه ملتقى علمي حول الشاعر والمؤرخ الكبير ابن الأبّار ـــ البلنسي مولدا التونسيّ وفاة ـــ بمدينة أندة الإسبانية .

والشّخصيّة التي انعقد المؤتمر تحت اسمها شخصيّة علميّة وأدبيّة مرموقة . جمعت ـــ فيما خلّفته لنا من آثار ـــ مع الإبداع الأدبي شعرا ونثرا ، التصانيف العلميّة : ترجمة وتاريخا ، فكانت بحقّ موسوعة علميّة لا غنى للباحثين في تاريخ الأندلس وإفريقيّة وحضارتهما عنها .

وقد وقع الاتّفاق على أن تنشر مجلّة (شرق الأندلس) الإسبانية البحوث التي ألقيت باللّغتين الإسبانيّة والفرنسيّة وتتولّى مجلّة (دراسات أندلسيّة) التّونسيّة نشر البحوث التي ألقيت بالعربيّة وهي أربعة :

1 ـــ ابن الأبّار وعصره في تونس : للدّكتور رشاد الإمام من تونس .
2 ـــ القيمة الوثائقية في ديوان ابن الأبّار : للدّكتور جمعة شيخة من تونس .
3 ـــ شاعر وفي لوطنه : للدّكتور عبد السّلام الهرّاس من المغرب .
4 ـــ بين ابن الأبّار وابن عميرة : للدّكتور محمد بن شريفة من المغرب(•).

(•) لم يصلنا النصّ النّهائي من الأستاذ ابن شريفة إلى حدّ طبع هذا العدد . لذا نرجىء نشر مقاله إلى العدد المقبل في ديسمبر 1989 .

ابن الأبّار وعصره في تونس

بقلم الدكتور رشاد الإمام

سنحاول في هذا البحث التّركيز على محورين هامين يتعلقان بأمرين شغلا بالنا منذ زمن : الأمر الأوّل هو خلفيات مقتل العالم والشاعر ابن الأبّار (قتل 20 محرّم 6/658 جانفي 1260) بتونس تنفيذا لأوامر المستنصر بالله الحفصي ، ثمّ حرقت أشلاؤه وكتبه وإجازاته وأشعاره وأوراقه معه . وهو حدث يبعث في نفس الباحث الاستغراب من شدّة هذا العقاب الرّهيب وعنفه ، ويحثّه على البحث والتّنقيب عن خلفيّات هذا الإجراء النّادر حصوله في تونس ، خاصة وأنّه حصل والدّولة الحفصيّة في عنفوان شبابها وفي أوج قوّتها وعزّتها من ناحية ، ومن ناحية ثانية نفّذ هذا العقاب المؤلم بل الغريب على أحد كبار علماء الأندلس البارزين لمبجّلين الذين شجّعهم الأمراء الحفصيون على الإقامة بتونس عاصمتهم بصفة نهائيّة ، وأزجلوا لهم العطاء والتّبجيل والتّكريم . الأمر الثاني الذي سنركّز عليه في هذا البحث هو محاولة إبراز أهمّية تواجد العلماء الأندلسيين في تونس وتأثيرهم في مختلف الاختصاصات والعلوم فيها ، والنهوض بتلك العلوم والمعارف إلى مستويات أرقى وأعظم ، بل إدخال طرق وأساليب وعلوم ومناهج ومواد دراسية ومهن وتقنيات جديدة انتفعت بها تونس إفادة منقطعة النظير في القرن 13/7 وما بعده .

وفي هذا الفصل الذي سنحاول فيه بحث أهمّية هجرة الأندلسيين إلى تونس في أوّل عهد الدّولة الحفصية ، سنستقصي أيضا دور ابن الأبّار شخصيّا ومشاركاته في

هذا التأثير العلمي والثقافي والحضاري الممتاز الذي يعود الفضل فيه إلى مهاجري الأندلس .

أوّلا : ابن الأبّار ونكبته في تونس ، العوامل والخلفيّات:

العنصر الأوّل: حلّ أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن أحمد بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبّار بتونس سنة 1238/635 في عهد أبي زكرياء الحفصي (ت 1249/647)، مؤسّس الدّولة الحفصيّة المستقلّة عن الموحّدين في المغرب الأقصى .

وكان أبو زكرياء وخليفته المستنصر (ت 1277/676) ومن تولّى بعدهما من أوائل خلفاء الحفصيين رجالا أقوياء وشدادا ، تفانوا في الذّود عن عرشهم وعن دولتهم الفتيّة التي لم يمرّ على تاريخ استقلالها رسميا سنة 1237/635 سوى عشر سنوات تقريبا لمّا حلّ ابن الأبّار بحاضرتهم سنة 1238/636 . وقد نجح أبو زكرياء والمستنصر خاصة في إقامة دولة عتيدة من سنة 1228/625 إلى 1574/982 . وهي أطول فترة تاريخية حكمتها دولة واحدة في كامل تاريخ تونس .

ومن سوء حظ ابن الأبّار أنّه حلّ بتونس في عهد أعظم حاكمين حفصيين بل مؤسّسي الدّولة وهي في عنفوان شبابها . ولا يخفى على أحد مدى غيرة مؤسّس عرش جديد على حماية ذلك العرش وترسيخ أسسه مهما كلّفه ذلك من تضحيات ، بل من عنف وبطش إذا اقتضى الحال ذلك . خاصة إذا وضعنا هذا الحدث في إطاره التّاريخي أي في العصر الوسيط (القرن13/7) .

ومن أوّل ما يجب أن نلاحظه في أسباب نكبة ابن الأبّار وخلفيّاتها أنّ موازين القوى العرقية في المجتمع الإسلامي بدأت تتغيّر عما كانت عليه من قبل ، وخاصّة بعد النّكبات التي كانت تحلّ دائما بالموالي من بربر وفرس وأتراك على يد العنصر العرقي العربي الغالب والمتفوّق والحاكم . وهنا لنا أن نتذكّر نكبات عدّة عرقية مثل نكبة البرامكة ونكبة طارق بن زياد بعد عبوره وانتصاره في أوّل وقائع فتح المسلمين للأندلس وأعظمها .

قلنا تغيّرت الأوضاع وتبدلت الأسر الحاكمة القويّة خاصة في شمال إفريقيا والأندلس . فالحفصيون بربر قدموا من جبال الأطلس ببلاد المغرب الأقصى . وهذه

النّزعة البربرية التي تجري في دمائهم كانت واضحة جدّا لدى الحفصيين سواء في طريقة حكمهم الصلبة أو معاملاتهم الحازمة مع رعيّتهم في الداخل ، أو مجابهاتهم الشّرسة العنيفة والعتيدة للقوى والدّول الأجنبية التي كانت دائمة التّهديد أو التخطيط للنّيل من سلامتهم واستقلالهم[1].

لمّا توفي أبو زكرياء الحفصي كانت كامل البلاد التّونسيّة من طرابلس إلى بجاية تحت سلطته . وكانت أنظمة هذه الدولة الشّاسعة محكمة سواء في المجال السّياسي أو الإداري أو الأمني ، وحتّى القبائل والعروش التي اعتادت على إحداث الإضطرابات وإعلان العصيان وإثارة النزاعات أُجبر أهلها على الانضباط والانصياع والطاعة .

عندما تولّى المستنصر حكم الدّولة الحفصيّة سنة 1249/647 واصل تركيز أعمدة الدولة بكلّ كفاءة وجدارة إلى أن بلغت دولته شأوًا من المناعة والقوّة جعلتاه يتلقّب بخليفة المؤمنين .

وأصبحت الدّولة الحفصية تكاد تكون الدّولة الوحيدة في العالم الإسلامي التي يسود فيها الاستقرار والهيبة وبالتّالي القوة والمناعة . وهذا ينطبق على البلاد الإسلاميّة بجناحيها المشرقي والمغربي .

وهذا السؤدد يتجلّى في أنّ لويس التّاسع لمّا هاجم تونس في الحملة الصليبيّة الثّامنة سنة 1270/669 ، بعد مقتل ابن الأبار بعشر سنوات ، كان يظن أنّ بقضائه على الدّولة الحفصيّة القويّة في قلب العالم الإسلامي يكون قضى على أهمّ دولة في ذلك العالم الممزّق داخليا والمنهزم أمام القوى الأجنبيّة خارجيًا[2] .

نعتقد إذًا أنّه من سوء حظ ابن الأبار أنّه نزل تونس ، وهو المتيّم بحبّ السّلطة والنّفوذ ، والدّولة الحفصيّة الفتيّة في فترة التّدعيم والتّركيز والتّشييد . وما أخطر تلك الفترات على رجالات الحكم والدولة ، وما أشدّها حساسية وما أكثرها مآخذ وانزلاقات

---

(1) H.R. Idris, «Hafsids» The encyclopedia of Islam, New Edition, Grill-Luzac, 1965, vol 3, pp 66-69.

سنشير إلى هذا المرجع فيما يلي من هذه الدراسة بدائرة المعارف الإسلامية.

(2) الزركشي : تاريخ الدولتين ص 27 ــ 40 ط تونس 1966. و: ح. ح. عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص 105 ــ 116 ط 1953 .

إنه لو تأخّر حلول ابن الأبّار بتونس سبع عشرة سنة فقط لوجد خليفةَ المستنصر سنة 1277/676 أكثر لينا وأقلّ جرأة لأخذ قرار القتل والتّمثيل والحرق فيه أو في غيره .

وإذا كانت الدّولة الحفصيّة في عصر فتوّتها تلك من أعظم الدّول الإسلاميّة في المشرق والمغرب ، وكانت الدّول النّصرانيّة تعمل على البطش بها[3]، فإنه بإمكاننا أن نتصوّر نار الغضب القاتل التي يحرق بها الخليفة كلّ متردّد في ولائه لتلك الدولة أو متشكّك في مقدرتها أو عامل على النّيل من مناعتها . إنّ وضع الدّولة الحفصيّة في خضم الأحداث في كامل حوض البحر الأبيض المتوسط يشبه وضع قوّتين عظميين : الدّولة الحفصية من جهة والدّول النّصرانيّة من جهة أخرى . كلّ منهما تعمل على البطش بالثّانية بأيّة وسيلة كانت .

ومن هذا المفهوم يمكننا أن نتصوّر حزم أمراء الدولة الحفصيّة وشدّتهم وعنفهم مع المشكوك في ولائهم ، أو المخالفين لأوامرهم أو المعارضين لملكهم ، أو النّاقمين والحاقدين عليهم من رجال دولتهم وأصحاب الخطط العليا فيها ، وغيرهم من الإطارات والأهالي في جميع مجالات أعمالهم ومسؤولياتهم ونشاطاتهم . فالإخلاص المطلق للدولة والتّفاني في خدمتها في تلك السّنوات الصّعاب من تاريخ الدّولة الحفصيّة كان يقتضي الطاعة الكاملة للخليفة والتّفاني والفداء بالنّفس من أجل الدولة وسلامتها داخليا وخارجيا . وهو ما لم يتوفّر بصفة قطعيّة في علاّمتنا ابن الأبّار .

أما العنصر الثّاني من العوامل والخلفيّات التي شاركت في القضاء على ابن الأبّار وموته أشنع ميتة هو عنصر عرقي على ما أعتقد . وقد لمّحنا إلى هذا سابقا ، فقد ولد عالمنا الجليل سنة 1198/595 من عائلة عربيّة عريقة الجذور في نسبها القضاعي[4]. وتلقى علومه في بلنسية على أيدي مشاهير العلماء الأندلسيين من أمثال أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي. وطاف أرجاء البلاد الأندلسيّة لتلقّي العلم والمعرفة على العلماء الكبار حيثما وجدوا . وقضى فترة طويلة من شبابه في طلب العلم من جهة والتأليف من جهة أخرى . ومن هذه العلوم التي تلقّاها ، وتبرّز فيها ، وأصبح علما

(3) عبد الرحمان بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر . ط بيروت، 1959 ، ج 6، ص 591 — 611 .

(4) عبد الله الطبّاع : كتاب الحلة السيراء ، بيروت 1962 ، ص 14 ، 37، 40 .

من أعلامها سواء في الأندلس أو في شمال إفريقيا هو علم التراجم والأنساب وذلك بالمعرفة الواسعة والتأليف والتدريس . فنسب ابن الأبّار العربي الأصيل ومعرفته المتعمّقة جدا بالأنساب والتراجم ، وتميّزه لدى المؤرخين بأنه كان عينا من أعيان بلنسية بل شيخا (من مشيخة أهل بلنسية)[5]، جعل صاحبنا شديد الافتخار بنسبه العربي النّبيل وسموّ أرومته على غيره ممن ليسوا عربا مهما كانت مراكزهم .

أوّل زيارة أدّاها ابن الأبّار إلى تونس كانت سنة 1238/636 لطلب النّجدة من الأمير الحفصي لإنقاذ مسقط رأسه مدينة بلنسية من الحصار المضروب عليها من طرف الإسبان النّصارى . ثم رجع إلى بلنسيّة وبعد أيّام معدودات التحق بتونس ثانية للاستقرار بها نهائيا ، بعد أن استولى خايمي الأوّل على بلنسية في 16 صفر 28/636 سبتمبر 1238[6].

فحضوره إلى تونس كان من أجل طلب النجدة العسكرية من أبي زكريّاء الحفصي . وما مبايعة أمير بلنسيّة وسكّانها له ، كما أعلن ابن الأبّار ، إلا طمع في النّجدة العسكريّة الحفصيّة . ومما يدلّنا على أن سفارة ابن الأبّار كانت ترمي إلى تحقيق نجدة أبي زكرياء العسكريّة قول السّفير — وهو ابن الأبّار — في أوّل بيت من قصيدته السّينيّة الشّهيرة التي ألقاها بين يدي الأمير الحفصي :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللهِ أَنْدَلُسَا   إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا

غير أنّ أبا زكرياء لم ينجدهم إلا بالأقوات والأغطية والمؤن[7] ولم يقم بأي عمل عسكري يستجيب لاستغاثتهم ويستهدف فكّ الحصار على بلنسيّة . يقول المؤرخون إنّ سفارة ابن الأبّار كانت ناجحة[8]، وأنا أعتقد العكس تماما . وأمام هذه الخيبة في النّجاح في سفارته يكون خسر ماء وجهه أمام أمير بلنسيّة من جهة وخسر مناصبه وممتلكاته في تلك المدينة بسبب الغزو المسيحي من جهة ثانية . ولم يبقَ له من كل ما كسب إلا الغرور والعناد السياسي والشّعور بالتّفوّق العرقي فيما بعد في تونس .

(5) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 652 .
(6) نفس المصدر .
(7) نفس المصدر ص 653 .
(8) نفس المصدر .

ولا تخفى أهمية الأنساب العريقة والمتميزة في الأسر العربية في مختلف العصور الإسلاميّة ، وخاصة في تلك الفترة . وكم شُيِّدت ، في تاريخ البلاد الإسلامية قاطبة ، من دول وعروش بسبب النّسب العائلي . والأمر الأكيد ، كما ذكرنا سابقا ، أنّ ابن الأبّار كان من أكثر علماء عصره معرفة بالأنساب العربية ودورها القاطع في النّبل والسّؤدد والسّيادة . والأمر الأكيد الثّاني هو أن ابن الأبّار كان بتآليفه وعلومه ودروسه ، على غرار تبحّره في علم الأنساب والتّراجم[9]، من أعظم مؤرخي عصره . وما مؤلفاته في التّاريخ والتّراجم إلا أكبر دليل على ما نقول .

على العكس من كلّ هذا كان أمراء بني حفص ، أولياء نعمة ابن الأبّار ، أبعد ما يكونون عن هذا النّسب العربي الأصيل . فهم بربر في نسبهم وفي عصبيتهم وفي انتمائهم . ولا داعي هنا للتأكيد على النفور الذي كان مستفحلا بين البربر والعرب في تلك العصور سواء في الأندلس أو في شمال إفريقيا .

انتماء عرقي بهذه الحدّة في الاختلاف وبهذه القوّة في الحساسيّة المفرطة والغيرة الصارخة لا يمكن إلّا أن يجعل علاقة ابن الأبّار العربي القحّ وأسياده بني حفص البربر علاقة مبارزة عرقية واختبار نوايا وامتحان انتماءات .

لقد ذكر المؤرخون إشارات تدلّ على هذا الصّراع بين الطرفين من ذلك قول صاحب العبر (... ولما هلك الأمير أبو زكرياء رفعه (ضمير الغائب المفرد يعود على ابن الأبّار) المستنصر إلى حضور مجلسه ... وكان في ابن الأبّار أنفة وبأو (فخر وتكبّر)... فكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصره في مداركه)[10]. ويذكر نفس المؤلف في مكان آخر أنه لمّا عاد ابن الأبّار من بجاية بعد أن رضي عنه المستنصر (... عاد هو (ابن الأبّار) إلى مساءة السلطان بنزعاته...)[11].

ويقول حسين مؤنس في تحليل شناعة مقتل ابن الأبّار : (والحقيقة أن ما جرى لابن الأبّار كان حلقة من حلقات الصّراع بين الأندلسيّين والمهاجرين وشيوخ تونس من موحّدين وغير موحدين ...)[12] .

(9) محمد مخلوف : شجرة النّور الزّكيّة ، القاهرة . 1350 هـ . ج 1 ص 195 .
(10) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 653 .
(11) نفس المصدر ص 654 .
(12) حسين مؤنس : كتاب الحلّة السيراء، القاهرة ، 1963 ، ج 1 ، ص 40 .

وباعتبار كل ما سبق أرى أن الاختلاف العرقي كان واردا بين ابن الأبّار وأسياده من البربر ، وإنْ كان ذلك الخلاف في أغلب الأحيان مستترا جدا ، بل لم يكن من صالح أي طرف البوح به وكشفه بشكل صارخ .

العنصر الثالث من العوامل والخلفيات التي أدت بآبن الأبّار إلى التّهلكة هو تمرّسه بالإدارة وتفوّقه فيها منذ أن كان في الأندلس ، بشكل جعله متميزا عن رجالات تونس ووزرائها وإداريّيها . فقد تولى ابن الأبّار مناصب عالية في إمارة بلنسية ومنها السّفارة التي قام بها إلى تونس . وكذلك تولّى منصب الكتابة والمراسلة لأمير بلنسية وغيره من الأمراء . وبذلك كان متفوّقا على حاشية الأمير في تونس وعلى وزرائه إداريّا . ومن هذا الباب ، نعتقد ، دبت الفرقة وتكوّن الصراع على الخطط العليا ، خاصة منها الملتصقة بخدمة الخليفة ومقابلته مباشرة فكان الصّراع على الجاه بين وزيرين أحدهما هو ابن الأبّار ذو المهارة السّياسيّة والكفاءة الإداريّة مغربيّا[13] . والثّاني هو أبو الحسين أحمد بن إبراهيم الغسّاني كاتب خطّ العلامة لدى الخليفة الحفصي ، وكانت براعته وكفاءته محدودة بل (محلية) بالمقارنة مع ابن الأبّار . وما حكاية سعاية الغسّاني لدى المستنصر ضدّ ابن الأبّار ، لأنّ هذا الأخير وصف والد الغسّاني بقوله : (... إن أبا لا تعرف حياته من موته لأب خامل)[14] ، إلا تهويل للأحداث وتضخيمٌ لها . ولا يمكن أن تكون سعاية مبنية على مثل هذا التّعريض سببا يؤدّي إلى تمزيق السّلطان الحفصي لأبن الأبّار ثمّ حرق أشلائه وكل مؤلفاته . هذا أمر لا يستقيم للتّحليل والمنطق ، بل الأغلب أن سبب الوشاية هي التنافس على السّلطة ، أو مظهر من مظاهر الاختلاف في الاتجاهات السياسية بين الوزيرين . وهذا كلّه هو الذي سبّب وولّد المخاوف لدى السلطان من ابن الأبّار الأكثر قدرة وتمرّسا بشؤون الدولة سياسيّا وإداريّا ، وبالتالي خاف من غدره كما سيأتي .

أما **العنصر الرّابع** فيتمثل في أن شاعرنا ابن الأبّار لم يستقر في تونس كمدّرس عادي أو موظّف بسيط أو شاعر مناسبات ، بل وُلّي خطّة كاتب علامة الأمير الحفصي

---

(13) يذكر ابن خلدون الخطط السّامية التي تولّاها ابن الأبّار قبل أن يحلّ بتونس بقوله : (وكتب عن السيّد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ببلنسية ، ثم عن ابنه السيد أبي زيد ... ثم كتب عن ابن مردنيش . ولما دلف الطاغية إلى بلنسية ونازلها بعث زيان بوفد بلنسية وبيعتهم إلى الأمير أبي زكريا وكان فيهم ابن الأبّار ...) (العبر : 654/6).

(14) المصدر السّابق .

ورئيس كتّابه ، وهي من أعظم وظائف الدولة ، وكانت تجعل صاحبنا في احتكاك مباشر مع الأمير في كلّ صغيرة وكبيرة ، وبالتّالي كان ابن الأبّار مستهدفا لشكوك الأمير وغضبه . وهذا ما جعل أبا زكرياء يعزل ابن الأبّار من خطّته ويضعه في الإقامة الجبرية في بيته تحت الحراسة . ثم عفا عنه فيما بعد وأرجعه إلى خطّته . وكأنّ الأمير كان حائرا بين شدّة حاجته لكاتبه من ناحية وعدم ثقته فيه من ناحية ثانية . هذا على الرّغم من شفاعة المستنصر — قبل توليه العرش — فيه لدى والده أبي زكريا للعفو عنه لاستجارته به .

لما توفّي أبو زكرياء أبقى المستنصر ابن الأبّار في وظيفته ، ولكن شكوك الخليفة في ولاء ابن الأبّار بدأت تتعاظم ، بناء على مواقف شاعرنا المشبوهة والتي كانت تستهدف الخليفة شخصيا ومباشرة بالحطّ من قيمته وسلطانه . وهو الأمر الذي ضاعف من غضب الخليفة وحاشيته وبعض المسؤولين في بلاطه إلى حدّ الأمر بإعدامه.

إذا يمكننا أن نعتبر الخطّة المرموقة التي تولّاها ابن الأبّار وقربه الشّديد من الحاكم ، والتحامه اليومي الوظيفي والسياسي بصانعي ومتخذي القرارات السياسية في أعلى هرم السلطة وفي أوج قوة الدولة الحفصية ، عاملا أساسيا في نهايته المؤلمة .

العنصر الخامس غرور ابن الأبّار وتعنّته وسلاطة لسانه جعلته هدفا للانتقاد والتّجريح والحقد . فمن غروره وتعنّته الغريب أنّ أبا زكرياء بعد أن عيّنه رئيس كتبته ، أمره بأن يُبقي فراغا أبيض في أعلى كلّ وثيقة رسميّة حتى يتمكّن وزيره أبو العباس الغسّاني[15] من كتابة العلامة أي اسم الأمير وإمضائه . وقد كُلّف بها لأن خطّهُ مشرقي يصعب على الكتّاب في تونس تقليده . فلم يمتثل ابن الأبّار لهذا الأمر من الأمير وتجاهله إطلاقا . ولمّا وقع الإلحاح عليه في ذلك استشاط غضبا ورمى بالقلم وأنشد قول المتنبي :

واطْـلُبِ العِـزَّ فـي لَظَـى وَذَرِ الـذُّلَّ وَلَـوْ كَـانَ فـي جِنَـانِ الخُلُـودِ

نُمي ذلك إلى السلطان فأمره بلزوم بيته في إقامة جبرية[16] .

(15) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 653 .
(16) نفس المصدر .

وإذا كان أبو زكرياء مؤسس الدّولة متحكّما في غضبه ومسيطرا على سخطه ، فإنّ المستنصر مشبّد الدولة والمتلقّب بالخليفة ، والكثير الشّكوك فيمن حوله ، وجد في سيرة كاتبه وتحدّيه له ما لا طاقة له به. وزاد الطّين بلّة اتهام صاحبنا ــ بسبب ملازمته للأمير مباشرة ، وهو في قلب جهاز الدولة السياسي والإداري ــ بأنه يتوقّع (المكروه للدولة)[17] ويتربص بها الدّوائر .

العنصر السادس : عدم الولاء المطلق . والذي يدلّنا على عدم ولاء صاحبنا لوليّ نعمته هو أن الخليفة المستنصر اكتشف في أوراق ابن الأبّار عندما صودرت أبيات خطرة في هجاء الخليفة وفي الحقد عليه[18] ، وهو ما عجّل بمقتله .

العنصر السابع : بالإضافة إلى ما سبق اتهم ابن الأبّار في تونس بالتشيّع ولكن كان من الصّعب تصديق هذا الاتهام لأسباب عديدة ، فإن الإطار الذي وضع فيه هذا الاتهام إطار قاتل . فقد وردت في كتابه «درر السمط في خبر السّبط» ، الذي كان يدرّسه ابن الأبّار نفسه في حلقات تعليمه للطّلبة في جامع الزيتونة ، إشارات فسّرت بأنها تدل على ولاء المؤلّف لشيعة علي وعلى عداوته للأمويّين السّنّيين[19]. لقد ذكر المقّري بعد أن أورد قسما من كتاب ابن الأبّار (درر السمط) أنّه كان متشيّعا لعلي وآله وأنه لم يورد من كتاب السّمط لابن الأبّار في كتابه نفح الطيب إلاّ ما ذكره (لأنّ في الباقي ما تشتمّ منه رائحة التشيّع والله سبحانه يسامحه بمنّه وكرمه ولطفه)[20] .

ومن الجدير بالملاحظة في هذا الاتهام الخطر أن البلاد التونسية تعتبر من أشد البلاد الإسلاميّة محاربة للشّيعة والبدع وتشبثا بالمذهب المالكي السّنّي .

العنصر الثامن : ومن عوامل غضب السلطان وحاشيته على ابن الأبّار تفوّق علماء الأندلس وأدبائها وإدارييها على أمثالهم بتونس في ذلك الوقت . وما تشجيع أبي زكرياء الحفصي لخيرة علماء الأندلس على الاستقرار بعاصمته إلا دليل قاطع على هذا التفوّق

---

(17) نفس المصدر ص 655 .

(18) يذكر ابن خلدون البيت الأوّل من هذه الأبيات وهو :

طغَا بتونسَ خَلَفٌ ... سَمّوه ظلما خليفة

(العبر . ج 6 . ص 655) .

(19) دائرة المعارف الإسلاميّة : 66/3.

(20) المقّري : نفح الطيب . ط القاهرة 1302 هـ . ج 2 ص 601 .

وعلى هذا التميّز وعلى الحاجة الملحّة إليهم لبناء دولته ، الحديثة الاستقلال عن الموحّدين ، وبذلك بدأت الهجرة . ومن بين هؤلاء المهاجرين مجموعات من رجال الفكر من مختلف أنحاء البلاد الأندلسية .

ولا شك أيضا أن الأندلسيين المهاجرين إلى تونس ، ومنهم ابن الأبّار قد شعروا بالتفوّق العلمي والتميّز الحضاري لمّا حلّوا بتونس . وهذا الواقع ولّد لدى أغلبهم اقتناعا بتفوّقهم على باقي المواطنين التّونسيّين وبالتّالي السعي للتّسامي عليهم وتحاشي الاختلاط بهم .

وإذا كان المهاجرون الأندلسيّون في القرن 17/11 قد عاشوا في تجمعات صغيرة خاصة بهم ، وانفردوا بلباسهم وطعامهم وتفاخروا بها ، وامتنعوا عن مصاهرة الأهالي المحليّين ترفعا ـــ ومعظمهم كانوا من الصناع والتّجار والمزارعين وأصحاب الحرف ـــ فما بالك بمهاجري القرن 13/7 الذين كانوا في أغلبهم من كبار العلماء والأدباء والإداريين والأطباء والمدرّسين والفنّيين والكتّاب .

لقد بادر معظم هؤلاء بالتشبّث بطابع التفوّق حتى ظهروا في المجتمع التونسي وكأنهم مجموعة من المهاجرين ناشزة عن المجتمع الذي انتقلوا إليه ، تزاحم أفراده وتعاديهم[21]، بل تصرّ إصرارا كبيرا على تحدّيهم[22] .

العنصر التاسع : هو جحود ابن الأبّار إلى حدّ تمنّيه زوال حكم الحفصيّين . يقول حسين مؤنس في مقدمته لتحقيق الحلّة السيراء معلّلا مقتل ابن الأبّار بأن ما حلّ بابن

(21) حسين مؤنس : الحلّة السيراء ص 40

هناك قصّة تروى إلى اليوم في تونس وهي من مخلّفات أسمار القرون الماضيـة في الوطن القبلي بالبلاد التونسية أرويها باختصار للتدليل على مدى عناد الأندلسي المهاجر بالبلاد التونسيّة ومدى تشبثه بموقفه أو برأيه وإن كان على خطأ تقول هذه القصة الشعبية القصيرة إنّ أحد الأندلسيين المهاجرين كان يتنزه مع صديق له من التونسيين الأصليين خارج إحدى المدن عند غروب الشمس . فرأى الأندلسي عن بعد شيئا أسود يتحرك على الطريق غير واضح المعالم . فقال لصديقه انظر أرأيت ذلك السواد الذي يتحرك على الطريق . تثبت منه إنه قطيع من العنز تأخر الراعي عن الرجوع به إلى حضيرته إلى هذه الساعة ، فأجابه التونسي بعد التثبت فيه جيّدا : هذا ليس قطيعا من العنز بل هو سرب من الغربان . ولما اقترب الصديقان من ذلك الشيء الأسود الذي يتحرك فوق الطريق ، طار سرب الغربان وعلا في الفضاء قال التّونسي لصديقه : ألم أقل لك أنه سرب غربان وليس قطيع عنز فأجابه الأندلسي بحدّة : (معيز (أي عنز) ولو طارت) .

(22) حسين مؤنس : الحلّة السيراء ص 40 .

الأبّار يعتبر حلقة من حلقات الصراع بين الأندلسيين وشيوخ تونس من موحّدين وغيرهم (بل حلقة من صراع هؤلاء المهاجرين الأندلسيين مع شيوخ كل قطر نزلوه وعلمائه ...)[23] .

قد يكون هذا التحليل صحيح في بعض أوجهه ، ولكن عقوبة القتل بأشنع طريقة ثم حرق الجثة والمؤلفات وغيرها لا يمكن أن تكون ناتجة عن زلات صغيرة أو عدوات محدودة من ابن الأبّار . كان في إمكان الخليفة أن ينفيه أو يحبسه أو يجبره على الإقامة الجبرية في بيته . ولكنه لم يفعل شيئا من كل ذلك بل أمر بقتله .

هذا التصرّف من الخليفة المستنصر يتجاوز مرحلة احتمال خوفه من ابن الأبّار كما يقول حسين مؤنس . ولو كان السّلطان خائفا منه فقط لما أحرقه بعد قتله وأحرق جميع مؤلفاته معه . بل هذا يدلّ أن السبب تجاوز الخوف الشخصي العادي إلى الخوف السياسي الذي يهدّد حكم العائلة الحفصية ويعمل على زوالها . وقد تدعّم هذا بقراءة ابن الأبّار لطالع وليّ عهد المستنصر وتصريحه بأن الدولة ستسقط في عهده . وهذه تعدّ في حدّ ذاتها جريمة سياسيّة لا تغتفر .

أعتقد أن هذه العوامل والخلفيات مجتمعة متكاملة متداخلة قضت على ابن الأبار وليس عاملا واحدا منفردا منها مهما كانت قوته وتأثيره ، غير أن العامل السّياسي كان هو الأقوى بينها جميعا .

عصر ابن الأبّار في تونس

1 ـــ هجرة الأندلسيين إلى تونس :

بدأت هجرة الأندلسيين إلى تونس تظهر منذ أوائل القرن 13/7 في عهد أبي زكرياء الحفصي الذي شجّع الأندلسيين على الإقامة في تونس . وقد أغراهم بالامتيازات لشدة حاجة الدولة الجديدة إليهم وإلى معارفهم في مختلف المجالات العلمية والفكريّة والإداريّة والأدبيّة والفنيّة وغيرها .

---

(23) المصدر السابق ص 40 .

ومن بين هؤلاء المهاجرين الأوائل المتميّزين في مختلف الاختصاصات العلميّة والفنيّة والمهنيّة قلّة من رجال الفكر ينتمون إلى أنحاء متعددة من البلاد الأندلسيّة : من كورة ماردة وميورقة وجزيرة شقر وقرطبة وطرطوشة ، وكذلك من بلنسيّة وإشبيلية وشاطبة وغرناطة ومالقة ولبلة وبياسة وشريش وبطرنة وشلب .

وقد كانت الوجهة المفضّلة لهؤلاء المهاجرين هي تونس بصفة خاصة ليقيموا آمنين في ظلّ الدولة الحفصيّة ، بعيدا عن القلاقل والفتن بالمغربين الأوسط والأقصى .

ومن الجدير بالذكر أن حدس المهاجرين صدق في تفضيل المدن التونسية عن مدن المغرب الأقصى. فقد ذكر ابن خلدون أنه لمّا انقرضت دولة الموحدين وظهر بنو مرين بفاس في المغرب الأقصى كانت لهم مشاحنات وخلافات مع الأندلسيين القاطنين بتلك البلاد . فكان الأندلسيون ينتقلون من المغرب ومن الأندلس رأسا إلى البلاد التّونسية وخاصة العاصمة[24] .

عندما حلّ هؤلاء بتونس ـــ وكان من بينهم ابن الأبّار ـــ كانت تلك المدينة ـــ على الرغم من كونها، عاصمة الدولة الحفصية ـــ تعد قرية كبيرة من جملة القرى التّونسية . وما أن انتهى القرن 13/7 ، وهو القرن الذي نزح خلاله الأندلسيون ، حتّى تحوّلت تونس عاصمة للمغرب قاطبة وقبلة العلماء ورجال الفكر والطلبة . وشيّدت فيها المدارس والمكتبات والجوامع ، وانبثقت النهضة التي جعلت ذلك القرن يتميزّ عن بقية العصور التاريخية في تونس إلى درجة يمكننا أن نطلق عليه عصر النّهضة التونسيّة .

وقد تواصل تأثير الأندلسيين في تونس علميا وحضاريا وفنيا على مدى القرون الموالية . وذلك لسببين : الأول أن الهجرة الأندلسيّة لم تقف بانتهاء ذلك القرن بل تجاوزته إلى القرن 14/8 حيث قويت حركتها فشملت ، زيادة على العلماء ورجال الفكر ، التّجّار والصناع والمزارعين وأصحاب الحرف بأعداد وافرة . وقدّم لهم أمراء الدولة الحفصية أحياء في المدن يقطنونها وضياعا في الريف يسكنونها ويعملون فيها . ويرجع لهؤلاء الفضل في إدخال أنواع من العلوم والاختصاصات جديدة وأساليب صناعية ومهنيّة وهندسية لم يسبق للبلاد أن عرفتها .

(24) ابن خلدون : العبر : 6/ 625 .

أما السبب الثاني الذي جعل تأثير الأندلسيين لا يزول من تونس فهو الأعداد الوافرة من الطلبة التونسيين الذين تلقوا علومهم عن أعلام أندلسيين في الحاضرة يندر وجود أمثالهم في كامل العالم الإسلامي في القرن 13/7 .

ومما تجب ملاحظته أيضا أن تأثير الأندلسيين في الحياة الفكرية والحضارية بتونس كان من طراز المؤثرات التي لا تزول بمرور السنين والقرون ، لأنها كانت متصلة اتصالا مباشرا ومتفاعلة تفاعلا كاملا ومتينا مع مختلف طبقات المجتمع التونسي وفئاته . فقد تداخلت أفكارهم العلميّة والدّينيّة وأساليبهم العملية في جميع الميادين الحياتية للمجتمع التونسي حتى صارت عنصرا من العناصر الحضارية التي يتكوّن منها ، وعادة من عاداته وتقليدا من تقاليده . فلو اقتصر تأثير الأندلسيين على مجالس الأمراء والأعيان لا نتهى بانتهائهم . أما وتأثيرهم كان متفاعلا مع مختلف فئات السكان ، فإنّ ذلك التأثير لا يزول بزوال الأفراد بل يبقى ساري المفعول مكوّنا عنصرا هاما من العناصر الحضارية والفكرية والثقافية لأمّة بأسرها .

في ذلك العصر ، عصر ابن الأبار في تونس ، شجّع أمراء الحفصيين المهاجرين الأندلسيين على نشر المعرفة بكلّ ما لديهم من وسائل ، فازدهرت المعرفة إلى أن أصبحت الحاضرة مقصد طلاّب العلوم والفنون من أقاصي البلاد يقتبسون من أنوارها ويرتوون من ينابيعها .

2 ــ تأثير الأندلسيين في النشاط الثقافي بتونس :

لقد جدّد الأندلسيون في تونس في القرن 13/7 عدّة مجالات في الميدان الثقافي وأدخلوا طرقا وأساليب واختصاصات حديثة كان لها تأثير مباشر وقوي في الحياة الثقافية بتونس .

ففيما يتعلّق بالمواد الدّراسية أدخل المهاجرون الأندلسيون مواد دراسية جديدة في حلقات التّعليم . من هذه المواد علم الفلك والأزياج والطب والهندسة وغيرها من العلوم[25]، بعد أن كانت المواد الدراسيّة في تونس قبل مجيء الأندلسيين متغلّبا عليها

(25) ابن خلدون المقدمة ص 880 . وكذلك :
. R. Brunschvig : La berberie Orientale, Paris, 1940, vol. p. 364

الطّابع الدّيني واللغوي ، فكانت المواد التّعليمية لا تخرج عن العلوم الشرعية النّقلية من توحيد وحديث وفقه وفرائض وعلوم القرآن والقراءات والسيرة والمغازي والتّاريخ من جهة ، والعلوم اللّغوية من نحو وتصريف وأدب وشعر من جهة ثانية[26] .

وبذلك التأثير الأندلسي في نشر العلم بتونس بمختلف ميادينه وفروعه صارت الحاضرة في ذلك العصر كما يشهد بذلك شاهد عيان: (لا تنشد بها ضالّة للعلم إلا وجدتها ولا تلتمس بغية معوزة إلا استفدتها ... وما من فنّ من فنون العلم إلا وجدت بتونس من به قائما ولا موردا من موارد المعارف إلا رأيت حوله واردا وحائما)[27] .

وفيما يتعلّق بالمدارس في عهد ابن الأبّار أُنشيء كثير منها بتونس بمجيء الأندلسيين بعد أن كانت قليلة فيها . ولم تنتظم حلقات الدروس في جامع الزيتونة إلاّ في منتصف القرن 13/7 . ولم يبزغ القرن 14/8 حتى كثر عدد المدارس المخصّصة لإلقاء الدروس وسكنى الطلبة ، وهذا يعتبر أكبر دليل على ازدهار الحركة العلمية بالعاصمة وبعض المدن التّونسية الأخرى خاصة في عهد أبي زكرياء والمستنصر . ينضاف إلى ذلك الجوامع والمساجد التي كانت تعقد فيها حلقات التّعليم وكذلك بيوت العلماء ومنازلهم . ومعظم دور العلم تلك كان يدرّس بها أولئك الأعلام من اللاّجئين الأندلسيّين .

ومن هذه المدارس المدرسة الشّماعية ومدرسة المعرض والمدرسة التّوفيقية والمدرسة العنقية ومدرسة ابن تافراقين ومدرسة جامع الهواء ، ومن الجوامع : جامع الزّيتونة وجامع القصبة ، ومن الزّوايا : زاوية الزّليجي .

هذا عدا المكتبات ودكاكين الورّاقين التي أنشئت في تونس في ذلك القرن الزاهر وفي عهد أبي زكرياء بالذات ، وهو ما يدلّ على رواج سوق العلم وانتشار الثقافة بالبلاد التونسية . ومن هذه المكتبات الشّهيرة مكتبة جامع الزيتونة التي كانت تشتمل على ستة وثلاثين ألف مخطوطة[28] . يذكرها ابن خلدون بقوله : (كان الأمير أبو زكرياء

(26) العبدري : الرّحلة . ص 125 ــ 126، 176 ــ 178 .
(27) المصدر السابق ص 125 .
(28) ابن أبي دينار : المؤنس ص 127 .

الأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها)(29). ومن المكتبات أيضا دار الكتب بالقصبة التي أسّسها نفس الأمير، وكان مولعا بالأندلسيين وبعلومهم وثقافتهم . وشيّد كذلك سوقا بأكملها سمّيت سوق الكتبيّين بالعاصمة(30) ، ولازالت أجزاء من هذه السوق موجودة إلى الآن ، وهذا كلّه يؤكّد مدى ازدهار الحياة العلمية في عصر ابن الأبّار .

غير أنّ هذه المكتبات لم تمض عليها سبعون سنة بعد وفاة أبي زكرياء حتى أباد محتوياتها وباع مخطوطاتها الثائر ابن اللّحياني سنة 1317/717 . فلم يبق فيها شيئا ذا أهمية (حتى الكتب التي كان الأمير أبو زكريا الأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها أخرجت للورّاقين فبيعت بدكاكينهم . فجمع من ذلك كما زعموا قناطر من الذهب تجاوز العشرين ، وجواليتين من حصى الدرّ والياقوت ...)(31).

3 ـــ تأثير الأندلسيين في مجال العلوم في القرن 13/7 .

الطب : كان أهمّ أساتذة الطب في تونس في القرن الذي ندرسه أندلسيين ، ليس بينهم تونسيّ واحد ولا يهودي حسب ما توفره لنا المصادر التي رجعنا إليها في هذه الدراسة . وتكفي هذه المعلومة لنؤكّد على الدّور الأساسي والمصيري الذي يمثّله الأندلسيون في المجال العلمي . من هؤلاء الأطباء حكيم المستنصر المشهور محمد ابن أندراس المرسي(32) .

يصف الغبريني أستاذه في علم الطب ابن أندراس بقوله : (... وتبسط للطبّ طبيبا باحثا جيّدا ... وكانت الأبحاث في كلّ ذلك جارية على القوانين النظرية والاستدلالات الجليّة(33) .

---

(29) ابن خلدون : العبر . ج ص 748 .

(30) ابن أبي دينار : المؤنس . ص 130 .

(31) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 748 ـــ 749 .

(32) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن أندراس من أهل مرسية (ت . 1275/674) . ورد على بجاية ثم رحل إلى تونس باستدعاء المستنصر له بعد أن ذاع صيته في الطب (أبو العباس الغبريني : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في بجاية، الجزائر 1910 ، ص 45 ـــ 47).

(33) المصدر السّابق .

كان هذا الطبيب إذا سئل عن مسألة طبيّة لا يجيب عنها إلّا بعد إعمال النّظر في أسباب المرض وتمييزها ، وينظر في أنسب الأدوية وعندئذ يقدّم الجواب . وهذا كما يذكر تلميذه (هو حال حذّاق الأطبّاء وأمّا عوامّهم ومن يعد منهم في أعداد القوابل فعندما يُسأل يجيب بغير علم)[34] .

بالإضافة إلى هذا الطبيب العالم هناك عدة أطباء أصلهم من الأندلس ، منهم أبو العباس أحمد بن خالد من أهل مالقة[35] . ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان الخزرجي الشاطبي (ت . 691/1291) ، وكذلك أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد السلام أصله من تدلس[36]. ومنهم محمد بن أبي العباس بن عيشون .

وتواصل حلول أطباء أندلسيين بتونس في القرن 8/14 ، ومنهم الغرناطيان أحمد ابن علي الخولاني[37] وأحمد بن محمد الأنصاري[38] ، وابن عشّاب القرطبي[39] وابن الحجّاج يوسف[40] .

وبسبب وجود الأطباء الأندلسيين في تونس في القرن الذي ندرسه صار علم الطب بها يقوم بالدرجة الأولى على التحاليل وعلى فحص وتشخيص المركّبات الأساسيّة التي تتعلّق بكلّ جسم وبكلّ عضو ، مع اهتمام كبير بمعرفة خصوصيات ومركّبات المواد الغذائية . وقد نتج عن ذلك شيوع التجديد في طبخ المأكولات بطريقة تطابق ما أدخله هؤلاء الأطباء من آراء طبيّة تتعلّق بالمواد الغذائيّة[41] .

ويمكننا أن نعرف الشأو الذي بلغته تونس في المجال الطبّي في القرن 7/13 بتفضّل الخليفة المستنصر وإرساله أحد الحكماء الأندلسيين من تونس إلى ملك صقليّة . ومثل

(34) المصدر السّابق .
(35) عنوان الدراية : ص 43 — 44 .
(36) المصدر السابق ص 208 .
(37) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، حيدر أبا الدكن . 1929 — 1931 ، ج 1 . ص 219 .
(38) نفس المصدر ج 1 . ص 306 .
(39) نفس المصدر ج 4 . ص 160 .
(40) عبد الله الترجمان : تحفة الأريب في الرّد على أهل الصليب، القاهرة 1907 ، ص 8 .
(41) انظر برانشفيك : ج 2 . ص 138 — 139 .

هذا حدث سنة 1278/677 حيث بعث المستنصر للملك شارل الأول ملك أنجو Anjou ، بطلب من هذا الأخير ، كتاب (الحاوي في الطبّ) للرّازي(42) .

الهندســـة : أثّر وجود المهندسين الأندلسيين على التّخطيط المعماري والبناء في البلاد التّونسية في القرن 13/7 . وأصبح الطراز الأندلسي هو الغالب على أكثر الأبنية التي شُيِّدتْ في ذلك القرن . وقد استجلب أبو زكرياء عددا كبيرا من المهندسين والصنّاع الأندلسيّين ، وهم الذين قاموا بهندسة وبناء أكثر القصور والجوامع والزّوايا والأسواق التي أنشئت في عهد هذا الأمير . وقوي هذا التأثير بعد وفاة أبي زكرياء والمستنصر(43) . وهذا النّمط البنائي الأندلسي نلاحظه بصفة جلية في بناءات القرن 13/7 في تونس مثل هندسة وبناء جامع القصبة الذي تم بناؤه سنة 1235/633 مع صومعته . وقد وصفها صاحب (المؤنس) بأنها كانت عجيبة الشّكل(44) . وكذلك يظهر ذلك النّمط الهندسي جليّا في المباني والمعالم التّالية : باب المنارة بالعاصمة ، باب للاّريحانة وهو أحد أبواب الجامع الكبير بالقيروان(45) . ومن هذا القبيل هندسة بناء أقواس (سوق القماش) و (ميضة سوق العطارين) وزاوية سيدي قاسم الجليزي(46) .

ومما يزيد في تركيز هذا الطّابع المعماري الأندلسي وإبرازه: التّصميم والهندسة والبناء بالإضافة إلى وجود الزّليج في أكثرها(47) ، وكذلك اعتمادها في الزّركشة على النّقش فوق الجدران ، والسطوح المغطّاة بالقرميد(48) .

علم التاريخ : على غرار علوم الطب والهندسة والنّحو لا يجد المستقصي للمؤلّفات التّاريخيّة التي كتبت في القرن 13/7 بالبلاد التونسية كتابا واحدا كتبه مواطن أصله تونسي .

---

(42) المصدر السابق .

(43) Ch. A. Julien: Histoire de l'Afrique du nord, vol 2, p 153 .

(44) ابن أبي دينار : المؤنس ص 127 .

(45) ش. أ. جوليان : 414/2 .

(46) G.-Marçais: Manuel d'art musulman, 2 vols, Paris 1926 p 527 .

(47) الزّليج كلمة إسبانية أصلها Azulejo .

(48) سليمان مصطفى زبيس : بين الآثار الإسلاميّة في تونس ط . تونس 1963 ص 52 .

أوّل هذه الكتب ألّفه أندلسي من بيّاسة وهو أبو الحجاج يوسف بن أحمد الأنصاري (ت 1255/653)، ألّفه لأبي زكرياء وذكر فيه الثّورات والحروب الدّاخلية في الإسلام إلى عهد هارون الرّشيد . وقد نشر هذا الكتاب حديثا ويعتبر من أهمّ المصادر في موضوعه. أمّا كتاب أبي محمّد عبد الله بن عبد البرّ التّنوخي (ت 1336/737) ـــ ويشتمل على التاريخ الإسلامي من الدعوة المحمدية إلى أيام المؤلّف ـــ فمفقود ولا تعلم عنه إلا أنه مرتّب على حسب السّنوات الهجريّة مثل تاريخ الطبري وأنه يتكوّن من ستة أجزاء[49] .

هذا بالإضافة إلى عدد كبير من العلماء الأندلسيّين الذين كانوا يدرسون التّاريخ في معاهد العلم ، منهم ابن عبد البرّ التنوخي[50] ، وابن الغمّاز[51]، وابن الأبّار نفسه ، وكتابه (درر السمط في خبر السبط) كان مادة تاريخية تدرّس في المعاهد العلميّة بتونس . هذا بالإضافة إلى كتب التراجم والطّبقات التي ألّفها أندلسيون في تونس خلال ذلك القرن .

التّعليم : ولا يقف تأثير الأندلسيين عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى مجالات أخرى ثقافية وعلمية وصناعية متعدّدة مثل التّعليم . لقد اقتبس التّونسيّون منذ أوائل العهد الحفصي طرق التعليم المتطوّرة عن الأندلسيين . ولا ننسى هنا أنّ أبا زكرياء الحفصي مؤسس الدولة ورائد نهضتها العلمية والحضارية تثقّف على علماء أندلسيين أو عن تلاميذهم كابن عصفور الإشبيلي الذي أخذ عنه علم النحو ناظره فيه[52] . وقد أعجب أبو زكرياء بالطّريقة الأندلسيّة في التّعليم واستصوبها . ولمس حاجة تونس إليها وإلى العلماء الأندلسيين فاستدعى من إشبيلية ـــ وقد أصبح سيدّ إفريقيّة وكان في السابق حاكما لمقاطعة تابعة لها ـــ عددا من أصحاب الصّناعات المختلفة منهم العلماء للقيام بمهمّة التّعليم بتونس[53] .

(49) الزّركشي : تاريخ الدّولتين الموحّدية والحفصيّة ص 111 ـــ 112 .
(50) المصدر السّابق .
(51) العبدري : الرّحلة . ص 126 .
(52) مخلوف : شجرة النّور الزّكيّة ، ج 2 ص 138 .
(53) كانت عائلة خلدون من هذه العائلات التي جلبها أبو زكرياء من إشبيلية ، أحد أبناء خلدون هذا أصبح وزير مال ، وابنه محمد حاجبا ثم وزيرا ، وابن محمد هذا كان رجل علم ودين تولّى خطة الإفتاء بتونس أما حفيد محمد المذكور فهو عبد الرحمان ابن خلدون المؤرّخ التونسي الشّهير (ولد سنة 722 وتوفّي سنة 808 /1322 ـــ 1405) (انظر كتاب ج . مارسي السّابق ص 303) .

وقد أشاد المؤرّخون بتفاني هؤلاء العلماء المدرّسين في بثّ العلم والمعرفة في حلقات دروسهم[54]. ومن أشهر هؤلاء أبو العباس أحمد بن الغمّاز البلنسي (ت 1293/693) ، وأبو العباس اللبلي[55] وأبو العباس أحمد المالقي ، وأبو العباس أحمد الغرناطي (ت 1292/692) صاحب كتاب المُشْرِق في علماء المغرب والمَشْرِق . وكان الخليفة أبو زكرياء بن أبي إسحاق الحفصي (حكم من سنة 678 إلى 1279/683 إلى 1284) يحضر دروسه بمدرسة المعرض في العاصمة التونسية . ولمّا رأى الخليفة مدى تفاني ذلك المدرّس في أداء وظيفته ، وما اتّصف به من تبحّر في العلوم أجرى عليه مرتّبا عاليا ، وأعطاه كيسين مملوءين ذهبا وفضّة ليوزّعهما على كلّ من يتلقى العلم في حلقات دروسه[56]. ويضيف المؤلّف أن ذلك الإجراء من قبل الأمير الحفصي ، شجّع الطلبة على التعلّم بتلك المدرسة فازداد عددهم حتى أنّه لم يبق لبعضهم محلّ يجلسون فيه . ويبلغ إعجاب الأمير بالدروس التي تُلقى بتلك المدرسة حدّا جعله يفتح بها شبّاكا على بيته يستمع منه إلى الدروس ويراقب سير التّعليم بها[57] .

أما طريقة التّعليم الجديدة التي أدخلت على أيدي الأندلسيين إلى تونس في القرن 13/7 ،فقد أشاد بها ابن خلدون حيث أنها تحرّرت من المنوال التّقليدي الذي يتمثّل في استظهار النصوص عن ظهر قلب و التّركيز على تعليم علوم القدامى كما تداولتها الأجيال . وأصبح التّعليم يعتمد على إطلاق المجال للعقل في التّفكير والتّعليل وتحليل الآراء ودراستها ومناقشتها . يصف ابن خلدون أصحاب الطريقة التّعليمية التّقليدية بقوله : (نجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلميّة سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون ... فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرّف في العلم والتّعليم . ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصّل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علّم . وما أتاهم القصور إلّا من قبل التّعليم ... وإلّا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدّة عنايتهم به ، وظنّهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك)[58] .

(54) العبدري : الرّحلة ص 385 .

(55) المصدر السابق ص 126 .

(56) E. Fapuau : Chronique des Almohades et des Hafsides attribué à Zarkachi, 1895, p. 73 .

(57) المصدر السابق . ص 78 .

(58) ابن خلدون : المقدّمة ص 780 .

ويذكر ابن خلدون بالإضافة إلى ما سبق مقارنة أخرى بين الطّريقتين في التّعليم في ذلك العصر فيؤكّد بها ما للطريقة الحديثة من جدوى ، وذلك عندما يعلمنا أن المدّة التي كانت معيّنة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عند أهل المغرب الأقصى مدة طويلة جدا وهي ست عشرة سنة . أما بتونس حيث تطبّق الأساليب التّعليمية الحديثة فإنّ المدة لا تتجاوز الخمس سنوات فقط . وهي أقلّ مدة متعارف عليها بالمدارس في ذلك الوقت . ثم يعقّب مؤرّخنا الشّهير بقوله (فطال أمدها في المغرب لهذه المدّة لأجل عسرها من قلّة الجودة في التعليم خاصة ، لا مما سوى ذلك)(59) .

لقد ازدهرت طرق التّعليم النّاجحة في تونس بسبب التّجديد فيها والتحديث في أساليبها كما رأينا ، وبسبب وجود المدرّسين الأندلسيين العلماء ووفرة المدارس المستحدثة . وهذا من شأنه أن يلقّح الأفكار ويشحذ الأذهان ويزيد في طلب المعرفة ونشرها . ولقد ازدهرت طرق التّعليم والتدريس في تونس في القرن 13/7 إلى درجة جعلت المدرّسين بالمغرب الأقصى يبعثون بأساتذة من بلدانهم إلى تونس للتدرّب . وقبل رجوعهم إلى أوطانهم كانوا يُمتحنون قبل تسلّمهم خطّة التدريس في مدارس بلادهم . وكان هذا الامتحان يشتمل ، من جملة ما يشتمل ، على معرفة مدى حذق المدرّس في التّبليغ واعتماده على المناقشة والتّعليل والاستنتاج لا على الحفظ والاستظهار(60) .

واعتمادا على ما لاحظناه ، فيما تقدّم من هذه الدراسة ، من تأثيرات إيجابية مبدعة للأندلسيين في تونس في مختلف المجالات الثقافية والعلمية وغيرها ، فإنّه لا يسعنا إلا أن ننوّه بنظر أبي زكرياء الحفصي الثاقب وذكائه الحاد وصواب رؤيته المستقبلية لمّا اقتنع من أوّل وهلة ، لمّا تولّى الحكم بإفريقيّة أنّ حاجة تونس وازدهارها ومستقبلها لا تتحقّق كما يتصوّره إلا بجلب أعلى الإطارات في مختلف الاختصاصات من بلاد الأندلس . لقد عاش أبو زكرياء حضارة الأندلس وتقدمها وتفوّق علومها وتقنياتها وتشبّع من تمدّنها . ولا شكّ أنّه صُعق لمّا انتقل إلى تونس حيث وجد البون شاسعا جدا بين البلدين والهوّة سحيقة بين العدوتين . ولم يجد بدا من إغراء رجالات الأندلس المتميّزين لجلبهم إلى تونس من أجل بعث ثورة علمية وثقافية في حاضرة دولته

(59) المصدر السّابق ص 780 — 781 .

(60) المصدر السّابق ص 109 .

الجديدة ، وقد أرادها أن تكون مثل مدينة إشبيلية وقرطبة وغرناطة من بلاد الأندلس في علومها وصناعاتها وهندسة بناءاتها . وقد بلغت دولته العزّ والسؤدد في عهد خليفته المستنصر بالله، حيث صارت تونس كعبة العلماء والأدباء والمؤرخين والمدرّسين .

يذكر ابن خلدون بلاط المستنصر بقوله : (وكان شأن هذا المستنصر في ملوك آل أبي حفص عظيما وشهرته طائرة الذكر بما انفسح أمد سلطانه ... وممّا اجتمع بحضرته من أعلام النّاس الوافدين على أبيه وخصوصا الأندلس من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم نحرير ... متفيئين ظلّ ملكه متناغين في اللّياذ به لطموس معالم الخلافة شرقا وغربا على عهده ، وخفوت صوت الملك إلاّ في إيوانه)(61) .

4 — ابن الأبّار ومشاركته في نهضة تونس في القرن 13/7:

في خضّم إنجازات المهاجرين الأندلسيين في حاضرة الحفصيين في القرن 13/7 حلّ أبو عبد الله ابن الأبّار بإفريقيّة ليقيم في العاصمة كمواطنيه الأندلسيين . وكانت له المشاركة الفعّالة في العطاء علما وأدبا ، وشعرا وثقافة .

ألّف ابن الأبّار ما يزيد على الخمسة وأربعين كتابا في فنون مختلفة . وليس ذلك بغريب ، فقد كان علاّمة (في الحديث ولسان العرب ، بليغافي التّرسل والشّعر)(62) . ويصفه صاحب شجرة النّور الزّكية بأنه (الإمام الحافظ النظّار ، الرّاوية المتبحّر في العلوم ، الحامل لواء المنثور والمنظوم)(63) . ويقول فيه أيضا : (ومن اعتنائه بالرّاوية لا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة في الإسلام إلاّ وله فيه رواية إما بعموم أو بخصوص)(64) .

بالنّسبة إلى التّاريخ، كان عمدة فيما كتبه عن الأندلس والمغرب . وقد انتفع في تواريخه المتعلّقة بإسبانيا بكتب المؤلّفين السّابقين . (وهو بالنّسبة إلى تاريخ بني هود في سرقسطة والمرابطين والموحّدين مصدر في غاية الأهمية . وقد وصف لنا أحوال

---

(61) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 675 .
(62) ابن خلدون : العبر ج 6 . ص 653 .
(63) محمد مخلوف : شجرة النور ج 1 . ص 195 .
(64) نفس المصدر .

دولة الموحّدين في أواخر أيّامها ، وكذلك فتوح النّصارى في الأندلس وصف معاصر وشاهد عيان)[65] .

أمّا عبد الله الطبّاع فعند حديثه عن ابن الأبّار باعتباره مؤرخا يبرز أهمّيته وتفوقّه بقوله :(... وقد درست بعد ذلك قيمة ابن الأبّار العلميّة والتاريخية مبرهنا أنّ مؤرّخنا بالرّغم من أنّ ابن خلدون لم يأت على ذكره بين كبار مؤرّخي العرب ، فهو يستحق أن يحتلّ مكانته بينهم كمؤرّخ الأندلس وإفريقيا الشّمالية وأنّه من حقّه أن تذكر اسمه إلى جانب اسم ابن حيّان ، أكبر مؤرّخي الأندلس الإسلامية ... لقد أكدت في النهاية أن مؤرخنا ابن الأبّار كان أوّل من خطا من بين المؤرّخين العرب ، نحو نقد التاريخ ، هذه الشهرة التي اكتسبها فيما بعد ابن خلدون)[66] .

وفي التّراجم كتب ابن الأبّار عدة مؤلفات منها التّكملة لكتاب الصّلة لابن بشكوال ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها . وله أيضا كتاب الحلّة السيراء في تراجم بعض أعيان الأندلس والمغرب منذ الفتح إلى عصره . وهو كتاب قيّم جدّا بالنّسبة إلى التّراجم وتاريخ الطوائف وتاريخ الأندلس في القرن 12/6 .

ولهذا العالم مؤلّفات أخرى[67] بديعة ، منها : معادن اللّجين في مراثي الحسين . يقول مخلوف في شأنه : (ولو لم يكن له من التّآليف إلّا هو لكفاه على علوّ درجته في العلوم وسموّ رتبته)[68] . وله كتاب آخر في منتخب الأشعار سمّاه : قطع الرياض ، وله كتاب : هداية المعترف في المؤتلف والمختلف ، وله المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي : وهو يشتمل على ثلاثمائة وخمسين ترجمة لطائفة من علماء الأندلس[69] ، وتحفة القادم ترجم فيها للشّعراء بالأندلس ، ودرر السمط في خبر السّبط يتحدث فيه المؤلف عن آل البيت : وهو الكتاب الذي أظهر فيه مؤلّفه تشيّعه

(65) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين تعريب محمد عبد الله عنان ، الطبعة 2 ، القاهرة ، 1958، ص 505 .
(66) عبد الله أنيس الطبّاع : كتاب الحلّة السيراء . ص 17 ، ص 153 .
(67) حسين مؤنس : الحلّة السّيراء ص 46 ــ 54، وكذلك دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة: 66/3.
(68) شجرة النور ج 6 . ص 196 .
(69) نفس المصدر .

لعلي بن أبي طالب وهاجم فيه الأمويين السنّة بشدّة[70] . ومن هذه المؤلّفات أيضا كتاب : إعتاب الكتاب ، كتبه ابن الأبّار لمّا أعفي من منصبه وأبعد عن القصر وألزم بالإقامة الجبرية في داره ، وهو كتاب تاريخي أيضا ترجم فيه المؤلّف لكتّاب تعرّضوا لغضب الملوك والسلاطين والخلفاء ثم حلّت بهم نعمة الرضى فأعتبوهم ، وهو الكتاب الذي استشفع فيه مؤلفه بوليّ العهد الحفصي فغفر الأمير له وأقال عثرته [71] .

وإذا نظرنا بدقّة في كتب ابن الأبّار التي وصلتنا وهي ستة، والكتب التي ضاعت وهي تسعة وثلاثون ، يمكننا أن نلاحظ أنّها ركّزت على أربعة محاور رئيسية هي الحديث والأدب والتّاريخ والتّراجم . ويمكننا أن نلاحظ أيضا أن ميدان ابن الأبّار الحقيقي كان التّاريخ والتراجم . وكتبه الثلاثة الباقية في هذا الفن تشهد بمقدرته وهي : الحلّة السّيراء والتكملة لكتاب الصلة ، والمعجم في أصحاب أبي علي الصدفي[72] .

إنّ ابن الأبّار كان عالما مؤلّفا ، ومدرّسا قديرا ، وشاعرا عظيما . ولهذا السبب يمكننا أن نقرّر أنه شارك مشاركة فعّالة ومباشرة في النّهضة التي انبثقت في تونس منذ العقد الثالث من القرن 13/7 . فكتبه كانت متداولة بين النّاس قبل مقتله وبعده . وشعره أيضا كان مرويّا في كامل المغرب العربي وكذلك الأندلس . إنّ الأوصاف التي نُعِتَ بها عالمنا في القسم الأوّل من هذا البحث لا تدع أي شكّ في مكانته . أضف إلى تلك الدروس التي كان يلقيها أمام طلبته في بجاية ثم في تونس ، فقد سجّلها هؤلاء الطلبة في مؤلفاتهم ورحلاتهم وخلدوها إلى اليوم . لقد كان ابن الأبّار يدرّس بجامع الزيتونة . وكانت كتبه من بعده تدرّس في الجوامع وحلقات العلم ، منها كما ــ يذكر العبدري ــ كتاب درر السّمط في خبر السّبط[73] . ومن تلاميذ ابن الأبّار سواء في بجاية أو في تونس ابن رُشَيْد . وقد أثنى هذا الطالب على أستاذه في رحلته ، وكذلك درس عليه أبو عبد الله التّجاني قريب صاحب الرّحلة وأجازه أيضا[74] .

كان لابن الأبّار تأثير ملموس في محيطه حيث كانت له ثقافة علمية باهرة ، عليها قامت شخصيته العلمية والأدبية الفذّة . وقد طبع عصره بنشاطات علمية ومؤلفات قيمة

(70) دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة : 3 / 66 .
(71) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 654 .
(72) حسين مؤنس : الحلّة السيراء ص 48 ــ 57 .
(73) العبدري : الرحلة . ص 126 .
(74) شجرة النور ج 1 . ص 196 .

سواء في العلوم أو في الأدب أو في الشّعر أو في التّاريخ والتراجم أو في غيرها . وامتازت كتبه بالدقة والإتقان بسبب ملكته التاريخية الواضحة . وهو (واحد من أعلام مؤرخي العلم في الأندلس ومرجع من المراجع التي لا يستغني عنها مؤرخ خلال القرنين السادس والسابع الهجريين خاصة)(75) .

لقد كان ابن الأبّار (مؤرخا فحلا واسع الاطلاع نافذ النظر صادق الحكم ، ومادة التّراجم لديه متعادلة من حيث القيمة والغزارة والأصالة ، غنيّة بكل ما ينفع المؤرّخ)(76). ويضيف حسين مؤنس بعد هذا الحكم قوله : (ولا أذكر أنني قرأت لغير ابن الأبّار في الأندلس شيئا يدلّ على سعة العلم على هذه الصورة . فهو متمكّن غزير المادة سواء أكتب عن خلفاء بني العباس أو خلفاء الفاطميين أو أمراء الأندلس وخلفائها أم أمراء الطوائف ومن عاصرهم . وهو ليس غزير المادة فحسب ، بل ناقدا لا يمرّ بخطأ في تاريخ أو اسم إلا استدرك عليه . وتبدو منه بدوات هنا وهناك تدلّ على أنه بالفعل من أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسي والعلمي والأدبي)(77) .

أما تأثيره في المجال الشّعري في تونس فإنه متأكد وقصيدته السّينيّة التي ألقاها بين يدي أبي زكرياء الحفصي كانت ذائعة الصّيت في تونس وفي معظم العالم الإسلامي

ويكفي أن نشير هنا إلى تأثيرات ابن الأبّار في الشّعر بمثال واحد أورده محمد مخلوف ذكر فيه أن قصيدة ابن الأبّار السينية المشهورة كانت محلّ نقاش وتحليل ونقد من طرف الأدباء والنقاد ، وعارضها بعض الشّعراء . ودافع عنها أبو إسحاق التّجاني بكتاب ألّفه خصيصا لهذا الغرض وهو كتاب موازرة الوافد ومبارزة الناقد في الانتصار لابن الأبّار(78) . وبصفة عامّة يعتبر ابن الأبّار (أكبر مصنّف لمعاجم الرجال أنجبته الأندلس)(79) .

---

(75) حسين مؤنس : الحلّة السيراء ص 51 .

(76) المصدر السابق ص 53 .

(77) المصدر السابق ص 53 .

(78) شجرة النور ج 1 ص 195 .

(79) حسين مؤنس : الحلة السيراء . ص 53 .

ومما لا شك فيه أن هذه القيمة العلمية التي يتمتع بها في نظر العلماء والطلبة في السابق ، والمستشرقين وغيرهم اليوم كانت نتيجة لنبوغه ونتاجه الفكري ، فقد كان (يمتاز بملكة نقديّة صحيحة قوية ، إلى جانب عاطفة جياشة تذكّرنا بفحول الشعراء العرب القدامى ، وأسلوبهم في الحياة والإحساس وهو شيء نادر بين معاصريه...)(80) .

عاش ابن الأبّار ثلاثا وستين سنة هجرية : اثنتان وأربعون منها في الأندلس والباقي في تونس ولم يسعد لا في هذه ولا في تلك ، كما يقول حسين مؤنس (... فأمّا في الأندلس فقد عاش مروّع السرب يحوم فوقه شبح الموت في كل حين ... ثم فقد وطنه وخرج بما حملت يداه إلى المغرب (تونس) حيث تلقفه الأعداء وأعانهم على نفسه بسوء خلقه وتطلّعه إلى الوظائف والجاه . فلم يسعد في وطنه الجديد ولا هدأ باله وانتهى أمره إلى هذه النّهاية الفاجعة)(81) .

من الطّريف في دنيا التّأليف، كتاب :

• عبد العزيز العروي : شاهد عصره : للأستاذ محمد التّركي (بالفرنسية. نشر دار التّركي للنّشر) جمع فيه المؤلّف ـــ الذي تعرّف على العروي عن كثب ـــ وثائق عديدة من تونس وفرنسا أهمّها مقالاته الصحفيّة وأسماره الاذاعيّة، إضافة إلى أقوال من عمل معه في الحقل الاذاعي ومن عاشره من أفراد أسرته وأصدقائه. فجاء الكتاب مرآة تعكس حياة المترجم له منذ صباه إلى حين وفاته بنفس الدقّة التي كان هو يصوّر بها المجتمع التونسي بكلّ شرائحه في الثّلاثينيات وما بعدها.

---

(80) الطبّاع : كتاب الحلة السيراء ص 112 .
(81) المصدر السّابق ص 46 .

الدّار التونسيّة للنّشر

من أعرق دور النّشر وأهمّها على مستوى المغرب العربي أنشئت في 3 جوان 1966 .

مقرّها : 36 نهج باب الخضراء . تونس ـــ الهاتف : 344.565 ـــ الحساب الجاري البريدي : 77229 ، الدّفتر التّجاري : 33510.

من أهدافها الأساسيّة : نشر التّراث الوطني والقومي ، والانتاج الفكري والأدبي تشجيعا للطاقات المبدعة الجديدة.

أصدرت أكثر من 700 عنوان في ميادين شتّى :

I ـــ **التّراث الأندلسي :**

1 ـــ ديوان المعتمد بن عبّاد : جمع وتحقيق. د. رضا السّويسي .

2 ـــ خريدة القصر وجريدة العصر لأبي عبد الله الإصفهاني. تحقيق آذرناش آذرنوش. تنقيح وإضافات للأساتذة : محمّد المرزوقي ، ومحمّد العروسي المطوي، والجيلاني بن الحاج يحيى (جزء I ، II : شعراء المغرب والأندلس) .

3 ـــ قرطبة الإسلاميّة : د. محمّد عبد الوهّاب غلاّف .

4 ـــ ابن سيدة المرسي : حياته وآثاره : د. كابانيلاس ، تعريب : د. حسن الوراكلي .

5 ـــ الرحلة الأندلسيّة : علي بن صالم الورداني . تحقيق : الأستاذ عبد الجبّار الشّريف .

II ـــ **الموسوعات :**

1 ـــ تفسير التّحرير والتّنوير للشيخ العلاّمة محمد الطاهر بن عاشور (30 جزءا في 15 مجلّدا) .

2 ـــ ترجمة معاني القرآن الكريم في جزءين : الأستاذ الصادق مازيغ .

3 ـــ الأعمال الكاملة لأبي القاسم الشّابي (أغاني الحياة ، الخيال الشعري عند العرب، مذكّرات الشابي ، رسائل الشابي) ، (مجلّدان) .

4 ـــ المقدّمة لابن خلدون : تقديم د. جمعة شيخة (في جزءين) .

5 ـــ إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان لأحمد بن أبي الضّياف (8 أجزاء) .

III ـــ**السّلاسل** : كما تقوم الدّار بنشر سلاسل من الكتب : كسلسلة الكتب شبه المدرسيّة باللّغة الفرنسيّة، وسلسلة المكتبة الفلسفيّة وسلسلة علامات، وسلسلة الكتاب الجامعي، وسلسلة علم الاجتماع العربي، وسلسلة إبداعات.

القيمة الوثائقيّة لديوان ابن الأبّار[1]

بقلــم : د. جمعــة شيخــة
كلّية الآداب ــ منّوبة ــ تونس

تقديم الدّيوان .

رغم ما تعرّض له التّراث الأندلسي من محن وكوارث أدّت إلى إتلاف جزء كبير منه ، فإنّ الدّارسين لم يألوا جهدا في البحث عمّا بقي منه ، سواء في المكتبات العامّة أو الخاصّة ، لتحقيقه ونشره في مرحلة أولى ، ودرسه وتقييمه في مرحلة ثانية .

وهذا المجهود لا شكّ أنّ نقّاد الأدب عامّة ، والشعر منه بصفة خاصّة ، في حاجة أكيدة إليه ، لأنه لا يمكن لهم إبداء أيّ حكم يتّسم بالدّقة والشّمول معا إلّا إذا توفّرت لديهم النّصوص ، وهي دواوين الشّعراء .

ولقد توفّر للمهتمّين بالشّعر الأندلسي بعض هذه الدّواوين . فمنذ سنوات تمّ تحقيق مجموعة لا بأس بها نذكر منها :

ــ ديوان يحي بن حكم الغزّال ت 864/250 (تحقيق محمد رضوان الدّاية ط 1 دمشق 1982) .

ــ ديوان ابن درّاج القسطلّي ت 1029/421 (تحقيق د. محمود علي مكي ط 2 بيروت 1389) .

ــ ديوان ابن شهيد ت 1035/426 (تحقيق شارل بلا بيروت 1963) .

(1) طبع بتونس 1985 بالدّار التّونسيّة للنّشر . تحقيق الأستاذ عبد السّلام الهرّاس في 496 صفحة .

ـــ ديوان أبي إسحاق الإلبيري تـ 1067/460 (تحقيق محمد رضوان الدّاية طـ بيروت 1976) .

ـــ ديوان المعتضد بن عباد تـ 1069/461 (تحقيق رضا السويسي . فصلة من مجلّة التربية بطرابلس) .

ـــ ديوان ابن زيدون تـ 1071/463 (تحقيق محمد سيد كيلاني، طـ 3 مصر 1965) .

ـــ ديوان المعتمد تـ 1095/488 (تحقيق د. رضا السويسي طـ تونس 1975) .

ـــ ديوان ابن اللّبّانة تـ 1013/507 (تحقيق محمد مجيد السعيد. طـ البصرة 1977) : جمع لشعره .

ـــ ديوان الأعمى التّطيلي تـ 1130/525 (تحقيق إحسان عباس ، طـ البصرة 1977) .

ـــ ديوان ابن الزقّاق تـ 1135/529 (تحقيق عفيفة محمود ديراني ، طـ بيروت) .

ـــ ديوان ابن خفاجة تـ 1139/533 (طـ بيروت 1961) .

ـــ ديوان ابن قزمان تـ 1160/555 (تحقيق ف. كورينطي ، طـ مدريد 1980) .

ـــ ديوان الرصافي البلنسي تـ 1176/572 (تحقيق إحسان عباس ، طـ 2 بيروت 1983) .

ـــ ديوان ابن سهل الإسرائيلي تـ 1251/649 (تحقيق محمد قويعة . طـ تونس 1985) .

ـــ ديوان حازم القرطاجنّي تـ 1285/684 (تحقيق عثمان الكعاك طـ بيروت 1964) .

ـــ ديوان ابن الجيّاب تـ 1347/749 (تحقيق السيدة خيسوس روبيرا . طـ غرناطة 1982) .

ـــ ديوان ابن خاتمة تـ 1368/770 (تحقيق محمد رضوان الداية ، طـ دمشق 1972) .

ـــ ديوان ابن الخطيب تـ 1375/776 (تحقيق محمد الشريف قاهر . طـ الجزائر 1973) .

ـــ ديوان يوسف الثالث تـ 1417/820 (تحقيق عبد الله كنون ، طـ القاهرة 1965) .

ـــ ديوان ابن فركون ق 15/9 (تحقيق محمد ابن شريفة طـ المغرب 1987)[2] .

(2) وظهر ونحن بصدد القيام بهذا البحث ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي ق 15/9 . (تحقيق جمعة شيخة ومحمّد الهادي الطّرابلسي طـ . تونس 1988) .

وانضاف إلى هذه المجموعة القيّمة من الأعمال خلال سنة 1985 ثلاثة دواوين : إثنان أعيد تحقيقهما وهما ديوان ابن سهل وديوان المعتمد (وفيه قسم مخصّص لشعر أبيه المعتضد بن عبّاد) . والثالث ديوان حقّق لأول مرّة وقام بتحقيقه الدّكتور عبد السّلام الهرّاس أستاذ الأدب الأندلسي بكلّية الآداب جامعة الملك سيّدي محمد بن عبد الله ـــ فاس ـــ المغرب : وهو ديوان ابن الأبّار .

ولا شكّ أنّ الأستاذ الهرّاس بعمله هذا ـــ وقد انتظرناه طويلا ـــ سدّ ثغرة لا يستهان بها في تاريخ الشّعر الأندلسي . فصاحب الدّيوان هو إحدى الشخصيات المرموقة خلال القرن 13/7 على المستويين السّياسي والأدبي : مارس السّياسة في أحلك فترة من فترات تاريخ شرقيّ الأندلس، كما مارسها في أصعب بلاط وأخطره بإفريقيّة . وخرج من المرحلة الأولى وقد سُلب وطنه ، وأُخرج من الثانية وقد أزهقت روحه[3] . أمّا من النّاحية الفكريّة والأدبيّة ، فقد وصلنا من آثار ابن الأبّار ـــ رغم أنّ جلّ مؤلّفاته أحرقت معه عند مقتله ـــ ما يدلّ على أنّنا أمام رجل قدير ذي ثقافة موسوعيّة ، طرق مجالات من المعرفة شتّى فلم يخفق له قلم ، وكتب في مواضيع متعدّدة فلم يكب له جواد . ولم يمنعه نشاطه السّياسي المتنوّع ، ولا شواغله الفكريّة المتعدّدة من أن يكون أحد كبار شعراء المغرب والأندلس في القرن 13/7. ولعلّ ديوانه هذا الذي أصبح في متناول الأبدي خير دليل على ذلك .

جاء هذا الدّيوان في 496 صفحة مقسّمة على النّحو التّالي :

1 ـــ المقدّمة (ص ص 5ـــ30) أشار فيها الأستاذ الهرّاس أن تحقيقه لديوان ابن الأبّار يمثّل القسم الثّاني من رسالة جامعية تقدّم بها لنيل شهادة الدّكتوراه الدّولية من كلّية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد سنة 1966 . أمّا القسم الأول من بحثه ـــ ولم ينشر إلى حدّ علمنا ـــ فهو المتعلّق بدراسة الدّيوان وحياة صاحبه وشاعريته . وبما أنّ المحقّق درس حياة الشّاعر وشعره في هذا القسم الأوّل من الأطروحة ، فلم يرد تكراره في هذه المقدّمة ، واقتصر على التّعريف بابن الأبّار تعريفا موجزا . كما قام بتقديم النّسخة الوحيدة التي اعتمدها في التّحقيق والمحفوظة في الخزانة الملكيّة بالمغرب تحت رقم 4602 .

2 ـــ النّص المحقّق (ص ص 33 ـــ 469) ويشتمل على :
أ ـــ محتوى النّسخة السّابقة . وجاءت القصائد فيها مرتّبة على الحروف

(3) قتل ابن الأبّار بتونس يوم الثلاثاء 20 محرّم 658 الموافق 1260/1/6 .

الهجائيّة حسب التّرتيب المغربي الأندلسي[4] باستثناء الحروف الأربعة التّالية : خ ــ ز ــ ط ــ ظ .

ب ــ ملحق 1 : وفيه ما جمعه المحقّق من شعر ابن الأبّار في مصادر مختلفة مطبوعة ومخطوطة، ولم يرد ذكره في الدّيوان .

ج ــ ملحق 2 : وفيه قصيدتان وجدهما المحقّق في ورقتين ملصقتين بالدّيوان ورجّح أنّهما لابن الأبّار .

3 ــ فهارس (ص ص 473 ــ 496) للقوافي ، والقصائد حسب الأغراض ، والقصائد حسب البحور .

ونحن نشاطر الدّكتور الهرّاس في (أنّ الإقدام على التّحقيق على نسخة واحدة مغامرة محفوفة بالمخاطر والمزالق خصوصا وهي حافلة بالتّصحيف والخُروم)[5] . ولكن نعتقد أنّ المحقّق خرج موفّقا من هذه المغامرة . فقد قدّم لدارسي الأدب الأندلسي نصّا سليما في جملته ، فيه من التّعاليق اللّغويّة والتّاريخيّة ما يجعل قراءته مفيدة ، ولِمَ لاَ ممتعة؟ .

لكن كلّ هذا لا يمنع من أن نبدي بعض الملاحظات عنّت لنا بعد اطلاعنا على هذا العمل الجيّد : يبدو أنّ الأستاذ الهرّاس كتب مقدّمة الدّيوان منذ سنة 1969 ، ولم ير مُوجبا للرّجوع إليها عند طبعه . وهذا ما جعلنا نجد في هذه المقدّمة أشياء تجاوزتها الأحداث كما يقال ، فبعض الكتب التي ذكرها المحقّق مخطوطة قد حقّق وطبع كرحلة ابن رشيد (تحقيق الأستاذ محمد الحبيب بلخوجة) ، والذّيل والتّكملة (تحقيق الأستاذ محمد ابن شريفة) . والإحاطة (تحقيق الدّكتور عبد الله عنان) . وسبك المقال (تحقيق الأستاذ عبد الواحد الزغلامي)[6] .

ويبدو كذلك أنّ المحقّق كتب المقدّمة بسرعة مما جعله يرجح بعض الآراء بطريقة غير منهجيّة ففي ص 23 يقول : (إن نسخ هذا الدّيوان وقع حوالي سقوط الأندلس).

---

(4) التّرتيب الهجائي المغربي والأندلسي هو كالآتي : أ ــ ب ــ ت ــ ث ــ ج ــ ح ــ خ ــ د ــ ذ ــ ر ــ ز ــ ط ــ ك ــ ل ــ م ــ ن ــ ص ــ ض ــ ع ــ غ ــ ف ــ ق ــ س ــ ش ــ هـ ــ و ــ ي .

(5) الدّيوان ص 24 .

(6) قد يكون الأستاذ الهرّاس استعمل هذه المصادر مخطوطة سنة 1969 . لكن بما أنّنا في سنة 1985 يجب مراجعة ما قلناه في سنة 1969 وخاصة بمناسبة طبع الأثر المحقّق .

لكن ما هو الدّليل على ذلك ؟ وفي ص 13 نجد (وامتدت به (ابن الأبّار) الإقامة في بجاية بالتّحقيق (يقصد بالضّبط) سبع سنوات من سنة 650 ـ 657 ، وإن كنّا نظّن أنّها أكثر بقليل) لكن ما هي الحجّة في هذا التّرجيح ؟ إنّ البحث العلمي لا يمكن أن يطمئن إلى الحدس والتّخمين ولا يقوم إلاّ على الحجّة والدّليل . ومن نتائج هذا التسرّع :

ـ إيراد المحقّق بعض أسماء المؤلّفين دون ذكر عناوين كتبهم . ففي ص 29 يذكر من بين عناوين الكتب : (عبد المجيد) والحقيقة أنّ هذا هو اسم المؤلّف وعنوان كتابه الذي لم يذكر هو (ابن الأبّار) . والعكس يذكر اسم الكتاب دون ذكر لصاحبه فمن هو مؤلّف كتاب (قبائل العرب) المذكور في ص 35 تعليق 29 ؟ ومن هو مؤلّف (هبة الأيّام في أخبار أبي تمّام) ص 43 تعليق 34 ؟ وقد يذكر المصدر لكن بدون ذكر للصفحة (انظر ص 418 تعليق 5) .

ـ ذكره لبعض المعلومات هي في حاجة إلى مزيد التّدقيق . فأبو الحسين (وتارة أبو الحسن) عيسى ابن لب ... ابن دسيم هو زوج ابنة (ابن الأبّار) ص 15 . وتارة هو زوج ابنته أو أخته ص 16 . فإن كانت المصادر هي التي اختلفت في ذلك فما على الباحث إلاّ أن يشير إلى هذا الاختلاف . كما أنّ ما ذكره في التّعليق 7 ص 418 من احتمال ، هو بعيد جدّا عن روح القصيد ، فلو دقّق المحقّق لرأى أن كلمة (مصريّة) لا يمكن أن تعوّضها كلمة (مغربيّة) أو (حضريّة) .

ـ عدم ضبطه لمصادره بالطريقة المنهجيّة المتمثلة في ذكر المؤلف والمحقق ومكان الطبع وزمانه (انظر كيف جاءت قائمة المصادر في ص 29) .

ـ إهماله لترقيم أبيات القصائد ، ولعلّ هذا الإهمال جرّه إلى إهمال أكبر هو عدم وضعه لفهرس الأماكن والأعلام[7] . والأستاذ الهرّاس لئن لم يقم بالتّرقيم والفهرسة للأعلام والأماكن ، فقد حاول أن يشير في تعاليق له ، رمز لها بشكل نجمة ، إلى الظّروف التي حفّت بقول القصيدة أو المناسبة التي قيلت فيها . لكن يجب أن تكون هذه التّعاليق دقيقة وكاملة . فعلى سبيل المثال نجد في ص 55 ابن زيد . من هو

(7) قد يرى بعضهم أنّ فهرس الأعلام والأماكن في ديوان شعر عديم الجدوى . وهذا خطأ محض لأنّ الأحداث التاريخيّة والمظاهر الحضاريّة توجد مبثوثة خلال الأبيات ممّا يجعل ترقيمها ووضع فهرس من هذا النّوع محتّما .

ابن زيد هذا ؟ يكتفي المحقّق بإرجاعنا إلى المصادر لمعرفته وهذا غير عملي بالنّسبة إلى القارىء . وابن زيد هذا (خطأ مطبعي) هو أبو زيد عبد الرّحمان الموحّدي حاكم بلنسيّة أطرده منها أبو جميل زيّان ابن أبي الحملات في صفر 626/جانفي 1229 . فلجأ إلى أراغون وتمسّح . وكان ابن الأبار قد خرج معه ثم رجع[8] وفي ص 197 تعليق 27 و 29 وفي ص 427 تعليق 21 نجد : ابن إسحاق : هو ابن غانية . لكن من هو منهما علي أو يحيى ؟ أو من بقي من إخوتهما في الجزائر الشرقيّة ؟ المقصود بطبيعة الحال في القصيدة هو يحيى بن غانية الذي بقي بعد مقتل أخيه علي ثائرا صامدا في وجه الدّولة الموحّديّة ثم الحفصيّة حوالي نصف قرن . وفي ص 80 نجد المحقّق يعلّق على القصيدة 25 بقوله : (أنشأها بمناسبة بيعة بعض مدن الأندلس والمغرب لأبي زكريا الحفصي ، وذلك حوالي 641 هـ/1243 لأن إشبيلية (حمص بايعت هذه السّنة) . وهذا تعليق مقتضب وغير دقيق . فالأولى أن تذكر هذه المدن ــ خاصّة وقد عدّدها الشّاعر في القصيدة ــ بأسمائها ، ونعرّف بالظّروف التي كانت تمرّ بها كلّ واحدة منها حتّى رأت من الضّروري الدّخول في طاعة الحفصيّين ولو اسميّا . وفي ص 417 يقول المحقّق في تعليقه على القصيد 201 : أنشأها (بمدح أبا زكريا وولّي عهده ولعلّه أبو يحيى في طالع سنة جديدة ولعلّها سنة 640 هـ/1242 أو 641 هـ/1243 والبحث المنهجي لا يمكن أن يقبل مثل هذه التعاليق التّقريبيّة غير الدقيقة .

والأستاذ الهرّاس لئن اعتمد على نسخة واحدة وفي ذلك ما فيه من المشقّة والجهد ، فإنّ كثيرا من شعر ابن الأبار نجده مبثوثا في عدّة مصادر مطبوعة . وهذا من شأنه أن يسهّل نسبيّا على الباحث استخراج نصّ مقروء ، وهنا كان من المستحسن أن يقوم المحقّق بعمليّة تخريج للأبيات ــ وذلك بالمقارنة بين المصادر ــ في بداية تعليقه على كلّ قصيدة حتّى يتمكّن الدّارسون من معرفة ما أضافه الدّيوان من جديد[9] .

والأستاذ الهرّاس قام بشرح الكلمات الصّعبة ، لكنّه أغفل كثيرا منها ، بعضها يبدو أصعب ممّا شرح . ففي ص 137 قصيدة 59 بيت 4 يشرح كلمة رداح ويترك كلمة

(8) ذكر المحقّق هذا في المقدّمة عند ترجمته لا بن الأبار . لكن يجب ذكره هنا في هذا المكان المناسب لإعانة القارىء على فهم القصيدة .

(9) قام المحقّق بالإشارة إلى ذلك داخل القصيد ، ولكنّه كان يذكر فقط المصادر دون مقارنة بينها ودون تحديد للأبيات كقوله ص 59 في تعليقه على القصيدة 13 (وردت بعض الأبيات في المغرب 312/2 . والقدح 192 وفي الرّايات 82) .

ر أد . وفي ص 141 بيت 1 لا يشرح كلمة حدثان وبيت 7 كلمة إهطاع إلخ ... بل إنّ أبياتا كثيرة في حاجة إلى التّعليق لعسرها على الفهم . ومن أولى بشرحها من المحقّق ؟

وقام المحقّق بشكل الشّعر ، وأغفل شكل بعض الكلمات نرى أنّ شكلها واجب نظرا إلى أنّ الصعوبة تكمن فيها . وقد نجد بعض الهنات في الشكل . ففي ص 133 ، القصيدة 58 ، البيت 10 نرى أن كلمتي (وجدانها المنشود) يجب أن تقرأ منصوبة لا مرفوعة لأنّها مفعول به لأسمعت . وفي ص 421 ، البيت 6 يجب أن نقرأ يزخر بفتح العين لا بضمّها . وفي ص 417 البيت 3 : الظلال هي التي تلاعب المياه . لذلك نرى أن يُقرأ الصّدر هكذا : (إذا لاعبت المياهَ ظلالُه) .

وفي ص 137 قصيدة 59. بيت 5 يجب أن نكتبه هكذا :

وَتَقَطَّعَتْ مَا بَيْنَنَا الأَسْبَابُ فَالْ أَقْلَامُ خُرْسٌ وَ الرِّيَاحُ رَوَاكِدُ

حتّى يستقيم الوزن في الصّدر والعجز[10] . وفي ص 141 ، البيت 7 يجب أن نعوّض الهمزة القطعيّة في (المرّية) بهمزة وصليّة للوزن كذلك .

لكنّ كلّ هذه الملاحظات الجزئيّة لا يمكن بحال أن تنقص من قيمة عمل الدّكتور الهرّاس[11] فبخبرته العميقة بمناهج التّحقيق ومعرفته الشّاملة بعصر الشّاعر ، وضع بين أيدينا ديوانا على غاية كبيرة من الأهميّة . فهو زيادة على أنّه يكشف عن بعض جوانب من حياة الشّاعر الشخصية ويدقّقها ، يعطينا صورة عن القرن السّابع الخطر والخطير في نفس الوقت : ففيه انفصمت عُرى الوحدة التي أقامها بنو عبد المؤمن ، وفيه انتقل — ولو إلى حين — مركز الثّقل السّياسي من المغرب الأقصى إلى إفريقيّة . وديوان ابن الأبار يعكس بصورة واضحة الدّور الذي لعبه هذا المركز الجديد في محاولة منه لاستقطاب كامل القوى السّياسية على السّاحة المغربية والأندلسيّة وصهرها في بوتقة الدّولة الحفصيّة بتونس . فكيف بدا كلّ ذلك من خلال هذا الأثر الشّعري ؟

إنّ النّاظر في ديوان ابن الأبار يمكن أن ينظر فيه من زاويتين : فإن كان ناقدا أو أسلوبيّا كانت غايته منه القيمة الجماليّة فيه ، وإن كان مؤرّخا للأدب أو دارسا للتفكير فيه كان هدفه منه القيمة الوثائقيّة .

---

(10) جاء البيت في الدّيوان هكذا :

وَتَقَطَّعَتْ مَا بَيْنَنَا الأَسْبَابُ فَالأَقْ لَامُ خُرْسٌ وَالرِّيَاحُ رَوَاكِدُ

(11) ذكر المحقّق بتواضعه المعهود منه أنّ صعوبات كثيرة اعترضته وأنّ (هناك مشاكل لا يمكن حلّها إلّا بالعثور على نسخة أخرى من الدّيوان) ص 27 .

ولقد نظرنا في ديوان ابن الأبّار من الزّاوية الثانية أي بحثنا عن قيمته الوثائقيّة ، فبدا لنا أنّ ديوانه ــ كحياته ــ يمكن أن نلاحظ فيه قسمين أو مرحلتين :

1 ــ المرحلة الأولى : تمثّل الفترة التي قضاها الشّاعر في شرقيّ الأندلس من مولده سنة 595 هـ/1198 م إلى انتقاله إلى العدوة الإفريقيّة سنة 636 هـ/1238 م .

2 ــ المرحلة الثّانية تمثّل الفترة التي قضاها في إفريقيّة وتمتدّ من هجرته إلى بجاية سنة 636 هـ/1238 م إلى مقتله سنة 658 هـ/1260 م .

وفي كلتا المرحلتين عاش ابن الأبّار أحداثا جساما تركت بصمات واضحة في شعره . وقد حاولنا أن نتتبع هذه الأحداث من خلال ما نظمه ابن الأبّار من شعر ، فكان ما وصلنا إليه تارة مدّعما لما جاء في المصادر التاريخيّة واضحا ، وحينا مدقّقا لما جاء بها عامّا وطورا ثالثا مضيفا أشياء قد لا يهتمّ بها المؤرّخون عادة في القرون الوسطى ولكنها بالنّسبة إلينا اليوم على جانب كبير من الجدوى . وسنبدأ بالمرحلة الأولى أي الفترة الأندلسيّة من حياة ابن الأبّار ونثنّي بالمرحلة الثّانية أي الفترة الإفريقيّة منها .

العدوة الأندلسيّة في ديوان ابن الأبّار

1 ــ فتنة بيران (12)

قام بها أهل هذه القلعة ضدّ السيّد أبي زيد عبد الرّحمان بن محمّد بن يوسف بن عبد المؤمن والي بلنسيّة . ولكن سرعان ما أذعنت هذه القلعة لابنه أبي يحيى وأعلنت طاعتها سنة 1225/622 . وذكر ابن الأبّار في قصيد مدح فيه أبا زيد ما كان ينتظر القلعة من تدمير وتخريب لو أصرّت على المقاومة . وهو في مدحه لا يخفي ابتهاجه بهذه النّتيجة التي أدّت إلى فوز الأمير بطاعة القلعة ونيل القلعة عفو الأمير . [**البسيط**](13).

1 ــ لِلّـهِ قَلْعَـةُ بِيـرَانٍ وَعِزَّتُهَـا   عَلَى الأَعَاصِيرِ فِي مَاضِي الأَعَاصِيرِ
2 ــ عَنَتْ وَدَانَتْ عَلَى حُكْمِ الْمُنَى فَرَقًا   مِنْ سَيِّدٍ قَدْ هَوَتْ مِنْ أَرْفَعِ السُّورِ

(12) حصن من أعمال دانية (ابن سعيد : المغرب 419/2) .

(13) د/ص 442 (د = ديوان ابن الأبّار) .

3 ــ وَأَذْعَنَتْ وَجْيِ الشَّمَّاءُ ذُرْوَتُهَا   عَلَى حِجَاجٍ لَهَا مِنْ قَبْلُ مَذْكُورِ
4 ــ وَلَوْ أَصَرَّتْ عَلَى الإِعْرَاضِ ثَانِيَةً   لأَصْبَحَتْ بَيْنَ تَخْرِيبٍ وَتَدْمِيرِ
5 ــ مَدَّتْ إِلَيْكَ أَبَا زَيْدٍ بِطَاعَتِهَا   يَدًا مَخَافَةَ صَوْلٍ مِنْكَ مَشْهُورِ
6 ــ وَأَكَّدَتْ فِي الرِّضَى وَالصَّفْحِ رَغْبَتَهَا   كَمَا تَقَدَّمَ تَأْيِيدُ الْمَقَادِيرِ
7 ــ فَجُدْتَ جُودَكَ بِالْحُسْنَى بِمَا سَأَلَتْ   مِنَ الأَمَانِ لَهَا طَلْقُ الأَسَارِيرِ

2 ــ معركة أنيشة :

وقعت هذه المعركة يوم الخميس 20 من ذي الحجّة 14/634 أوت 1237 بين جيش بلنسيّة يقوده الأمير زيّان بن مردنيش وجيش أراغوني في محاولة من المسلمين الاستيلاء على حصن أنيشة الذي اتّخذه النّصارى قاعدة للانطلاق والإغارة على نواحي إقليم بلنسيّة . وانتهت المعركة بهزيمة فادحة للمسلمين وكانت بمثابة انهيار الجدار الأندلسي بعد انهيار الجدار الموحّدي في معركة العقاب . واهتمّ ابن الأبّار بهذه المعركة من خلال رثائه[14] لشيخه أبي الرّبيع سليمان بن موسى الكلاعي ، وقد سقط صريعا على أرض الميدان . وفي الدّيوان نجد تحديدا للمعركة من حيث المكان والزّمان . قال ابن الأبّار [طويل][15] .

25 ــ سَقَى اللَّهُ أَشْلاَءً بِسَفْحِ أُنَيْشَةٍ   سَوَافِحَ تُزْجِيهَا ثِقَالُ الْغَمَائِمِ
24 ــ أَضَاعَهُمْ يَوْمَ الْخَمِيسِ حِفَاظُهُمْ   وَكَرُّهُمُ فِي الْمَأْزِقِ الْمُتَلاَحِمِ

وقال الشاعر يصف قتلى المسلمين في هذه المعركة ، وفي وصفه لهم إكبار وإجلال يخفي في ثناياه كثيرًا من الحسرة والألم : [طويل][16] :

1 ــ أَلِمَّا بِأَشْلاَءِ الْعُلَى وَالْمَكَارِمِ   تُقَدُّ بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَالصَّوَارِمِ
2 ــ وَعُوجَا عَلَيْهَا مَأْرَبًا وَمَفَازَةً   مَصَارِعُ غَصَّتْ بِالطُّلَى وَالْجَمَاجِمِ
3 ــ تُحَيِّي وُجُوهًا فِي الْجِنَانِ وَجِيهَةً   بِمَا لَقِيَتْ حُمْرًا وُجُوهُ الْمَلاَحِمِ
4 ــ وَأَجْسَادَ إِيمَانٍ كَسَاهَا نَجِيعُهَا   مَجَاسِدَ مِنْ نَسْجِ الظُّبَى وَاللَّهَاذِمِ
17 ــ تَغَلْغَلَ فِيهَا كُلُّ أَسْمَرَ ذَابِلٍ   وَجَدَّلَ مِنْهَا كُلُّ أَبْيَضَ نَاعِمِ

---

(14) خصّص لرثائه قصيدة بـ 101 بيت .

(15) د/ص 277 .

(16) د/ص 275 ــ 276 ــ 277 .

21ــ فَعَامِلُ رُمْحٍ دُقَّ فِي صَدْرِ عَامِلٍ   وَقَائِمُ سَيْفٍ قُرَّ فِي رَأْسِ قَائِمِ
22ــ وَيَا رُبَّ صَوَّامِ الْهَوَاجِرِ وَاصِلٍ   هُنَالِكَ مَصْرُومُ الْحَيَاةِ بِصَارِمِ

وهؤلاء القتلى ، لئن فرّقت السنّ بينهم ، فقد جمع بينهم بذل النّفس جهادا واحتسابا ، قال الشّاعر [الطّويل] [17] :

20ــ أُصِيبُوا ، وَكَانُوا فِي الْعِبَادَةِ أُسْوَةً   شَبَابًا وَشِيبًا بِالْغَوَاشِي الْغَوَاشِمِ

والعزاء الوحيد الذي قد يهوّن ما في نفوس المسلمين من وجد على إخوتهم ، هو ما ينتظر هؤلاء الشّهداء من جزاء عند ربّهم [18] .

7ــ تَسَاقَوْا كُؤُوسَ الْمَوْتِ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى   فَمَالَتْ بِهِمْ مَيْلَ الْغُصُونِ النَّوَاعِمِ
6ــ هُمُ الْقَوْمُ رَاحُوا لِلشَّهَادَةِ وَاغْتَدَوْا   وَمَالَهُمْ فِي فَوْزِهِمْ مِنْ مُقَاوِمِ

3 ــ اللّجوء إلى النّصارى :

لمّا قرّر المأمون الموحّدي الانتقال من إشبيلية إلى مرّاكش سنة 1229/626 م، انحصر الصّراع في الأندلس في مرحلة أولى بين ابن هود من جهة وولاة الموحّدين من جهة أخرى . وازدادت الأمور تعقّدا عندما نجم ثائر آخر من شرقيّ الأندلس وهو أبو جميل زيّان بن أبي الحملات بن مردنيش ، وقام بطرد والي بلنسية من الموحّدين وهو أبو زيد فاضطرّ هذا الأخير ، وقد انهارت السّلطة الموحّديّة أو كادت بالأندلس ، إلى الالتحاق بالنّصارى وكان معه كاتبه ابن الأبار . ويبدو أنّ هذا الوالي وحاشيته لم يتمكّنوا ، وقد أجبروا على الخروج من ديارهم ، أن يصطحبوا معهم كلّ أهلهم وذويهم . فكان ذلك ممّا زاد في ألم المحنة ووطأة الغربة . قال الشّاعر [البسيط] [19] :

1ــ اَلْحَمْدُ لِلَّهِ لاَ أَهْلٌ وَلاَ وَلَدُ   وَلاَ قَرَارٌ وَلاَ صَبْرٌ وَلاَ جَلَدُ
2ــ كَانَ الزَّمَانُ لَنَا سِلْمًا إِلَى أَمَدٍ   فَعَادَ حَرْبًا لَنَا لَمَّا انْقَضَى الأَمَدُ

---

(17) د/ص 277 .

(18) د/ص 276 .

(19) د/ص 178 .

وما إن وصل ابن الأبّار إلى مملكة أراغون مع سيّده حتّى ندم ، وبدأ حنينه إلى الأهل والوطن يُنغصّ عليه حياته في بلاد النّصارى قال [الوافر][20] :

1ـ إلَى الإلْفَيْنِ مِنْ أهْلٍ وَدَارِ   تَأوُّبَنِي اشْتِيَاقِي وَادِّكَارِي
2ـ وحَنَّ الْقَلْبُ أعْشَارًا إلَيْهَا   حَنِينَ الْوَالِهَاتِ مِنَ الْعِشَارِ

وقوي هذا الحنين في نفس الشاعر واشتدّ ، وبات ابن الأبّار يشعر بغربة جسديّة وهو البعيد عن الوطن والأهل ، وروحيّة وهو المسلم بين النّصارى ، حتى أنّ إقامته في تلك الرّبوع أصبحت بمثابة الأسر والسّجن له . قال [الكامل][21] :

1ـ غَلَبَتْ عَلَيَّ لِبُعْدِكُمْ أشْجَانِي   وَجَفَا الْكَرَى مِنْ بُعْدِكُمْ أجْفَانِي
5ـ أسْرٌ وَقَسْرٌ لاَ قَرَارَ عَلَيْهِمَا   وَتَغَرُّبٌ عَنْ أُسْرَتِي وَمَكَانِي
4ـ لَوْ أنَّ ثَهْلاَنًا تَحَمَّلَ بَعْضَ مَا   حُمِّلْتُهُ خَرَّتْ ذُرَى ثَهْلاَنِ

ولمّا قرّر ابن الأبّار مغادرة مملكة أراغون والانتقال إلى أرض الإسلام لم يتّجه مباشرة إلى بلنسية كما تُوهم بذلك المصادر التّاريخيّة ، وإنّما اتّجه إلى شاطبة وبها أبو الحسين يحيى الخزرجي . وكان يحكم هذه المدينة باسم ابن هود ، كما كان في عداء مع حاكم بلنسيّة ابن مردنيش الذي اقتطّ منه مدينة دانية .

ويبدو من خلال ديوان ابن الأبّار أنّ والي شاطبة هو الذي شجّع ابن الأبّار على الانتقال من بلاد أراغون إلى شاطبة . قال الشّاعر [الوافر][22] :

14ـ أمَا أنَّ اللَّيَالِي غَالِبَاتٌ   وَلَوْ يُغْرَى بِنَصْرِي الْفَرْقَدَانِ
15ـ إذَا لَمْ أَلْقَهَا بِعُلَى ابْنِ عِيسَى   وَحَسْبِي مِنْ حُسَامٍ أوْ سِنَانِ
16ـ فَلَسْتُ مِنَ الإيَابِ عَلَى يَقِينٍ   وَلَسْتُ مِنَ الذَّهَابِ عَلَى أمَانِ
17ـ فَإنَّ أبَا الْحُسَيْنِ يَنَالُ مِنْهَا   مَنَالَ الذُّعْرِ فِي قَلْبِ الْجَبَانِ
18ـ يُفَهْنِهُهَا مَتَى نَهَدَتْ لِحَرْبِي   وَيَأْخُذُ لِي الأمَانَ مِنَ الزَّمَانِ
19ـ وَعَلِمْتُ أبَا الْحُسَيْنِ عَنَاهُ أمْرِي   فَأيُّ أمْرُ خِدْمَتِهِ عَنَانِي
38ـ وَمِثْلُكَ رَقَّ سُؤْدَدُهُ لِمِثْلِي   فَأجْنَى رَاحَتِي ثُمَّ الأمَانِي
39ـ وَرَاشَ جَنَاحِيَ الْمَقْصُوصَ ظُلْمًا   وَأسْنَانِي الأجِنَّةَ وَالْمَغَانِي

(20) د/ص 199.

(21) د/ص 327.

(22) د/ص 324 ـ 325.

وَيبدو أنّ الشاعر تعرّض إلى السّلب وهو في طريقه إلى شاطبة . وهذا أمر ليس بالغريب في منطقة شرقي الأندلس وفي مثل تلك الظروف العصيبة التي اختلط فيها الحابل بالنّابل . قال الشّاعر يصف حاله وهو كالأسير في بلاط النّصارى ، ويندب حظه وهو سليب في طريقه إلى شاطبة [الكامل][23] :

7ـ وَكَفَـاكَ أنَّ الـرُّومَ كَـانَتْ جِيرَتِـي ... مِـنْ جَـوْرِ دَهْـرِي وَاسْتِحَالَـةِ حَالِـي
8ـ كُـنْتُ الطَّلِيـقَ هُنَـاكَ لَكِـنْ لَـمْ أزَلْ ... مِـنْ شِدَّةِ الـحَسَرَاتِ فِـي أغْـلاَلِ
9ـ أبْكِـي عَلَـى اسْتِـئْصَالِ مَـنْ خَلَّفْتُـهُ ... وَأطِيـلُ فِـي الأسْحَـارِ وَالآصَالِ
10ـ حَتَّـى إذَا فَـارَقْتُ أرْضَهُـمُ الَّتِـي ... كَـانَتْ عِقَـالاً ثَانِيًـا كَعِقَالِـي
11ـ وَدَعَانِي الشَّوْقُ الْمُذِيبُ جَوَانِحِي ... لِمَنَازِلِـي فَأجَبْتُـهُ وَجِلاَلِـي
12ـ لاَقَـى بِـي الْجَدُّ الْعَثُـورُ عِصَابَـةً ... ذَهَـبَتْ بِمَـا لِـي كَـيْ يَسُوءَ مَآلِـي
13ـ فَاسْتَأنَفَتْ نَفْسِي بِحُكْمِ شَقَائِهَا ... خَـوْضًا لأهْـوَالٍ عَلَـى أهْـوَالِ

ويبدو أنّ ابن الأبار ترك شاطبة بعد وفاة الخزرجي في شعبان 1237/634 وقصد بلنسيّة . وَعَليه لينال حظوة لدى ابن مردنيش أنْ يتنصّل من مخدوميه أبي زيد الموحّدي وأبي الحسين الخزرجي وأن يُشيد بالدّعوة العبّاسيّة التي انضوى تحت رايتها السّوداء ابن مردنيش . قال يخاطبه [الطويل][24] :

1ـ تُنَاضِلُ عَـنْ دِيـنِ الْهُـدَى وَتُدَافِـعُ ... كَـأنَّكَ فِـي الْهَيْجَـاءِ أبُـوكَ (مُدَافِـعُ)
20ـ يَسُرُّ بَنِي الْعَبَّاسِ خَلْعُكَ مَـنْ غَـدَا ... لِدَعْوَتِهِـمْ مِـنْ قَبْلِهَـا وَهْـوَ خَالِـعُ
35ـ لِرَايَتِـهِ السَّوْدَاءِ فِـي كُـلِّ مَشْهَـدٍ ... قِيَـامٌ بِـنَصْرِ الْحَـقِّ أبْـيَضُ نَـاصِعُ
39ـ أمِيـرَ الْعُلَـى أرْجُـو وَمِثْـلُكَ سَامِـحٌ ... أمِيـرَ الْعُلَـى أدْعُـو وَمِثْـلُكَ سَامِـعُ

وتعرّض ابن الأبار سواء في شاطبة أو بلنسيّة إلى اللّوم ، إذ رأى بعضهم في خروجه إلى أرض الرّوم منقصة ، فقال يردّ عليهم مبيّنا أنّ خروجه هو ضرب من الوفاء لمخدومه ، وأنّ ذلك لم يَمسّ في شيء دينه ومعتقده . وذهب في الدّفاع عن نفسه إلى أنّه في خروجه إلى أرض الرّوم يشبه الصّحابة من قريش الذين هاجروا إلى الحبشة .

---

(23) د/ص 250.

(24) د/ص 359 ، 1 ـ 360.

وابن الأبّار يبالغ في قياسه لأنّ هؤلاء الصحابة هاجروا من أجل عقيدتهم مضطرّين بينما التجأ هو من أرض الإسلام إلى أرض الكفر باختياره . قال ابن الأبّار[**البسيط**][25] :

1ـ قَالُوا : الْخُرُوجُ لِأَرْضِ الرُّومِ مَنْقَصَةٌ ... فَقُلْتُ : كَلاَّ وَلَكِنْ صَادَهَا بَاءُ
2ـ إِذَا خَرَجْتُ وَفَاءً ثُمَّ عُدْتُ تُقًى ... أَثْنَتْ بِفِعْلِي عُدَاتِي وَالأَحِبَّاءُ
3ـ وَكَانَ لِي فِي قُرَيْشٍ أُسْوَةٌ وَكَفَى ... مَعَ النَّجَاشِي تَرْضَاهَا الأَلِبَّاءُ

4 ـ سقوط بلنسيّة :

لقد فتحت هزيمة أنيشة الطريق أمام خايمي الأوّل ملك أراجون ليحقّق أمنية طالما راودته ، وهي الاستيلاء على عاصمة شرقيّ الأندلس بلنسيّة . وكانت هذه المدينة ، بعد أن سقطت كلّ الحصون التي كانت بمثابة الدّرع الواقي لها ، قد أصبحت تعجّ بآلاف المتساكنين من أهلها ومن فرّ تحت ضغط الزّحف النّصراني من أرباضها وقراها .

وبدأ خايمي الأوّل حصار بلنسيّة في 5 رمضان 21/635 أفريل 1138 بعد أن وصلت إليه الحشود النّصرانيّة من جهات متعدّدة برّا وبحرا .

لقد أثّرت معركة أنيشة وما سبقها من أحداث في معنويات سكّان بلنسية فلمّا وقع حصارها ثمّ سقوطها لم يكن ذلك ــ في نظر ابن الأبّار ــ ناتجا عن قوّة خارقة للعدو فقط ، وإنّما كان كذلك نتيجة لانهيار معنويّات أهلها أدّى إلى شبه فراغ عسكري أشار إليه الشّاعر [**البسيط**][26] :

22ـ خَلاَ لَهُ الْجَوُّ فَامْتَدَّتْ يَدَاهُ إِلَى ... إِدْرَاكِ مَا لَمْ تَطَأْ رِجْلاَهُ مُخْتَلِسًا
23ـ وَأَكْثَرَ الزَّعْمَ بِالتَّثْلِيثِ مُنْفَرِدًا ... وَلَوْ رَأَى رَايَةَ التَّوْحِيدِ مَا نَبَسَا

لقد أدرك النّصارى نقطة الضعف هذه ، وهم يحاصرون بلنسيّة ، فأمعنوا على مرأى ومسمع من أهلها في إتلاف ما تأنّقوا سنين طويلة في إقامته من حدائق ورياض خارجها . وعمدوا إلى الآلات المخرّبة يصوّبونها على ما تفنّن البلنسيّون مدّة في إشادته من معالم

(25) د/ص 55.

(26) د/ص 397.

عُمرانيّة داخلها . قال ابن الأبّار يصف بداية هذا الحصار وما لحق المدينة المحاصرة من أضرار [البسيط](27) :

14ــ وَأَرْبُعًا نَمْنَمَتْ أَيْدي الرَّبيعِ لَهَا ... مَا شِئْتَ مِنْ خِلَعٍ مَوْشِيَّةٍ وَكُسَى

15ــ كَانَتْ حَدَائِقَ لِلأَحْدَاقِ مُونِقَةً ... فَصَوَّحَ النُّضْرَ مِنْ أَدْوَاحِهَا وَعَسَا

16ــ وَحَالَ مَا حَوْلَهَا مِنْ مَنْظَرٍ عَجَبٍ ... يَسْتَجْلِسُ الرَّكْبَ أَوْ يَسْتَرْكِبُ الجُلَسَا

17ــ سَرْعَانَ مَا عَاثَ جَيْشُ الكُفْرِ وَاحَرَبَا ... عَيْثَ الدَّبَى فِي مَغَانِيهَا الَّتِي كَبَسَا

18ــ وابْتَزَّ بِزَّتَهَا مِمَّا تُحَيِّفُهَا ... تَحَيُّفَ الأَسَدِ الضَّارِي لِمَا افْتَرَسَا

19ــ فَأَيْنَ عَيْشٌ جَنَيْنَاهُ بِهَا خَضِرًا ... وَأَيْنَ غُصْنٌ جَلَبْنَاهُ بِهَا سَلِسَا

20ــ مَحَا مَحَاسِنَهَا طَاغٍ أُتِيحَ لَهَا ... مَا نَامَ عَنْ هَضْمِهَا حِينًا وَلاَ نَعَسَا

21ــ وَرَجَّ أَرْجَاءَهَا لَمَّا أَحَاطَ بِهَا ... فَغَادَرَ الشُّمَّ مِنْ أَعْلاَمِهَا خُنُسَا

10ــ وَصَيَّرَتْهَا العَوَادِي العَابِثَاتُ بِهَا ... يَسْتَوْحِشُ الطَّرْفُ مِنْهَا ضِعْفَ مَا أَنِسَا

ولم يجد البلنسيّون ، وقد ضيّق النّصارى عليهم الحصار برّا وبحرا ، من وسيلة للخلاص إلّا الاستنجاد . واتّجهت الأنظار في تلك الآونة إلى الدّولة الحفصيّة بتونس ، بعد أن خبا كلّ أمل في دولة الموحّدين بمرّاكش . ووصلت سفارة من أمير بلنسيّة أبي زيّان إلى أبي زكريّا الحفصي يقودها ابن الأبّار . فبلّغ هذا الكاتب الأندلسي بيعة شرقي الأندلس إلى الأمير الحفصي وأنشده سينيّته المشهورة بحثّه فيها على إدراك بلنسيّة وقد أخذ بمخنقها العدوّ . وكان أهمّ وتر عزف عليه ابن الأبّار لحن الاستغاثة ، الوتر الدّيني . فهو على يقين من أنّ الدّولة الحفصيّة الفتيّة تتوق إلى أن تحلّ محلّ الدّولة الموحّديّة المحتضرة في دورها الدّفاعي عن الإسلام والمسلمين . فها قد حانت الفرصة لها لتبرهن على أنها قادرة ، عن جدارة ، على القيام بهذا الدّور . فالإسلام في الأندلس بمبادئه ومعالمه أصبح مهدّدا .[البسيط](28) :

12ــ يَا لَلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعِدَى بِيَعًا ... وَلِلنِّدَاءِ غَدَا أَثْنَاءَهَا جَرَسَا

13ــ لَهْفِي عَلَيْهَا إِلَى اسْتِرْجَاعِ فَائِتِهَا ... مَدَارِسًا لِلْمَثَانِي أَصْبَحَتْ دُرُسَا

---

(27) د/ص 7 ــ 396.

(28) المقري : ن / 4 / 457 ــ د/ص 396. (ن = نفح الطّيب) .

وقد تأثر الأمير أبو زكريا لقصيد ابن الأبار ، وبادر بتجهيز بعض قطع من الأسطول الحفصي . وشحنها بالسّلاح والأطعمة والكسى والأموال وخرجت في اتجاه بلنسيّة . قال ابن الأبار وكلّه أمل في كسر شوكة العدوّ [الوافر][29] :

1 — ظَهِيـرَاكَ التَّوَكُّـلُ وَالْمَضَاءُ فَغَمْـرُ الْكُفْـرِ أَنْ لَـهُ انْقِضَاءُ
34 — هَنِيئًـا عَـامُ إِقْبَالٍ جَدِيـدٌ يُمْنِـي طُلُوعِـهِ عَـمَّ الْهَنَـاءُ
35 — وَإِعْـدَادٌ لِغَـزْوِ الشِّرْكِ تَزْكُـو بِنِيَّتِـهِ الْمَثُوبَـةُ وَالْجَـزَاءُ
41 — فَلِلتَّثْلِيـثِ وَهْـنٌ وَانْضِيَاعٌ وَلِلتَّوْحِيـدِ أَيْـدٌ وَارْتِقَـاءُ

لكن هذه الإعانة لم تصل إلى المدينة نظرا إلى مناعة الحصار المضروب حولها من كلّ الجهات وانتهى بها الأمر إلى أن أفرغت حمولتها في ثغر دانية بعيدا عن أرض المعركة .

ولم تستطع بلنسيّة ، بعد حوالي 7 أشهر من الحصار ، الاستمرار في المقاومة وقد نضبت أو تكاد مواردها الغذائيّة ، فبدأت المفاوضات مع ملك أراجون لتسليم المدينة صلحا على أن يؤمّن أهلها في أنفسهم . وبعد أن ضبط نصّ وثيقة الاستسلام دخل خايمي الأوّل بلنسيّة دخول الفاتحين متوّجا بأكاليل الغار في 27 صفر 636/9 أكتوبر 1238 .

وهذه النكبة في هولها وشدّتها كريح عاتية عصفت بكلّ نفس فتركتها ترسل الآهات توجّعا وتفجّعا . قال ابن الأبار [البسيط][30] :

3 — كَزَعْزَعِ الرِّيحِ صَكَّ الدَّوْحَ عَاصِفُهَا فَلَمْ يَدَعْ مِنْ جَنًى فِيهَا وَلاَ غُصُنِ
14 — وَاهًا وَآهًا يَمُوتُ الصَّبْرُ بَيْنَهُمَا مَوْتَ الْمَحَامِدِ بَيْنَ الْبُخْلِ وَالْجُبْنِ

(29) د/ص 46 ، 9 — 48 .

(30) د/ص 1 — 320

لقد تسلّط الأعداء، بتغلّبهم، على مقدّساتها فدنّسوها، وببربريّتهم، على معالمها الحضاريّة فخرّبوها، وبوحشيّتهم، على بهجة الحياة فنغّصوها. قال الشّاعر [الكامل][31]:

20_ بِأَبِي مَدَارِسُ كَالطُّلُولِ دَوَارِسٌ   نَسَخَتْ نَوَاقِيسُ الصَّلِيبِ نِدَاءَهَا
21_ وَمَصانِعٌ كَسَفَ الضَّلَالُ صَبَاحَهَا   فَيَخَالُهُ الرَّائِي إِلَيْهِ مَسَاءَهَا
22_ رَاحَتْ بِهَا الوَرْقَاءُ تُسْمِعُ شَدْوَهَا   وَغَدَتْ تُرَجِّعُ نَوْحَهَا وَبُكَاءَهَا
26_ أَمَّا العُلُوجُ فَقَدْ أَحَالُوا حَالَهَا   فَمَنِ المُطِيقُ عِلاَجَهَا وَشِفَاءَهَا.
27_ أَهْوَى إِلَيْهَا بِالمَكَارِهِ جَارِحٌ   لِلْكُفْرِ كَرَّةَ مَاءَهَا وَهَوَاءَهَا

والشّاعر، لئن ألحّ على وصف قسوة النّصارى في حصارهم للمدينة، فقد أشار إلى تأهّبهم للقتال واستعدادهم ونوّه بشجاعتهم وتفانيهم في المعركة. ولاح باللائمة على قومه. فقد أخطؤوا التّقدير وتهاونوا، وكفروا بالنّعمة وبطروا. قال ابن الأبار في قصيدة مطلعها [البسيط][32]:

1_ وَطَنٌ عَلَى الذَّائِبَيْنِ: الدَّمْعِ وَالشَّجَنِ   يَا نَادِبَ الذَّاهِبَيْنِ: الأَهْلِ وَالوَطَنِ

ثمّ أضاف واصفا النّصارى لائما قومه:

10_ زُرْقًا أَسِنَّتُهُمْ مِنْ جِنْسِ أَعْيُنِهِمْ   مُشْتَقَّةً مِنْ قِتَالِ القَرْضِ وَالمُنَنِ
11_ قَدْ أَلْبَسُوا خَيْلَهُمْ أَمْثَالَ مَا ادَّرَعُوا   وَاسْتَقْبَلُونَا حُصُونًا فِي ذُرَى حُصُنِ
12_ هُمْ أَخْرَجُونَا مِنَ الأَوْطَانِ عَنْ حَنَقٍ   وَزَحْزَحُونَا عَنِ الجِيرَانِ مِنْ ضَغَنِ
13_ فَكَمْ لَقِينَا عَلَى الأَمْصَارِ مِنْ فَنَدٍ   وَكَمْ تَرَكْنَا لَدَى الكُفَّارِ مِنْ فَدَنِ
17_ أُبِيحَ لِلرُّومِ مَا وُفِّي مَرَامِيَهُمْ   فِيهَا بُؤْنَا بِطُولِ الغَبْنِ وَالغَبَنِ

(31) د/ص 5 _ 34
(32) د/ص 1 _ 320

وبلنسيّة عند هذا الشاعر جنّة الخلد . ومن غرائب الأمور أن أصبحت الجنّة ـــ وهي مأوى المؤمنين ـــ مرتعا لأهل النّار من الضّالين [الكامل](33) :

23ـــ عَجَبًا لأهْلِ النّارِ حَلُّوا جَنَّةً مِنْهَا تُمُدُّ عَلَيْهِمُ أفْيَاءَهَا
24ـــ أمْلَتْ لَهُمْ ، فَتَعَجَّلوا مَا أمَّلُوا أيّامُهُمْ ، لاَ سَوَّغوا إمْلاءَهَا

وكما خرج منها الإيمان ورحل ، ودخلها الكفر وثوى ، أصبح معروفها منكرا وقولها زورا وتقواها زيفا [الرّمل](34):

14ـــ يَا لَسَاحَاتٍ ثَوَاهَا الْعِدَى فَبَدَا الْمَعْرُوفُ مِنْهَا مُنْكَرَا
15ـــ رَاحَ مَنْ آمَنَ عَنْهَا رَاحِلاً وَغَدَا يَحْتَلُّهَا مَنْ كَفَرَا
16ـــ فَعَسَى الشِّرْكُ عَلَيْهَا قَسْمَةً لِتُقِيَةٍ الْقَسَمِ فِيهَا الْحَجَرَا

وأصبحت المدينة في أعماق نفس الشاعر موطن المتناقضات ، فهي محلّ الماء ومصدر العطش ومثوي الحب والكره ، ومكان الأنس والوحشة[الطويل](35) :

1ـــ بَلَنْسِيَةٌ يَا عَذْبَةَ الْمَاءِ وَالْجَنَى سُقِيتِ وَإنْ أشْقَيْتِ صَوْبَ الرَّوَاجِسِ
2ـــ أحِبُّ وَأقْلَى مِنْكِ حَالاً وَمَاضِيًا بِمُسْتَوْحِشَةٍ مَوْتًا بِعَهْدِ الأوَانِسِ
3ـــ وَمِنْ عَجَبٍ أنَّ الدِّيَارَ أوَاهِلٌ وَأنْدُبُهَا نَدْبَ الطُّلُولِ الدَّوَارِسِ

ويغلب اليأس على النّفس ، وهي غارقة في بحر أحزانها ، فلم تعد ترى إلاّ حقيقة واحدة مُرّة ولكن لا مفرّ من الإصداع بها : وهي أنّ ما ضاع من المكاسب بسقوط بلنسيّة يصعب استرجاعه . قال ابن الأبار [كامل](36) :

16ـــ إيهِ بَلَنْسِيَةٌ وَفِي ذِكْرَاكِ مَا يُمْرِي الشُّؤُونَ دِمَاءَهَا لاَمَاءَهَا
17ـــ كَيْفَ السَّبِيلُ إلَى احْتِلاَلِ مَعَاهِدٍ شَبَّ الأعَاجِمُ دُونَهَا هَيْجَاءَهَا

(33) د/ص 5 ـــ 34
(34) د/ص 186.
(35) د/ص 400.
(36) د/ص 34.

ويضطرّ الشّاعر إلى الرّحيل نهائيًا عن بلنسيّة بعد سقوطها وليس له من أهل إلاّ ما سيجده لدى حاكم تونس الحفصي من أمن وإكرام وُعِد بهما أو شعر وهو يمدح أنّه سيحبوه بهما ، لو استقرّ بكنفه وحلّ بجواره . قال الشاعر يصف البحر الذي ركبه مع عائلته [**الطّويل**][37] :

33ــ أَلاَ حَبَّذَا فُلْكٌ مَوَاخِرُ زَاحَمَتْ   غَوَارِبَ طَامٍ لاَ يُنَهْنَهُ طَامِحِ
34ــ جَرَتْ فَوْقَ مَوْجٍ كَالجِبَالِ تَنَاوَحَتْ   فَكَيْفَ نَجَتْ مِنْ نَوْجِهَا الْمُتَنَاوِحِ

ويعاني الشاعر في هذه الرّحلة ألم الفراق لوطن محبوب ومشقة السّفر في بحر مخيف مع عائلة عديد أفرادها شديد عبؤها .[**الطويل**][38] :

27ــ صَفَا لِلْمَعَالِي مِنْهُ[39] عَائِلُ صِبْيَةٍ   حَشَايَاهُمُ طَيُّ الْحَشَا وَالْجَوَانِحِ
28ــ يُصَابِرُ ضَرَّاءَ النَّوائِبِ وَالنَّوَى   وَتُطْوِي عَلَيْهَا الْكَشْحَ خِيفَةَ كَاشِحِ
29ــ قَوَارِيرُ[40] لَمْ يَرْبَأْ بِهَا الْبَحْرُ سَابِقًا   وَلاَذَادَ عَنْهَا الْبَرُّ حَمْلَ الْفَوَادِحِ
30ــ تَكَادُ عَلَيْهَا النَّفْسُ تَذْهَبُ حَسْرَةً   إِذَا لَمَحَتْهَا الْعَيْنُ وَسْطَ الضَّحَاضِحِ[41]

ويغلب شعور الأبوة على ابن الأبّار فينسى قليلا وطنه ويتركّز شعوره على أبنائه وما يحيط بهم من أخطار [**الطويل**][42] :

37ــ يَحِنُّ جَنَانِي رِقَّةً لِأَجِنَّةٍ   ثَوَتْ فِي بُطُونِ الْمُنْشَآتِ السَّوَابِحِ
38ــ وَتُطْوَى عَلَى نَارِ التَّلَهُّبِ أَضْلُعِي   وَحَامِي الْجَوَى مِنْ خَائِمَاتِ الْجَوَانِحِ
39ــ مُتَاحٌ مِنَ الأَقْدَارِ مَزَّقَ شَمْلَهَا   بِكَشْحٍ مُغِيرٍ أَوْ إِغَارَةِ كَاسِحِ

---

(37) د/ص 125.

(38) د/ص 5 ــ 124

(39) الضّمير يعود على الممدوح وهو أبو زكرياء

(40) بناته

(41) البحر

(42) د/ص 125.

ويستقرّ الشاعر بإفريقيّة ويعيش من قريب أجواء البلاط الحفصي ، ويعاوده الحنين إلى وطنه البعيد ويحاول إخفاء مشاعره فلا يستطيع إلى ذلك سبيلا [**الخفيف**][43] :

3ــ رَامَ أنْ يُخْفِيَ الغَرَامَ وَلَكِنْ ... لَمْ يَجِدْ مِنْ إِبْدَاءِ خَافِيهِ بُدَّا
6ــ يَا سَقَى اللهُ لِلرُّصَافَةِ عَهْدًا ... كَنَسِيمِ الصَّبَا يَرُقُّ وَيَنْدَى
9ــ لَيْتَ شِعْرِي هل يَرْجِعُ الدَّهْرُ عَيْشًا ... يَشْهَدُ الطِّيبُ أَنَّهُ كَانَ شَهْدَا
14ــ والثُّرَيَّا بِجَانِبِ البَدْرِ تَحْكِي ... رَاحَةً أَوْ مَسَّتْ لِتَلْطِمَ خَدَّا

ويحنّ الشاعر خاصّة إلى الرّصافة ببلنسيّة وهو المكان الذي قضى فيه سنين شبابه . لكن أنّى الوصول إليه والعدوّ به مقيم ورابض [**الكامل**][44] :

1ــ مَا لِلْهَوى إلاَّ الرُّصَافَةَ مَأْرَبُ ... بَعْدَ الغَدِيرِ فَكَيْفَ يَصْفُو مَشْرَبُ ؟
44ــ وَأَخَفُّ مَا حُمِّلْتُ مِنْ عِبْءِ الْهَوَى ... أَنْ أَسْتَرِيحَ إِلَى مَطَامِعَ تُتْعِبُ
45ــ يَا مَنْزِلاً كَانَ الْحِفَاظُ بِحِلَّةٍ ... وَالْجُودُ بِالضِّيفَانِ فِيهِ يُرَحِّبُ
46ــ أَهْوَى حُلُولَكَ ثُمَّ يَسْلُبُنِي الْهَوى ... أَنَّ الْعَدُوَّ بِجَانِبَيْكَ مُطَنِّبُ
47ــ أَصْبَحْتُ فِيكَ مُعَذِّلاً وَ مُعَذَّبًا ... وَكَذَا الْمُحِبُّ مُعَذَّلٌ وَمُعَذَّبُ[45]

ويخلق هذا التمزّق النفسي حالة مرضيّة لدى الشاعر . فهو عاجز عن النّسيان وغير قادر على الرّجوع [**الوافر**][46]:

1ــ إِلَى أَوْطَانِهِ حَنَّ العَمِيدُ ... فَظَلَّ كَأَنَّهُ غُصْنٌ يَمِيدُ
2ــ وَمَسْقَطُ رَأْسِهِ ذَكَرَ اشْتِيَاقًا ... فَذَابَ فُؤَادُهُ وَهُوَ الْحَدِيدُ
3ــ وَلَوْ دَامَ السُّلُوُّ أَبَتْ عَلَيْهِ ... مَعَاهِدُ . عَهْدُهَا الْمَاضِي حَمِيدُ

(43) د/ص 175.
(44) د/ص 59 ، 3 ــ 62
(45) د/ص 66
(46) د/ص 177

وأشدّ ما يؤلم الشاعر هو ضياع الدّين بضياع الوطن . لقد كان لهذا الدّين في بلنسيّة وغيرها من أرض الأندلس من يحميها وينصرها كالحاجب القويّ المنصور بن أبي عامر . لكن ما إن ذهب منصور الإسلام حتّى زحف سفّاح النّصارى . قال [الكامل](47) :

7ـ قَدْ أُسْلِمَ الإسْلاَمُ فِيهِ إِلَى العِدَى   فَأَسَاهُ بَرْحٌ لاَ تُتَاحُ بَرَاحُهُ
8ـ لَمَّا تَحَجَّبَ فِي الثَّرَى مَنْصُورُهُ   أَلْحَى عَلَيْهِ بِسَيْفِهِ سَفَّاحُهُ

ولم يبق للشّاعر وقد غلب اليأس وأطبق القنوط إلاّ البكاء على وطن ضاع إلى الأبد [الوافر](48) :

7ـ يَشُقُّ عَنْ أَهْلِي نُزُوحِي   وَيَغْلِبُنِي إِلَى وَطَنِي نُزُوعِي
8ـ فَكَمْ أَبْكِي الدِّيَارَ وَسَاكِنِيهَا   بِطَرْفٍ مُسْعِدٍ وَدَمٍ هُمُوعِ

5 ـ سقوط إشبيليّة :

لقد أصبح الموقف في غربيّ الأندلس على درجة كبيرة من الخطورة في بداية العقد الرّابع من القرن 13/7 بعد سقوط كامل شرقيّ الأندلس بيد أراجون . فملك قشتالة سيعمل على أن يظهر بأنّه لا يقلّ حماسا عن ملك أراجون في حركة الاسترجاع المسيحيّة . ولهذا ما فتىء يتطلّع بنظره إلى إشبيلية عاصمة الموحّدين بالأندلس بعد أن استولى على قرطبة عاصمة الخلافة الأمويّة بها .

وكان الوضع الدّاخلي بإشبيلية عاملا مشجّعا لهذا الملك النّصراني على تحقيق ما تصبو إليه نفسه ، نتيجة للصّراعات الدّاخليّة المتتالية بها . وكان سكان إشبيلية على يقين أنّ دورهم في حركة الاسترجاع النّصراني سيأتي ، وكانوا مقتنعين بأنّ مدينتهم لا تستطيع أن تقف بمفردها لمواجهة الخطر النّصراني ، ولهذا وقع الاستنجاد بالدّولة

(47) د/ص 131.

(48) د/ص 365.

الموحديّة بعد الرّجوع إلى طاعتها سنة 1237/635 . ولمّا رأوا ضعف هذه الدّولة انضووا تحت لواء الدّولة الحفصيّة آملين أن تصلهم النّجدة من لدنها .

ولقد تسبّب وصول الوالي الحفصي الذي أرسله أبو زكريا إلى إشبيلية في فتنة أدّت إلى مقتل ابن الجدّ حاكم المدينة ، فاتّخذ فرديناند الثّالث ملك قشتالة ذلك ذريعة لغزو المدينة . وبدأ في أوائل 1246/644 بالهجوم على قواعدها الأماميّة ، ثمّ عاد إليها في سنة 1247/645 وحاصرها برّا وبحرا . وفي يوم الإثنين 5 شعبان 23/646 نوفمبر 1248 وقع الاتّفاق على تسليم المدينة على أن يغادرها أهلها في ظرف شهر .

ووصلت هذه الأنباء المؤلمة إلى البلاط الحفصي ، لقد افتكّت المدينة وهي خاضعة — ولو إسميّا — إلى الحفصيّين . فهل يعتبر هذا من باب الاعتداء عليهم ؟

إنّ قصيدة مدحيّة في ديوان ابن الأبّار توحي بأنّ حكّام تونس أصبحوا على يقين بوجوب العبُور إلى الأندلس للقيام بواجب الجهاد . فالأندلس تعيش في ظروف شبيهة بما عاشته مع ملوك الطوائف قبيل الزلاّقة . وتعيش في مناخ عسكري شبيه بما كانت عليه قبيل عبور عبد المؤمن بن علي إليها . فالفرصة سانحة إذا لإعادة (أرك) ثانية وأخذ الثأر من (العقاب) والظّهور بمظهر المنقذ للأندلس كما ظهر يوسف بن تاشفين بطل معركة الزلاّقة والمنصور الموحدي بطل معركة الأرك . قال ابن الأبّار[المديد][49] :

1 — أذِنَتْ أرْضُ العِـــدَى بِافْتِتَـــاحِ ... هَـــلْ وَرَاءَ اللّيْـــلِ غَيْـــرُ الصَّبَـــاحِ
5 — إنَّ لِلتَّوْحِيـــدِ عَزْمًـــا صَحِيحًـــا ... يُـــوسِعُ التَّثْلِيـــثَ كَـــرَّ اكْتِسَـــاحِ
6 — وَيُسَاقِـــي الصُّفْـــرَ حُمْـــرَ المَنَايَـــا ... بِالصِّعَـــادِ السُّمْـــرِ أوْ بِالصِّفَـــاحِ
7 — وُعِـــدَتْ أنْـــدَلُسٌ مِنْـــهُ بِيَـــوْمٍ ... هِـــيَ لاِسْتِقْبَالِـــهِ فِـــي ارْتِيَـــاحِ
8 — كُـــلَّ أزْمٍ قَبْلَـــهُ وَالْتِهَـــامٍ ... لاِنْفِـــرَاجٍ بَعْـــدَهُ وَاتِّضَـــاحِ
9 — إنْ يَكُـــنْ عِيـــدًا لِنَحْـــرٍ وَذَبْـــحٍ ... كَيْـــفَ شَاءَتْ فَالأعَـــادِي أضَاحِـــي
10 — بِالْفَسَـــادِ اعْتَمَـــدُوا كُـــلَّ صُنْـــعٍ ... وَعَلَـــى الْهَـــادِي مَعَـــادُ الصَّلاَحِ
11 — أحِمَـــى حِمْـــصٍ أبَاحُـــوا جِهَـــارًا ... وَحِمَاهَـــا لَـــمْ يَكُـــنْ بِالْمُبَـــاحِ
12 — لاَ وَيَحْيَـــى الْمُـــرْتَضَى . لأهَنَاهُـــمْ ... بِأَلِيـــمِ القَـــرْحِ وِرْدُ القَـــرَاحِ
13 — إنَّمَـــا يُـــرْقَبُ مِيقَـــاتُ فَتْـــحٍ ... هُـــوَ آتٍ فِـــي ضَمَـــانِ النَّجَـــاحِ

(49) د/ص 119 — 120

إنّ العوامل المشجّعة على العبور كثيرة وأهمّها استتباب الأمن داخليًا ، وبه يكون المنقذ قد جمع بين الشّرعيّة الزّمنيّة بانتمائه إلى عدّي بن كعب جدّ عمر بن الخطّاب ، والشّرعيّة الآنيّة بقضائه على جميع الثّورات والفتن . ولم يبق له إلّا أن يحقّق المجد عن طريق الجهاد في الأندلس . قال الشّاعر [المديد][50] :

32ـ هَـذِهِ الْحَرْبُ اسْتَكَـانَتْ وَكَـانَتْ فِـي التَّعَـاصِي مَثَـلاً وَالْجِمَـاحِ
36ـ دَوْلَـةٌ حَفْصِيَّـةٌ فِـي اقْتِبَـالٍ وَعُلَـى مَهْدِيَّـةٌ فِـي طِمَـاحِ
37ـ مُنْتَهَاهَـا فِـي عَـدِيِّ بْـنِ كَـعْبٍ وَذُرَاهَـا فِـي اللُّبَـابِ الصُّرَاحِ

ويشير الشّاعر في ديوانه أنّ الأسطول الحفصي عبر فعلا مضيق جبل طارق في محاولة لإنجاد أهل الأندلس عامّة وأهل حمص خاصّة . فهل تمّ فعلا ذلك ؟ قال [المديد][51] :

18ـ دَعْ أَسَالِيبَ النَّسِيبِ وَخُـذْ فِـي أَسَاطِيـرِ الأَسَاطِيـلِ
19ـ أَلْجَـوَارِ الْخَيْـلِ سَابِحَـةٌ ذَاتُ تَزْيِيـنٍ وَتَزْيِيـلِ
22ـ لاَ تَـزَالُ الْعُجْـمُ تَعْجُمُهَـا طَـيَّ تَعْجِيـزٍ وَتَعْجِيـلِ
24ـ خُلِـقَتْ مُخْتَلَّـةً بِهِـمُ شَرَّ تَخْلِيـقٍ وَتَخْلِيـلِ
25ـ وَسَلَتْ بَحْـرَ الْمَجَـازِ بِهَـا طَـرِبَتْ كَالنَّسِيـبِ لِلنِّيـلِ
26ـ عَزْمُهَـا وَالـرُّومُ بِالْعُـدْوَى بَيْـنَ تَجْدِيـدٍ وَتَجْدِيـلِ
33ـ مَـا أَلَـو الفُـرْآنِ إِنْ صَدَقُـوا عَزْمَهُـمْ مِـنْ جِيـلِ الْجِيـلِ
34ـ بِالْجَـوَارِي الْمُنْشَآتِ لَهُـمْ جَـرْيُ تَنْبِيـرٍ وَتَنْبِيـلِ
39ـ خَالَـقَتْ يَحْيَـى خَلِيقَتُـهُ حُسْنَ تَأْثِيـرٍ وَتَأْثِيـلِ

وبقي الشّاعر يحنّ إلى إشبيلية بعد سقوطها ، كما بقي يحنّ إلى بلنسيّة مسقط رأسه دون قدرة على الرّجوع إليهما كالطّائر المقصوص الجناح لا قدرة له على الطّيران . قال [الطّويل][52] :

20ـ يُسَائِلُ عَـنْ نَجْـدٍ صَبَاهَـا مُعَـاشِرٌ وَأَسْأَلُ عَـنْ حِـمْصَ التَّعَامِـي وَأَسْتَـقْصِي
21ـ وَلَوْ كُنْتُ مَوْفُورَ الْجَنَاحِ لَطَارَ بِي إِلَيْهَـا وَلَكِـنْ حَصَّهُ الْبَيْـنُ بِالْـقَصِّ

(50) د/ص 121
(51) د/ص 4 ـ 233
(52) د/ص 331

6 ــ علاقته بأمراء الأندلس :

لا شكّ أنّ ابن الأبّار ربط علاقات ودّ وصداقة مع كثير من الأمراء والوزراء بالأندلس فزيادة على من خدمهم بقلمه من حكّام بلنسيّة وشاطبة ، كانت له مراسلات مع بعضهم الآخر . ومن هؤلاء هناك :

أ ــ أبو علي عمر بن أبي موسى والي جيّان : وقد راسل الشّاعر وهو بإفريقيّة عندما كان واليا على بجاية أو المهديّة(53) . ومن هذه المراسلات ما كتبه مع تمر أهداه إلى ابن الأبّار [الطويل](54) :

1 ــ أَتَتْكَ نَخِيلَاتٌ بِحُسْنِ الخَلَائِقِ　　بِهَا غُنْيَةٌ عَنْ كُلِّ مَا فِي الْحَدَائِقِ

فأجابه ابن الأبّار [الطويل](55) :

1 ــ أَمَوْلَايَ حَقُّ العَبْدِ تَقْرِيرُ عُذْرِهِ　　إِذَا هُوَ لَمْ يَلْقَ الْحُقُوقَ بِلَائِقِ
6 ــ كَأَنَّ الَّذِي تُهْدِيهِ مِنْ تَمْرِهَا اغْتَدَى　　بِرِيقَةِ مَوْمُوقٍ وَرِقَّةِ وَامِقِ
7 ــ مَنَنْتَ بِهَا مَنْثُورَةً وَشَفَعْتَهَا　　بِمَنْظُومَةٍ كَالْعِقْدِ فِي نَحْرِ عَاتِقِ

فردّ أبو علّي منوّها بقطعة ابن الأبّار هذه [الطويل](56) :

1 ــ أَتَتْ فَحَبَا مِنْ نُورِهَا نُورُ شَارِقٍ　　وَلَاحَتْ فَلَمْ يُلْمَحْ وَمِيضٌ لِبَارِقِ
2 ــ وَجَاءَتْ مُوَشَّاةً مِنَ اقْلَامِكَ الَّتِي　　بِرِيقَتِهَا رَاقَتْ صِفَاحُ الْمَهَارِقِ

فأجابه ابن الأبّار مشيدا بشعر أبي علي [طويل](57) :

1 ــ لِمَنْ كَلِمٌ كَاللُّؤْلُؤِ الْمُتَنَاسِقِ　　لَهَا فَضْلُ مَوْصُوفَاتِهِنَّ الْبَوَاسِقِ
4 ــ يَجِيشُ بِهَا بَحْرٌ مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّدَى　　حَبَا كُلَّ أُفْقٍ مِنْ حُلَاهُ بِفَائِقِ

---

(53) تولّى أبو علي هذا ولاية بجاية للدّولة الحفصيّة ثمّ انتقل منها إلى المهديّة في رجب 1240/638 (الحلّة : 282/2) .

(54) المصدر السّابق ص 285 .

(55) د/ص 4 ــ 453 .

(56) الحلّة : 2/ص 287

(57) د/ص 454

ب ــ سعيد بن الحكم حاكم منورقة[58] : من الصّعب القول إنّ ابن الأبّار اتّصل بهذا الأمير وهو بجزيرته . والرّاجح أنّ الشّاعر راسله وهو مقيم بإفريقيّة لِمَا سمعه عن بلاطه الذي أصبح ملاذا لأدباء العصر وعلمائه بعد سقوط ميورقة ومنطقة شرقيّ الأندلس بيد أراغون . ونجد في ديوان ابن الأبّار ثلاث مقطوعات مدحيّة في هذا الأمير الذي استطاع بحنكته أن يحتفظ بحكم هذه الجزيرة حوالي نصف قرن إلى أن توفّي سنة 1272/680 . قال ابن الأبّار مؤكّدا على خصال تحلّى بها سعيد بن الحكم ، قلّ وجودها في ذلك الزّمن [الخفيف][59] :

1ــ سَيِّدٌ أَيِّدٌ رَئِيسٌ نَفِيسٌ   فِي أَسَارِيرِهِ صِفَاتُ الصَّبَاحِ
2ــ قَمَرٌ فِي أُفْقِ الْمَعَالِي تَجَلَّى   وَتَحَلَّى بِالسُّؤْدُدِ الْوَضَّاحِ
3ــ سَلَّمَ الْبَحْرُ فِي السَّمَاحَةِ مِنْهُ   لِجَوَادٍ سَمَوْهُ بَحْرَ السَّمَاحِ

وهي خصال سياسيّة بالدّرجة الأولى مكّنته من تجنّب الغزو النّصراني . وكان ذلك في متناول أيديهم [مجزوء الرّجز][60] :

1ــ إنَّ سَعِيدَ بْنَ الْحَكَمْ   صِنْوُ الْعُلَى نَجْلُ الْكَرَمْ
2ــ رِئَاسَةٌ بِمِثْلِهَا   يُفَاخِرُ السَّيْفُ الْقَلَمْ
3ــ وَسُؤْدَدٌ مَجْمُوعَةٌ   فِيهِ مَحَاسِنُ الشِّيَمْ

ولئن كان ابن الأبّار معجبا بخصال هذا الأمير ، فلا شكّ أنّه كان ينتظر أن يصله منه بعض هباته ، خاصة وقد عاش في إفريقيّة ــ عندما كان مغضوبا عليه ــ فترات صعبة . قال مؤكّدا على كرم سعيد بن الحكم [الوافر][61] :

1ــ كَأَنَّ عُلاَكَ أَفْلاَكٌ وَفُلْكٌ   بِأَرْزَاقِ الْبَرِيَّةِ جَارِيَاتُ
2ــ كَأَنَّ هِبَاتِهَا مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ   نَتَائِجُ مَا لَهُنَّ مُقَدِّمَاتُ
3ــ وَمَهْمَا اهْتَزَّ جَيْشُكَ نَحْوَ جَيْشٍ   فَأَنْتَ سِنَانُهُ وَهْوَ الْقَنَاةُ

(58) هي إحدى الجزر الثلاثة من الجزائر الشرقيّة وهي : ميورقة ومنورقة ويابسة .

(59) د/ص 129 .

(60) د/ص 459 .

(61) المطرب ص 179 .

ويبدو أنّ هذا الأمير ــ وهو الأديب ــ يجيب أحيانا ابن الأبّار شعرا، فقال صاحب الحلّة ردّا على إحدى مقطوعاته مؤكّدا على حماية سعيد بن حكم لجزيرة منورقة بتأمين العباد وفكّ الرّقاب . قال [الكامل][62] :

1 ـ تِلْكَ الْجَزِيرَةُ[63] أَقْبَلَتْ تَثْوِيهَا سُحُبٌ تَنَالُ بِسَقْيِهَا تَثْوِيهَا

4 ـ أُلِفَتْ أَبَا عُثْمَانِهَا[64] ذَا سِيرَةٍ عُمَرِيَّةٍ تُولِيهِ مَا يُولِيهَا

8 ـ فَكُّ الرِّقَابِ صَنَائِعًا مُذْ قَامَ لَمْ يَنْفَكَّ يَأْتِيهَا كَمَا يُؤْتِيهَا

7 ــ التحريض على الجهاد بالأندلس :

لقد أصبحت مشاعر ابن الأبّار وأحاسيسه بعد سقوط بلنسيّة أوّلا ثم إشبيلية ثانية مركّزة في وطنه السّليب وأهله المشرّدين . وأدرك الشّاعر ، وقد ساء مزاجه ، أنّ حكّام العدوة الإفريقيّة قد تخلّوا عن هذا الوطن أو كادوا . لذا عليه واجب مقدّس هو إذكاءُ جذوة الحميّة في نفوس هؤلاء الحكّام لعلّهم يقومون بما يفرضه عليهم واجب الأخوّة والدّين والجوار .

والشّاعر نفسه وهو يحرّض البلاط الحفصيّ على نجدة الأندلس ، بين يأس من النّتيجة وأمل فيها . قال وهو في الحالة الأولى مخاطبا أبا زكريا الحفصي [البسيط][65] :

1 ـ أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللهِ أَنْدَلُسَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا

2 ـ وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا الْتَمَسَتْ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا

3 ـ وَحَاشِ مِمَّا تُعَانِيهِ حُشَاشَتُهَا فَطَالَمَا ذَاقَتِ الْبَلْوَى صَبَاحَ مَسَا

4 ـ يَا لَلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزَرًا لِلْحَادِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعِسَا

7 ـ تَقَاسَمَ الرُّومُ لاَ نَالَتْ مَقَاسِمُهُمْ إِلاَّ عَقَائِلَهَا الْمَحْجُوبَةَ الأُنُسَا

---

(62) د/ص 462 .

(63) جزيرة منورقة .

(64) كنية سعيد بن حكم .

(65) د/ص 395

وفي الحالة الثانية قد يقوى الأمل في نفسه إلى درجة أنّه يعتقد أنّ أهل الأندلس سيأتي يوم يأخذون فيه بثأرهم من النّصارى بإعانة الحفصيّ . قال [الرّمل][66] :

16 — إنْ يَكُنْ طَاغِيَةُ الرُّومِ بَغَى   فَطُبَى الهِنْدِ لَهُ بِالْمَرْصَدِ
18 — غَرَّهُ الْبُعْدُ وَعَنْ قُرْبٍ يَرَى   جِزْيَةَ الْكُفْرِ تُؤَدَّى عَنْ يَدِ
19 — سَوْفَ تَغْشَاهُ الْجَوَارِي مِلْؤُهَا   مَلأٌ كَالأُسْدِ ذَاتِ اللُّبَدِ

ومن العناصر الأساسيّة في التّحريض لدى ابن الأبّار هو التّأكيد على الحالة المزرية التي أصبح عليها أهل الأندلس وانعقاد أملهم الوحيد في أبي زكرياء وفي نجدته ومروءته . قال [الطويل][67] :

19 — وَيَا لِرِضَى أَرْضِ الْجَزِيرَةِ بِالّذِي   تُيَمِّمُهَا يُنْهِي لَهَا الْفَوْزَ بِالأَمْنَا
20 — فَأَنْدَلُسٌ قَدْ بُشِّرَتْ بِلِقَائِهِ   تُرَقِّبُ مِنْ تِلْقَائِهِ الْفُلْكَ وَ السُّفْنَا
21 — لِنُصْرَتِهِ مَا أَشْرَفَتْ رَاسِيَاتُهَا   وَمَا صَيَّرَتْ عِلْمًا يَقِينًا بِهَا الظَّنَّا
22 — لَعَلَّ بِلاَدًا خَالَ بِالرُّومِ حُسْنُهَا   يُعِيدُ عَلَيْهَا غَزْوُهُ الظَّافِرُ الْحُسْنَا
23 — فَيَرْتَشِفُ الْعَادِي بِهَا الْمَاءَ سَلْسَلاً   وَيَعْتَبِقُ الضَّاحِي النَّسِيمَ بِهَا لَدْنَا
24 — وَعَانٍ عَلَى الْحَرْبِ الْعَوَانِ دِيَارُهَا   بِمَا مُنِيَتْ مِنْهُمْ قَدِيمًا وَمَا تُمْنَى
25 — تُؤَمِّلُ يَحْيَى الْمُرْتَضَى لِحَيَاتِهَا   وَتَرْجُو بِلُقْيَاهُ الإِقَالَةَ وَالْمَنَّا

والأندلس ، في نهاية الأمر ، جزء من الدّولة الحفصيّة بعد وصول بيعتها إليه . ويكفي الممدوح أن يأذن لبعض القبائل المناصرة له من دبّاب وعوف حتّى يغيّروا واقع المعركة ويردّوا كيد العدوّ في نحره . قال ابن الأبّار [الكامل][68] :

4 — هِيَ دَارُكَ الْقُصْوَى أَوَتْ لإِيَالَةٍ   ضَمِنَتْ لَهَا مَعَ نَصْرِهَا إِيوَاءَهَا
13 — طَافَتْ بِطَائِفَةِ الْهُدَى آمَالُهَا   تَرْجُو بِيَحْيَى الْمُرْتَضَى إِحْيَاءَهَا
30 — مَوْلاَيَ هَاكَ مُعَادَةً أَنْبَاءَهَا[69]   لِتُنِيلَ مِنْكَ سَعَادَةً أَبْنَاءَهَا

(66) د/ص 152

(67) د/ص 298

(68) د/ص 33 — 34 — 35 — 36 .

(69) أي أنّ ما ذكره هنا كان قد قاله في قصيدته السّينيّة .

35ــ تَاللَّهِ لَوْ دَبَّتْ لَهَا (دَبَّابُهَا) لَطَوَتْ عَلَيْهَا أَرْضَهَا وَسَمَاءَهَا
36ــ وَلَوِ اسْتَقَلَّتْ (غَزْفُهَا) لِقِتَالِهَا لاسْتَقْبَلَتْ بِالْمُقْرَبَاتِ عَفَاءَهَا
47ــ هَذِي رَسَائِلُهَا تُنَاجِي بِالَّتِي وَقَفَتْ عَلَيْهَا رَيْنَهَا وَنَجَاءَهَا

وبلاد الأندلس تعوّدت من الممدوح هذه النّجدة وتلك المروءة . فكم مرّة نادته ولبّى نداءها وحباها بالكثير من عنده [الطّويل](70) :

25ــ وَمِنْ قَبْلُ مَا اسْتَسْقَتْكَ أَنْدَلُسٌ فَلَمْ تَجِدْ جُودَكَ الفَيَّاضَ غَيْظًا وَلاَ بَرْضَا(71)

والشّاعر وهو يحرّض على نصرة الأندلس وإنقاذها من براثن العدوّ يشير إلى اصطدام الأسطول الحفصي بالأساطيل النّصرانيّة . ولكن يغلب على الظنّ أنّ ما ذكره الشّاعر من انتصارات لهذا الأسطول هو من باب ما يأمله ويترقّبه لا من باب ما تمّ فأبهجه وأسعده . قال [الطويل](72) :

42ــ سَوَابِحُهُ عَمَّ الأَعَادِي غُدُوُّهَا بَوَارًا ، وَأَسْمَى السَّعْيِ مَا انْتَظَمَ البِرَّا
43ــ سَمَتْ لأَسَاطِيلِ النَّصَارَى فَقَهْقَرُوا لِتَصْوِيبِهَا مُسْتَيْقِنِينَ بِهَا الْقَهْرَا
45ــ وَرَامَتْ لُيُوثَ الرُّومِ فُتْخًا كَوَاسِرًا فَمَا وَجَدُوا نَصْرًا وَلاَعُدِمُوا قَصْرًا
46ــ أَرَاقَتْ عَلَى الدَّأْمَاءِ حُمْرَ دِمَائِهِمْ فَرَاقَتْ شَقِيقًا فِي البَنَفْسَجِ مُحْمَرًّا

وهذا الأسطول بما حقّقه من انتصارات أخاف العدوّ ، فأرسل الوفود تطلب هدنة وسلما مع صاحبه ، فهل تمّ ذلك فعلا ؟ أو أنّ الشّاعر يريد رفع معنويات ممدوحه بعد أن أرسل أسطوله لإعانة بلنسيّة المحاصرة . قال ابن الأبار [الطويل](73) :

60ــ وَهذِي مُلُوكُ الرُّومِ تُشْخِصُ رُسْلَهَا بِسِلْمِكَ تَبْغِي لِلسَّلاَمَةِ سُلَّمَا
61 ــ بِطَاغِيَةِ الكُفَّارِ أَبْرَحَ ذِلَّةً تُجَشِّمُهُ مِنْ حَمْلِهَا مَا تَجَشَّمَا
64ــ تُصَوِّرُ تَجْهِيزَ الأَسَاطِيلِ نَحْوَهُ فَتَخْيَّلَ بِالْمَنْجَاةِ مِنْهَا وَهَلُمَّمَا

(70) د/ص 347 .
(71) البَرْضُ : الماء يسيل قليلا .
(72) د/ص 8 ــ 207 .
(73) د/ص 3 ــ 272 .

65 ــ وَأَفْصَحَ يُثْنِي خَاطِبًا فِي خِطَابِهِ وَمَا الْفَكُّ ، لَوْلاَ السَّيْفُ أَعْجَمَ طِمْطِمَا
66ــ فَهَا هُوَ إِنْ لَمْ يَحْظَ مِنْكَ بِذِمَّةٍ تَعَلَّقَهُ ظُفْرُ الْمَنَايَا مُذَمَّمَا
68ــ سَيَأْتِي بِرَأْسِ الْكَافِرِ الْكَافِرُ الَّذِي يَطُمُّ عَلَيْهِ الْمُنْشَآتُ إِذَا طَمَا

8 ــ بيعة مدن الأندلس لأبي زكريا :

هناك ثلاث عوامل رئيسيّة أدخلت الاضطراب والفوضى إلى الأندلس في النّصف الأوّل من القرن 13/7 وخاصّة بعد هزيمة العقاب :

1 ــ قرار المأمون الموحّدي الانتقال من إشبيلية إلى مرّاكش وترك الأندلس لمصيرها .

2 ــ تناحر زعماء الأندلس فيما بينهم تارة ، وبينهم وبين من بقي من وُلاَة الموحّدين أحيانا .

3 ــ التّكالب النّصراني بعد أن لاح جليّا الفراغ العسكري بضعف الدّولة الموحّديّة ، وتناحر ثوّار الأندلس .

وفي هذا الظّرف العصيب ، كان كلّ ثائر يحقّق بعض الانتصارات يحاول أن يوطّد نفوذه بإيجاد السنّد الشّرعي له . فكانوا يعلنون ولاءهم الشّكلي إلى إحدى الدّول الآتية : الدّولة العبّاسيّة البعيدة أو الدّولة الموحّديّة المنهارة أو الدّولة الحفصيّة الفتيّة . ولا شكّ أنّ هذه الأخيرة كانت أقدر من غيرها ، في نظر الأندلسيّين ، على القيام بدور الحامي والمنقذ لبلادهم . لهذا كثيرا ما لجأت إليها بعض المدن الكبرى الأندلسيّة وأعلنت الانضواء تحت لوائها .

ويبدو أنّ شرقيّ الأندلس كان أسبق الجهات بالأندلس للدّخول في طاعة الحفصيّين آملا من ذلك خلاصا على أيديهم وقد تكالب نصارى أراغون عليه .

وعاش الشّاعر هذه الفترة وترأس الوفد الذي أمّ حاضرة الحفصيّين حاملا البيعة وطالبا النّجدة . قال ابن الأبار معتبرا أنّ بلنسيّة عاصمة شرقي الأندلس هي جزء من بلاد الحفصيّين[البسيط][74] :

30ــ هَذِي رَسَائِلُهَا تَدْعُوكَ عَنْ كَثَبٍ وَأَنْتَ أَفْضَلُ مَرْجُوٍّ لِمَنْ يَئِسَا
60ــ يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ أَنْتَ لَهَا عَلْيَاءُ تُوسِعُ أَعْدَاءَ الْهُدَى تَعَسَا

(74) د/ص 397 ــ 399 .

62_ ضَفْـرُ بِـلاَدِكَ مِنْهُـمْ إِنَّهُـمْ نَـجَسٌ   وَلاَ طَهَـارَةَ مَـا لَـمْ تَـغْسِلِ الـنَّـجَسَا
63_ وانصُرْ عَبِيدًا بِأَقْصَى شَرْقِهَا شَرِقَتْ   عُيُونُهُـمْ أَدْمُعًـا تَهْمِـي زَكًـا وَخَسَا

وخلال هذه الفترة بعث ابن الرّميمي بعد قتله لابن هود حاكم الأندلس سنة 1237/635 ببيعته لأبي زكرياء . فقال ابن الأبّار [الطّويل](75) :

1_ أَوَائِـلُ فَتْـحٍ مَـا لَهُـنَّ أَوَاخِـرُ   تَـرَامَتْ بِهَـا جُـرْدٌ وَفُـلْكٌ مَوَاخِـرُ
9_ تَعَوَّدَ يَحْيَـى الْمُـرْتَضَى دَرْكَ الْمُنَـى   وَلاَ هُـزَّ خَطِّـيٌّ وَلاَ سُلَّ بَاتِـرُ
47_ هَنِيئًـا مَرِيئًـا لِلمَرِيَّـةِ أَنْ أَوَتْ   إِلَـى مَظْهَـرٍ تَنْحَـطُّ عَنْـهُ الْمَظَاهِـرُ

وفي سنة 1242/640 وقع حدثان كبيران : الأوّل وفاة الخليفة الموحّدي الرّشيد . والثّاني فتح أبي زكريا الحفصي لتلمسان عنوة من يد صاحبها يغمراسن ، وبذلك أصبح الأمير الحفصي أقوى رجل بإفريقيّة ، وهابه أعداؤه في الدّاخل والخارج ، وجاءته بيعة عديد المدن من العدوتين الإفريقيّة والأندلسية . قال ابن الأبّار مشيرا إلى ذلك [السّريع](76) :

1_ ثَلاَثَـةٌ حَيَّـتْكَ فِـي الأَرْبَعِيـنْ   نَصْرٌ وَتَمْكِيـنٌ وَفَتْـحٌ مُبِيـنْ
2_ أَنْتَ أَمِيـرُ الْمُؤْمِنِيـنَ الَّـذِي   ذَوْلَتُـهُ يُمْـنٌ عَلَـى الْمُؤْمِنِيـنْ

ووجد ابن الأبّار في تلك المناسبات مجالا لدغدغة شعور العظمة لدى الأمير أبي زكريا الحفصي ، ولتحريضه على القيام بفريضة الجهاد بالأندلس . وكثيرا ما كان الشّاعر يكرّر ذكر بيعة تلك المدن في كلّ مرّة يمدح فيها أبا زكريا . وقد يشير في القصيدة الواحدة إلى بيعة عدّة مدن من العدوتين . قال في بيعة شريس وجزيرة طريف ومكناسة وقصر ابن عبد الكريم سنة 1242/640 [الطويل](77) :

27_ وَيَـا لَشَرِيسٍ وَالْجَزِيـرَةِ يَـا لَهَـا   وَمِكْنَـاسَةٍ وَالْـقَصْرِ عَـزَّ فَـلاَ وَهْصَا
28_ وَلاَنَتْ عَلَى حُكْمِ السَّعَادَةِ بُرْدَهَا   وَمَا بَـرِحَتْ أَثْنَـاءَ شَقْوَتِهَـا رَهْصَا(78)

(75) د/ص 12 ـ 211، ص 214 .

(76) د/ص 300 .

(77) د/ص 340 .

(78) الرّهص : شدّة العصر .

وفي نفس هذه السنة جاءته بيعة سبتة والمريّة . وكانت هذه المدينة الأندلسيّة قد آل أمرها إلى ابن الأحمر إذ استولى عليها سنة 1237/635 من يد صاحبها ابن الرميمي . قال ابن الأبّار [الطويل](79) :

10 ــ فَبِالأَمْسِ أَلْقَتْ بِالْمَقَادَةِ سَبْتَةٌ　　فَأَوْزَنَهَا عِقْدًا مِنَ الأَمْنِ سَيْفُهَا
11 ــ وَحَطَّتْ بِكَ الْيَوْمَ الْمَرِيَّةُ رَحْلَهَا　　فَأَقْطَعَهَا رَغْدًا مِنَ الْعَيْشِ أَهْيَفُهَا

وأعاد الشّاعر الإشارة إلى هذه البيعة المزدوجة في سنة 1248/646 بمناسبة عيد الفطر مادحا أبا زكريا [الوافر](80) :

30 ــ لِلشَّرْقِ وَالْغَرْبِ اسْتِبَاقٌ نَحْوَهُ　　كُلٌّ قُبَيْلَ دُعَائِهِ لَبَّاهُ
31 ــ وَبِدَارِ سَبْتَةَ وَالْمَرِيَّةِ مُخْبِرٌ　　أَنْ سَوْفَ تُخْوِي الْخَافِقَيْنِ يَدَاهُ
38 ــ وَبِعِيدِ فِطْرٍ لِلْفُتُوحِ مُعَقَّبٌ　　كَالْيَوْمِ أَعْقَبَ صُبْحَهُ بِضُحَاهُ

ولكثرة المدن التي بايعت أبا زكريا في سنة 1242/640 سمّاه ابن الأبّار عام الجماعة [البسيط](81) :

37 ــ سُلْطَانُهُ خَرَقَ الْعَادَاتِ فَائْتَلَفَتْ　　عَلَى الْمَرَاشِدِ أَغْيَارٌ وَأَضْدَادُ
38 ــ لاَ مِرْيَةٌ أَنَّ إِقْطَاعَ الْمَرِيَّةِ فِي　　أَعْقَابِ سَبْتَةَ لِلإِجْمَاعِ مِيعَادُ
39 ــ لَئِنْ أَهَابَتْ بِهِ مَرَّاكُشٌ وَدَعَتْ　　لَمَا عَدَتْ قَصْدَهَا مِصْرٌ وَبَغْدَادُ
40 ــ عَامَ الْجَمَاعَةِ مَا اغْتَاصَتْ وَلاَ نَغِلَتْ　　فِيمَا يُغَرِّرُ جَبَّانٌ وَبَغْدَادُ

وفي سنة 1243/641(82) جاءت بيعة إشبيلية بعد خلعها لطاعة الموحّدين وكانت عاصمتهم بالأندلس . قال ابن الأبار [الطويل](83) :

1 ــ لأَنْدَلُسَ الْبُشْرَى وَحَضْرَتِهَا (حِمْصَ)　　فَقَدْ كُسِيَتْ لِلأَمْنِ فَضْفَاضَةَ الْقُمْصِ
2 ــ وَقَدْ نُصِرَتْ عَوْدًا كَبَدْءٍ عَلَى الْعِدَى　　فَذَاقُوا الْمَنَايَا الْحُمْرَ بِالْحَسِّ وَالْحَصِّ

---

(79) د/ص 8 ــ 367 .
(80) د/ص 408 ــ 410 .
(81) د/ص 141 .
(82) د/ص 343 .
(83) هذه البيعة الأولى ثمّ رجعت إلى الدّعوة الموحديّة . وفي سنة 1245/643 عادت إلى بيعة الحفصيّين .

4ـ أَلَمْ يَخْلَعُوا زُهْدًا وَحِرْصًا عَلَى الْهُدَى   وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يُعْضَدَ الزُّهْدُ بِالْحِرْصِ
5ـ عَنِيَّ بْنَ إِدْرِيسَ بْنِ يَعْقُوبَ وَانْتَمَوْا(84)   لِيَحْيَى بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي حَفْصِ(85)

وَتَدَعَّمَ هذا الالتفاف حول الدّولة الحفصيّة بهذه البيعة من عاصمة الأندلس فطرب لها ابن الأبّار وأخذ في تعداد جملة من المدن التي وصلت بيعتها إلى حاضرة الحفصيّين [الطويل](86) :

7ـ لَقَدْ رَاقَبَتْ عَامَ الْجَمَاعَةِ بُرْهَةً   فَلَمْ يَعْدُهَا إِقْرَارُ عَيْنِ الْمُرَاقِبِ
11ـ أَلاَ هَذِهِ حِمْصٌ تُنَاسِبُ طَاعَةً   سِجِلْمَاسَةً فِي رَفْعِهَا لِلْمُنَاصِبِ(87)
12ـ وَمَا خَالَفَتْ غَرْنَاطَةٌ رَأْيَ رَيَّةٍ(88)   لِتَشْمُلَ أَنْوَارُ الْهُدَى كُلَّ جَانِبِ
13ـ وَجَيَّانُ لَمْ تَبْرَحْ كَشِلْبٍ وَطَنْجَةٍ   مُبَارِيَةً هُوجَ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ
14ـ لِتَسْعَدَ بِالرِّضْوَانِ بَيْعَاتُهَا الَّتِي   كَفَى شَاهِدٌ مِنْهُ تَأَمُّلُ غَائِبِ

وتجدّدت بيعة إشبيلية للحفصيّين سنة 1245/643 ، فقال ابن الأبّار مهنّئا ومبشّرا هذه المدينة بالأمن والسّعادة تحت لواء مخدومه الحفصي [الكامل](89) :

25ـ لِلَّهِ حِمْصٌ وَفَوْزُهَا بِسَعَادَةٍ   هَدَتِ الْجَزِيرَةَ(90) نَحْوَهَا وَشَرِيشَا
27ـ أَمَّتْ إِمَامَ الْعَدْلِ خَالِعَةً بِهِ   مَنْ أَعْمَلَ التَّأْرِيثَ وَالتَّحْرِيشَا
28ـ وَإِلَيْهِ خَفَّتْ وَالرَّجَاحَةُ فِي الْهَوَى   أَنْ يَجْعَلَ الآوِي لَهُ وَبَطِيشَا
30ـ وَبِحَبْلِهِ اعْتَصَمَتْ عَلَى حُبٍّ لَهُ   مُنْحَاشَةً لاَ تَبْتَغِي تَهْوِيشَا

ويرى الشّاعر أنّ مرّاكش تؤيد إشبيلية في بيعتها لأبي يحيى . فهل أنّ الشّاعر يبالغ

(84) السّعيد الموحّدي .

(85) أبو زكريّا الحفصي .

(86) د/ص 1 ـ 80 .

(87) المقصود هو السّعيد الموحّدي .

(88) في المغرب : 423/1 : مالقة .

(89) د/ص 5 ـ 404 .

(90) المقصود جزيرة طريف .

لأنّ مراكش لم تعترف مطلقا بالحفصيّين أو أنّه أراد أن يشير إلى بعض الاتجاهات بها مؤيّدة للحفصيّين ؟ قال [الطويل][91] :

20ـ وَلَبِسَتْ لَهُ مَرَّاكُشٌ بِفَرَارَةٍ   وَأَنَّى وَمَا زَالَتْ مُظَاهِرَةً جِسْمَا
26ـ لِحِمْصَ مِنَ الْبُشْرَى مُجِيلاً قِدَاحَهَا   بِهَيْبَتِهَا تَسْعَى لِمَحْضِ الْهُدَى مَحْضَا

العدوة الإفريقيّة في ديوان ابن الأبّار

1 ـ ابن الأبّار بإفريقيّة :

لقد قرّر ابن الأبّار بعد أن سقط وطنه في 17 صفر 29/636 سبتمبر 1238 الانتقال إلى العدوة الإفريقيّة . وقد شجّعه على ذلك ما وجده لدى أبي زكريّا الحفصي من حفاوة وتقدير عندما جاء موفدا من قبل مخدومه ابن مردنيش أمير بلنسيّة قبل سقوطها . ويبدو أنّ ابن الأبّار اختار طريق البحر رأسا من بلنسيّة إلى بجاية . وهذا نفهمه من مطلع قصيدتين قالهما في مدح الولد الأكبر لأبي زكريا وهو أبو يحيى أمير بجاية . قال في الأولى مادحا وموحيا بالطريق الذي سلكه للوصول إلى العدوة الإفريقيّة[الكامل][92] :

1ـ نُورُ الْهِدَايَةِ مَا أَضَاءَ وَلاَحَا   فَقِفِ السَّفِينَ وَبَشِّرِ الْمَلاَّحَا
2ـ وَسَنَى الإِمَارَةِ مَا تَطَلَّعَ فِي الدُّجَى   مِنْ قَبْلِ إِسْفَارِ الصَّبَاحِ صَبَاحَا
3ـ فَاغْفِلْ بِأَبْحُرِهَا جَوَارِيكَ الَّتِي   جَازَتْ إِلَى الْفَوْزِ الرِّيَاحَ رِيَاحَا
9ـ وَاصْدُفْ عَنِ الْبَحْرِ الَّذِي أَلِفْتَهُ   تَعْدُ لِبَحْرٍ نَوَالُهَا ، ضَحْضَاحَا

وفي الثّانية اتّضح لنا فعلا أنه سلك طريق البَحر عندما وصف أخطاره حقيقة لا مجازا[الرّمل][93] :

1ـ عَبَرَ الْبَحْرَ يَسُومُ الأَبْحُرَا   آمِنًا فِي وِرْدِهِ أَنْ يَصْدُرَا
2ـ وَامْتَطَى اللُّجَّةَ خَضْرَاءَ بِمَا   أَلِفَ الْعَيْشَ لَدَيْهِمْ أَخْضَرَا

---

(91) د/ص 340 .

(92) د/ص 113

(93) د/ص 185

3ـ خَاضَ صَدْرَ الْهَوْلِ جَهْمًا عَابِسًا يَنْتَحِيهِمْ ضَاحِكًا مُسْتَبْشِرَا
4ـ وَسَمَا لِلْغَايَةِ الْقُصْوَى عَلَى خَطَرٍ أَحْرَزَ عَنْهُ الأَخْطَرَا

وإذا ثبت فعلا أنّ ابن الأبّار قال مدحيّته الثانية في الأمير أبي يحيى في أواخر سنة 1238/636 أو بداية 1238/637 . فإنّ هناك أمرا يثير انتباهنا في هذه القصيدة ، ذلك أنّ ابن الأبّار يخاطب الممدوح بولاية العهد قائلا [الرّمل][94] :

69ـ يَا وَلِيَّ الْعَهْدِ فِيمَا طَالَمَا نَافَسَ الدِّينَارُ فِيهَا الْمِنْبَرَا
70ـ هَاكَ مَا حَبَّرْتُهُ مِنْ مِدَحٍ جِئْتُ عَنْ تَقْصِيرِهَا مُعْتَذِرَا
71ـ وَهِيَ الإِمْرَةُ أَعْيَا وَصْفُهَا نُظِمَ الْحَمْدُ لَهَا أَوْ نُثِرَا

والإعلان رسميّا عن تعيين أبي يحيى لولاية العهد لم يتمّ إلاّ في سنة 1240/638 كما ذكر المؤرخون . فما هي الرّواية الصّحيحة يا ترى ؟ هل أنّ النّاس اعتادوا ـ وابن الأبّار منهم ـ أن يروا الحاكم يسند ولاية العهد لابنه الأكبر ، فيخاطبونه بذلك ولو لم يقع الإعلان عنه بصفة رسميّة ؟ أو أنّ ذلك سياسة من أبي زكريا في حذره وهو يخطو رويدا رويدا نحو الاستقلال نهائيا بإفريقيّة عن الدّولة الأمّ ؟

2 ـ نكبة ابن الأبّار الأولى :

لم يقم ابن الأبّار إلاّ بضعة أشهر ببجاية ، انتقل إثرها إلى تونس ، وأحسن أبو زكريّا استقباله وقدّر مواهبه وعهد إليه بالكتابة في ديوانه . ثمّ أسند إليه كتابة الإنشاء والعلامة في سنة 1240/638 بعد وفاة ابن الجلاء البجائي . وكان ابن الأبّار يكتب العلامة السّلطانيّة بالخط المغربي . وكان أبو زكريا يُؤثِر أن تكتب بالخطّ المشرقي . لهذا السبّب عهد بكتابتها إلى أحمد بن إبراهيم الغسّاني ، وطلب من ابن الأبّار أن يقتصر على إنشاء الرّسائل وكتابتها وأن يدع مكان العلامة فيها للخطّاط الجديد ، فغضب ابن الأبّار واعتبر أن في ذلك مسّا بكرامته واستمرّ في كتابة العلامة بخطّه المغربي فعُوتب في ذلك وروجع فاستشاط غضبا ورمى بالقلم من يده وأنشد :

أُطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَظَى وَذَرِ الذُّلْ لَ وَلَوْ كَانَ فِي جِنَانِ الْخُلُودِ

(94) د/ص 188

ووصل الخبر إلى السلطان فصرفه عن العمل وأمره بلزوم بيته . وفي هذه المدّة التي قضاها ابن الأبار تحت الإقامة الجبريّة ألّف كتاب (إعتاب الكتّاب) .

هذا ما جاء مختصرا في كتب التاريخ من أسباب في نكبة الشّاعر الأولى . ولقد لمّح ابن الأبّار في مقدّمة كتابه الإعتاب إلى ذلك،فاعترف بأنّه (جَاءَ شَيْئًا إِدًّا)[95] وفي خاتمته يشير ـــ والمقصود هو ذَاتُهُ ـــ إلى خطورة اللّسان على الإنسان[96] فيما يتعرّض له من نكبات .

وفي نفس هذه الخاتمة يذكر ابن الأبار أن السّلطان عفا عنه[97] ، ولكن ما راعه إلّا وأبو زكريا يخيّره في الرّحيل بين التّشريق والتّغريب[98] . وسقط في يد الشّاعر وبدأ يستعدّ للسّفر ويبيع أدباشه بأبخس الأثمان[99] ، فكانت حالته مع أسرته في هذه الفترة شبيهة بما قاساه لمّا سقط وطنه بلنسيّة في يد النّصارى واضطرّ للرّحيل عنه[100] . ومع ذلك لم ييأس الشّاعر من الحصول على عفو السّلطان فكتب إليه يستعطفه ويُقرّ بذنبه نادما تائبا[الكامل][101] :

4ـ نَدَمِي ، عَلَى مَا نَدِمْتُ ، دَائِمٌ وَعَلاَمَةُ الأَوَّابِ أَنْ يَتَنَدَّمَا
5ـ يَا طُولَ بُؤْسِيَ مُبْتَلاً بِجَرِيرَةٍ إِنْ لَمْ تُجِزْنِي بِالتَّجَاوُزِ مُنْعِمَا
7ـ فَأَحَقُّ مَنْ تُولِي الإِقَالَةَ عَاثِرٌ لَمْ يَسْتَجِبْ عَلَى الْهُدَى قَطُّ الْعَمَى
8ـ أَقْصَاهُ عَنْكَ تَزَلُّفٌ بِخَطِيئَةٍ خَالَ الصَّوَابَ خِلاَلَهَا وَتَوَهَّمَا
9ـ وَلَقَدْ تَحَفَّظَ فِي الْمَقَالَةِ جُهْدَهُ لَكِنَّهُ نُبِّيَ الْحَدِيثُ وَنُمْنِمَا
10ـ قَدْ عَلَّمَتْهُ تَجَنُّبَ الْجَهْلِ الْعُلَى يَكْفِيهِ أَنْ قَوَّمْتَهُ فَتَقَوَّمَا

(95) الإعتاب ص 46 .
(96) الإعتاب ص 354 .
(97) الإعتاب ص 354
(98) الإعتاب ص 355
(99) الإعتاب ص 355
(100) الإعتاب ص 356
(101) د/ص 5 ـــ 274 .

وللتّعجيل بعفو السّلطان قبل تنفيذ قرار النّفي ، استشفع بالأمير أبي عبد الله محمد ، وتطارح عليه حتّى يتدخّل لصالحه لدى والده ، وأنشده [مجزوء البسيط](102):

1 ــ مَــوْلاَيَ دَامَتْ لَكَ السُّعُــودُ أخطــأتُ أخطــأتُ لا أعُــودُ
2 ــ مَالِــي بَــرَاحٌ وَلاَ انتِــزَاحٌ مَوْتِــي فِــي أرْضِكُــمْ خُلُــودُ
3 ــ كُنْ لِي شَفِيعًا إلَى إمَامٍ لَـيْسَ عَلَـى فَضْلِـهِ مَزِيـدُ
4 ــ عَادَتُــهُ العَفْــوُ وَالمَوَالِــي تَعْفُــو إذَا أخطَــأَ العَبِيــدُ

وفي شهر رمضان كما جاء في خاتمة كتاب الإعتاب دون ذكر للسنّة(103) بدأ في الأفق ما أعاد الاطمئنان النّسبي لنفسه ، فبشّر عائلته وأسرع بمخاطبة المولى أبي زكريّا حتّى يتراجع في قراره الأوّل . قال [السّريع](104) :

10 ــ أذْنَبَ لَكِــنْ تَــابَ مِــنْ فَــوْرِهِ وَفِــي قَبُــولِ التَّــوْبِ رَفْــعُ الجُنَــاحْ
11 ــ حَسْبِــي شَفِيعًــا لَكَ فِــي هَفْوَتِــي حُــبٌّ وَنُصْــحٌ وَثَنَــــــــاءٌ صُرَاحْ
12 ــ بَرَّحَ بِـي الشَّوْقُ إلَـى حَضْرَةٍ(105) لَــيْسَ لِمَــنْ وُفِّــقَ عَنْهَــا بَــرَاحْ
13 ــ وَهِـمْتُ فِيهَــا بِاقْتِــرَابٍ فَلَــمْ تَسْمَــحْ لِــيَ الأقْــدَارُ غَيْــرَ انْتِــزَاحْ(106)

وفعلا عفا السّلطان عن الشّاعر قبل حلول العيد ولعلّه عيد الفطر فعبّر عن فرحته الكبرى بقوله [مخلع البسيط](107) :

1 ــ قَابَــلْتُ نُعْمَــاكَ بِالسُّجُــودِ لِلّـــهِ مِـــنْ عَطْفَـــةٍ وَجُـــودِ
3 ــ قَـــدْ وَصَلَ الأَمْـــنُ وَالأمَانِـــي بَعْـــــدَ المَخَافَـــــاةِ وَالصُّدُودِ

(102) الإعتاب ص 257

(103) تشير المصادر إلى أن ابن الأبار لم يمكث طويلا في كتابة العلامة والإنشاء وغضب عليه أبو زكرياء ، ثمّ هو من جهة أخرى يذكر الأمير أبا يحيى ويُضيفُ (ولي العهد)، وقد تولّى هذا الأمير ولاية العهد في رجب 1240/638 . فمن المرجّح أن يكون ابن الأبار نكب في المرّة الأولى في أواخر الثلاثينات من القرن 7 هـ/13 م .

(104) الإعتاب ص 9 ــ 258 .

(105) حضرة بمعنى مجلس .

(106) أخطأ المحقّق عندما ذكر أن الشّاعر قال هذه القصيدة وهو في بجاية . وكما يفهم من خاتمة الكتاب في هذه المحنة فإنّ السلطان عفا عنه قبل أن يرحل . والقصيدة موجودة في خاتمة الإعتاب .

(107) د/ص 169 ــ 170 .

10ـ صَفَحْتَ عَمْدًا عَنِ الْخَطَايَا   وَتِلْكَ مِنْ عَادَةِ الْعَبِيدِ
14ـ مَا غُرَّةُ الْعِيدِ أَجْتَلِيهَا   يَسُومُ رِضَاكَ الأَغَرُّ عِيدِي

ولم ينس الشّاعر أن يشيد بشفاعة الأمير أبي عبد الله لدى والده فقال يخاطبه [الوافر](108) :

1ـ أَبَا بُشْرَايَ قَدْ وَضَحَ الْقَبُولُ   وَصَحَّ مِنَ الرِّضَى أَمَلٌ وَسُولُ
2ـ وَشَفَّعَ نَجْلَهُ الأَزْكَى إِمَامٌ   لِمَنْ صَرَمَتْ وَسَائِلَهُ وَصُولُ
3ـ فَمَا لِسِوَاهُمَا فِي الصَّفْحِ عَنِّي   يَدٌ عُلْيَا وَلاَ مَنٌّ جَزِيلُ
4ـ أَقَالَنِي الْخَلِيفَةُ مِنْ عِثَارِي   فَمَاذَا فِي إِقَالَتِهِ أَقُولُ
8ـ أَذُوبُ إِذَا أُحَجَّبُ عَنْهُ شَوْقًا   إِلَيْهِ فَكَيْفَ لَوْ أَزِفَ الرَّحِيلُ

لقد نجح الأمير في مسعاه وانقذ الشّاعر من حياة الضّياع والتشرّد ، فقال ابن الأبّار [الطّويل](109) :

1ـ أَجَارَ مِنَ الْخَطْبِ الأَمِيرُ مُحَمَّدُ   فَقُمْتُ بِمَا أَوْلاَهُ أُثْنِي وَأَحْمَدُ
7ـ وَمَنْ يَكُ فَرْعًا لِلإِمَامَةِ وَالْهُدَى   فَإِنَّ جَنَاهُ الْغَضَّ مَجْدٌ وَسُؤْدَدُ
8ـ رَآنِي مَرْدُودَ الشَّرَائِعِ كُلَّمَا   تَقَرَّبْتُ بِالإِخْلاَصِ أُقْصَى وَأُبْعَدُ
9ـ نَصِيبِي مِنَ الآدَابِ حِرْفَتُهَا الَّتِي   شَقِيتُ بِهَا جَارًا لِمَنْ بَاتَ يُسْعَدُ
10ـ وَلِلْحَظِّ لَحْظٌ كُلَّ دُونِيَ حَاسِبًا   كَأَنِّي وَإِيَّاهُ شُعَاعٌ وَأَرْمَدُ
11ـ فَجَمَّعَ مِنْ شَمْلِي ، وَشَمْلِي مُفَرَّقٌ   وَرَفَّهَ مِنْ شِرْبِي وَشِرْبِي مُصَرَّدُ
12ـ تَشَفَّعْتُ فِيهَا لِلإِمَامِ بِنَجْلِهِ   وَنِعْمَ شَفِيعُ الْمُذْنِبِينَ مُحَمَّدُ

3 ـ ثورة بني غانية :

تعتبر ثورة بني غانية القادمين من الجزائر الشرقيّة (جزر البليار) السبّب المباشر لقيام الدّولة الحفصيّة . فلولا هذه الثورة لما عهد النّاصر الموحّدي لأبي محمد عبد الواحد ابن أبي حفص بولاية إفريقيّة ، باعتباره حاكما شبْه مستقلّ ليتمكّن من مواصلة تتبّع ابن غانية . وقد اغتنم أبناؤه ، وخاصّة أبا زكريا فرصة ضعف الدّولة الموحّديّة واستمرار خطر بني غانية للاستقلال نهائيا بإفريقيّة .

(108) الإعتاب ص 1 ـ 260 .
(109) د/ص 171 ـ 172 .

وقد مرّت ثورة بني غانية بمرحلتين :

1 ـــ المرحلة الأولى وتزعّمها علي بن إسحاق الآتي من ميورقة . وبدأها باحتلال بجاية يوم 6 شعبان 13/580 نوفمبر 1184 وتستمرّ ثورته إلى موته جريحا إثر معركة الحمّة في سنة 1188/584 .

2 ـــ المرحلة الثانية وتزعّمها يحيى بن غانية بعد موت أخيه علي وسيبقى هذا الثائر حوالي نصف قرن يناصب العداء كُلاًّ من الموحّدين والحفصيّين . وتمكن في 7 ربيع الثاني 14/600 ديسمبر 1203 من الاستيلاء على مدينة تونس . ولم تنته هذه الثورة إلاّ بموت يحيى بن غانية في 1237/633 قرب مليانة . وكان لأبي زكريا الحفصي مؤسّس الدّولة الحفصيّة الفضل الأكبر في القضاء على هذه الثّورة .

لقد بقي صدى هذه الثورة يرنّ في أصداء إفريقيّة والمغرب الأوسط طيلة فترة حكم أبي زكريا. ولهذا قلّما تخلو القصائد المدحيّة التي دبّجها ابن الأبّار في هذا الأمير وابنيه زكريا ومحمّد(110) من الإشارة إلى فشل بني غانية وخاصّة فشل بطل المرحلة الثانية من هذه الثّورة وهو يحيى بن غانية .

لقد ذهبت ـــ في نظر ابن الأبّار ـــ جهود هذا الثائر ومساعيه أدراج الرّياح كما ضاعت جهود من سبقه من عائلته وخاصّة علي بن إسحاق أخاه . قال الشاعر [الوافر](111) :

42 ـــ فَمَا أَغْنَى ابنُ غَانِيَةٍ فَتِيلاً ... وَمَا أَجْدَى ذَوُوهُ بَنُو عَلِيِّ
43 ـــ وَأَحْكَامُ اللَّيَالِي جَارِيَاتٌ ... عَلَى المَنْخُوبِ(112) قَبْلاً وَالجَرِيِّ
44 ـــ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ الهَيْجَاءُ شِرْباً ... فَقَدْ ذَادَتْهُ أَطْرَافُ العِصِيِّ
45 ـــ وَإِنْ تَكُنِ الشَّقَاوَةُ أُمَّهُ ... فَلَمْ يَكُ لِلسَّعَادَةِ بِالسَّنِيِّ

(110) ذكر الشاعر بني غانية مرّات متعدّدة في ديوانه وخاصّة في خمس مناسبات : 4 منها بمناسبة مدح وليّ العهد أبي يحيى زكريا أي أنها قيلت ما بين 1240/638 و 1248/646 وقصيدة مدح بها وليّ العهد محمّدا أي سنة 1248/646 . وتذكّر الشاعر دائما بني غانية بمناسبة مدح وليّ العهد الأوّل أو الثاني يمكن تفسيره من النّاحية النّفسية : إنّ ولاية العهد هي رمز لاستمراريّة الدّولة وابن غانية رمز لانقطاعها فكلّما ذُكر الرمز الأوّل خطر بباله الرمز الثاني .

(111) د/ص 8 ـــ 427

(112) الجبان .

وثورة ابن غانية هي ضرب من الفساد في الأرض ، وفي القضاء عليها من طرف أبي زكرياء راحة للبلاد وللعباد [**الكامل**](113) :

24ـ أَيْنَ ابْنُ غَانِيَةٍ وَأَيْنَ غَنَاؤُهُ لاَ ذَاكَ مَنْحُوسُ الْوُجُودِ وَلاَذَا
25ـ آذَى وَآدَ فَسَادُهُ وَعِنَادُهُ فَكَفَى الْوَرَى مَا آدَ مِنْهُ وَآذَى
26ـ وَنَحَاهُ وَهْوَ يَبُزُّ أَقْرَانَ الْوَغَى فَمَحَاهُ تَأْقَا لَهُ بَدْذَاذَا

ولكنّ الممدوح الحفصي استطاع أن يقضي عليه ويسحق أتباعه . قال ابن الأبّار بعد أن عدّد القبائل الثائرة التي استطاع أبا زكريا أن يخضعها لسلطانه[**الوافر**](114):

70ـ وَفِي سَحْقِ ابْنِ إِسْحَاقَ اعْتِبَارٌ وَمَا أَقْضَى إِلَيْهِ مِنَ الثُّبُورِ
71ـ مَحَاهُ(115) وَكَانَ ذَا دَفْعٍ طَوِيلٍ بِأَبْتَرَ مِنْ صَوَارِمِهِ قَصِيرُ
72ـ وَإِنْ هُوَ لَمْ يُبَاشِرْهُ ضِرَابًا فَخِيفَتُهُ طَوَتْهُ إِلَى النُّشُورِ
73ـ وَكَمْ غَشِيَ الْوَغَى وَلَهُ زَئِيرٌ فَبُدِّلَ بِالزَّفِيرِ مِنَ الزَّئِيرِ
74ـ وَطَارَ إِلَى غُمَارِ الْمَوْتِ صَقْرًا فَحُطَّ إِلَى الْبُغَاثِ عَنِ الصُّقُورِ
75ـ سُيُوفُ بَنِي أَبِي حَفْصٍ نَفَتْهُ وَقَادَتْهُ إِلَى سُوءِ الْمَصِيرِ(116)
76ـ وَلَوْلاَهَا لَسَعَّرَهَا حُرُوبًا كَمَا اضْطَرَمَتْ عَلَيْهِ لَظَى السَّعِيرِ

لقد أصبح هذا الثائر وقومه أثرا بعد عين [**البسيط**](117) :

33ـ أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ اسْتَوْلَوْا إِلَى أَمَدٍ فَاسْتَأْصَلَتْهُمْ عَوَالِيهِ بِمَا صَالُوا
34ـ آلَتْ فِوَاءًا مَغَانِي آلِ غَانِيَةٍ بِهِ وَغَالَتْهُمُ لِلدَّهْرِ أَغْوَالُ

وعبرة لمن يعتبر [**الكامل**](118) :

3ـ قَسَمَ الْجَبَابِرَةَ الَّذِينَ تَمَرَّدُوا وَتَسَنَّمُوا صَرْحَ النِّفَاقِ مُمَرَّدَا
4ـ أَيْنَ ابْنُ غَانِيَةٍ وَأَيْنَ غَنَاؤُهُ لاَ مُلْحِدٌ إِلاَّ وَأَصْبَحَ مُلْحِدَا

---

(113) د/ص 183

(114) د/ص 197

(115) الضمير يعود على الممدوح وهو أبو زكرياء .

(116) الأبيات لا تخلو من تلميح إلى قوّة هذا الثائر وبأسه وما عاناه الحفصيّون في مقاومته وإخضاعه .

(117) د/ص 245

(118) د/ص 167

4 ـ ثورة أبي عبد الرّحمان يعقوب الهرغي[119] :

إن نكبة الهرغي حاكم طرابلس مرتبطة شديد الارتباط بنكبة صاحب الأشغال بتونس، وهو محمّد بن محمّد الجوهري . لقد كان هذا الأخير في عداوة شديدة مع رئيس الدّولة أبي علي بن النعمان والوزير أبي عبد الله ابن الحسين والوزير أبي يحيى بن أبي الحسن بن جامع . فأوغروا صدر الأمير أبي زكريّا عليه . فأمر بالقبض عليه وتعذيبه ليستخرج منه الأموال، فتجلّد ولم يظهر من الأموال شيئا . ثمّ وجد بعد ذلك في سجنه ميّتا قد خنق نفسه بعمامته في شوّال سنة 1241/639 .

وكانت بين الجوهري ويعقوب بن يوسف بن محمّد الهرغي حاكم طرابلس صداقة متينة فاستوحش ممّا فعله أبو زكريا بصديقه . فلما استقدمه السّلطان إلى تونس تلكّأ وفكّر في الاستبداد بالأمر ، لكّن أهل البلد تفطّنوا فقبضوا عليه وعلى أخيه وعلى أتباعه وأعلموا أبا زكريا ، فأمر بقتلهم وبعث رؤوسهم إلى تونس فنصبت بسورها ونصبت الأشلاء بأسوار طرابلس . فقال ابن الأبّار يصف رؤوس القتلى متشفّيا [الكامل][120] :

1 ـ وَعِصَابَةٍ قَطَفَتْ رُؤُوسَهُمُ الظُّبَى قَطْفَ البَنَانِ أَزَاهِرَ البُسْتَانِ
2 ـ غَدَرُوا وَمَا شَعَرُوا بِأَنَّ وَرَاءَهُمْ لِلْحَقِّ أَنْصَارًا عَلَى البُهْتَانِ
3 ـ فَانْظُرْ إِلَى هَامَاتِهِمْ مُسْوَدَّةً كَاللَّيْلِ غَيْرَ بَوَارِقِ الأَسْنَانِ
4 ـ لأَحَتْ مِنَ السُّورِ الْمُنِيفِ بِصَفْحَةٍ بَيْضَاءَ كَالشَّامَاتِ وَالْخِيلاَنِ

وبقي صدى هذه الثّورة عالقا بذهن الشّاعر، فلما وقف يمدح أبا زكريا ووليّ عهده أبا يحيى بمناسبة فتح تلمسان سنة 1242/640 لمّح إلى ما آل إليه مصير من عصى وغوى بطرابلس . قال [الطّويل][121] :

58 ـ كَفِيلٌ بِقَهْرِ العُرْبِ وَالْعُجْمِ بَأْسُهُ وَلاَ عَجَبٌ أَنْ يَقْنِصَ الأَجْدَلُ[122] الصَّعْوَا[123]
68 ـ فَتِلْكَ تِلِمْسَانٌ وَمَلْيَانَةٌ إِلَى طَرَابُلُسٍ رُوعًا مُجَدِّدَةً رَعْوَى[124]
69 ـ بِلاَدٌ سَقَتْ فِيهَا الطُّغَاةَ سُعُودُهُ كُؤُوسَ مَنَايَاهَا جَزَاءً عَلَى الطُّغْوَى

(119) هذا الثائر يعتبر من كبار شيوخ الموحّدين .
(120) د/ص 293 .
(121) د/ص 422 و ص 423 .
(122) الأجدل : الصقر .
(123) الصّعوا : صغار العصافير .
(124) الرّعوى : التوبة .

5 ـ فتح تلمسـان :

خصّ الشّاعر فتح تلمسان بقصيدة كاملة (ق. رقم 2 ص 41) وأشار إلى هذا الحدث الكبير بالنّسبة إلى الدّولة الحفصيّة في مدحه لأبي زكرياء[125] في القصائد التّالية ق 48 ص 383 وق 176 ص 379 وق 201 ص 417 .

وقد علّل جلّ المؤرّخين وعلى رأسهم ابن خلدون فتح أبي زكريا تلمسان بخوف الأمير الحفصي من تحالف ثلاثي ضدّه بين السّعيد الخليفة الموحّدي (1242/640 ـ 1248/646) وأبي يحيى يغمراسن صاحب تلمسان والأمير المريني أبي يحيى بن عبد الحقّ . وقد تمّ فعلا التّحالف بين الأولّ والثاني فأسرع أبو زكريا بالهجوم على تلمسان لإفساد هذا التّحالف ونجح في ذلك نجاحا كاملا .

أمّا ابن الأبّار فيرى في الهجوم على تلمسان ضرب من نصرة الدّين والغضب لله . وهذا هو السّبب الذي تروّجه الخاصّة لإقناع العامّة ، ولتبرّر به هذه الحروب الدّاخليّة . قال الشّاعر [البسيط][126] :

7 ـ غَضِبْتَ لِلّهِ تَسْتَرْعِي فَـرَائِضَهُ ... فَجِئْتَ تَرْمِي بِسَهْمٍ لَيْسَ يُخْطِئُهُ[127]
8 ـ وَقُمْتَ لِلدِّينِ إِفْصَاحًا بِنُصْرَتِهِ ... فَاسْخَنْفَرَتْ[128] عِنْدَهَا الدُّنْيَا تُهَنِّئُهُ
9 ـ قَدْ كَانَ مُنْتَهَكًا جِسْمُ الْهُدَى مَرِضًا ... وَأَنْتَ رُوحٌ لَـهُ مَـا زِلْتَ تُبْرِئُهُ

ولا تشير المصادر التاريخيّة إلى أنّ أبا زكريا خرج بجيشين إلى تلمسان برّي وبحري ، بينما يشير ابن الأبّار إلى ذلك بقوله[129] :

10 ـ لِلّهِ جَيْشُكَ وَالأُسْطُولُ قَدْ ضَمِنَا ... لِلْمُقْتَدِي بِالْهُدَى سَيْـرًا يُهَدِّئُهُ
12 ـ هَذَا عَلَى أَغْبَرِ الْبَيْدَاءِ يَسْجُرُه[130] ... وَذَاكَ فِـي أَخْضَرِ الدَّأْمَاءِ يَمْلَؤُهُ

---

(125) د/ص 41 .

(126) د/ص 41

(127) الضّمير يعود على العدوّ .

(128) اسخنفرت : أسرعت .

(129) د/ص 42 .

(130) يسجره : يملؤه .

لقد غادر أبو زكرياء تونس في شوّال 639/أفريل ــ ماي 1242 ووصل إلى تلمسان في نهاية محرّم 640/جويلية 1242 وحاصرها وأخذها عنوة في شهر ربيع الأوّل 1242/640 . وأثناء الحصار تمكّن يغمراسن بشجاعته الفائقة أن يقتحم الجيش المحاصِرَ ويشقّ لنفسه ولفرسانه وعائلته طريقا ويفرّ إلى الجبل . فقال ابن الأبّار [البسيط](131) :

16ــ دَنَتْ غَمَرَاتُ الْمَوْتِ مِنْ يَغْمُرَاسِنٍ   فَأَجْفَلَ كَالْخَرْقَاءِ يَعْتَسِفُ الْخَرْقَا(132)
17ــ وَمِنْ خُبْثِهِ(133) يَوْمَ الهِيَاجِ سَلِيقَةً   تَسَلُّقُهُ مِنْ بَيْنِ آسَادِهِ سَلْقَا

ولئن لم تضبط المصادر التاريخيّة إلاّ السّنة والشّهر اللّذين تمّ فيهما الفتح ، فقد ذكر ابن الأبّار اليوم والسّاعة(134) :

15ــ أَتَتْهُمْ جُنُودُ اللّهِ تَصْمُدُ صَمْدَهُمْ   فَحُقَّ عَلَيْهِمْ صَبْحَةَ السَّبْتِ مَا حَقَّا

وقال (135) :

59ــ يُفَاخِرُ فِيهِ السَّبْتَ يَوْمُ عَرُوبَةٍ   وَمَا كَانَ إلاَّ مِنْ نَتَائِجِهَا حَقَّا

ولم يبق أبو زكرياء في تلمسان إلاّ 17 ليلة(136) ، إذ رأى أنّ من الحكمة أن يعفو عن يغمراسن ويعيده إلى حكم تلمسان باسمه ليكون الدّرع الواقي لمملكته من خطر الموحّدين والمرينيّين معا . قال ابن الأبّار(137) :

18ــ رَمَاهُ فَأَصْمَاهُ بِإقْحَافِ رَأْسِهِ   إِمَامُ هُدًى لَقَّى الضَّلاَلَةَ مَا لَقَّى
19ــ وَأَعْدَمَهُ الْمُلْكَ الَّذِي اعْتَادَ غَصْبَهُ   فَرَاجَعَ تَحْتَ الذِّلَّةِ الْمُلْكَ والرِّقَّا

---

(131) د/ص 381

(132) الخرق : الأرض الواسعة .

(133) ما اعتبره الشاعر خبثا اعتبرته المصادر التّاريخيّة شجاعة وبأسا وتوهّت بهما .

(134) د/ص 381 .

(135) د/ص 384 .

(136) العبر : 607/6 .

(137) د/ص 381 .

وكان على يغمراسن ــ حسب الشاعر ــ أن يستند على الركن الأشم وهو أبو زكريا الحفصي لا على الحائط المتداعي وهو السّعيد الموحّدي، فشتّان ما بين الجوارح الكاسرة والطّيور الصّغيرة الضّعيفة . وهنا ينكشف السّبب المباشر والحقيقي لهذه الحملة، لا ماذكره من أسباب دينيّة واهية . قال ابن الأبّار [البسيط][138] :

45ــ أوى[139] إلى أضْعَفِ الأرْكَانِ مُسْتَنِدًا وَأَيْنَ مِنْ كَاسِرَاتِ الطَّيْرِ يُؤْيُؤُهُ[140]

لقد كانت فكرة الاستيلاء على سلا ومرّاكش تخامر ذهن أبي زكريا سواء قبل فتح تلمسان أو بعدها . فالدّولة الموحّديّة في سنة 1242/640 كانت في حالة احتضار . ومن هنا فإنّ تحريض الشّاعر للممدوح على مهاجمتها ليس من بنات أفكاره وإنّما هو أمر متوقّع من دولة قويّة ناهضة أمام دولة منهارة آفلة . قال ابن الأبّار[141] :

35ــ جَاوِزْ تِلِمْسَانَ فَتْحًا لأَحِقًا بِسَلاَ يَكُفُّ مَنْ كَفَرَ النُّعْمَى وَيَكْفُرُهُ

36ــ وَانْهَدْ لِمَرَّاكُشٍ تُسْعَدْ بِهَا نَفَلاً[142] مَا كَانَ مِثْلُكَ يَنْسَاهُ وَيَنْسُوُهُ

وفتح تلمسان فعلا هو تهديد لسلا ومرّاكش، وهو إنذار في نفس الوقت لفاس وسبتة ولنصارى الأندلس قال الشّاعر[143] :

34ــ وَهَلْ سَكَنَتْ فَاسُ وَسَبْتَةُ بَعْدَهُ أَمِ اضْطُكَّتَا كَالخَافِقَيْنِ لَهُ خَفْقَا

35ــ لَقَدْ بَاتَ أَهْلُوهَا بِلَيْلَةِ مَاخِضٍ وَقَدْ عَضَّلَتْ وَضْعًا وَمَا قَتَرَتْ طَلْقَا

36ــ وَهَلْ أَخَذَتْ رُومُ الْجَزِيرَةِ حِذْرَهَا مِنَ الْفَتْكَةِ النَّكْرَاءِ تَمْحَقُهُمْ مَحْقَا

(138) د/ص 45 .

(139) يغمراسن

(140) أساء المحقّق فهم هذا البيت .

(141) د/ص 44 .

(142) الاستيلاء على عاصمة الدّولة الموحديّة وهي مرّاكش سيكون عملا سهلا دون حرب نظرا إلى ضعف هذه الدّولة .

(143) د/ص 383 .

وبفتح تلمسان سيمتدّ ملك أبي زكرياء من تلمسان ومليانة غربا إلى طرابلس شرقا .
قال ابن الأبّار(144) :

66ــ يُعَرِّفُ صَرْفَ الدَّهْرِ في النَّاسِ حُكْمَهُ   فَإِنْ عصم الأهدى لقد قصَمَ الأغوى
67ــ وَيُزْوَى لَهُ شَرْقُ الْبِلادِ وَغَرْبُهَا   لِيَبْلُغَ مِنْهَا مُلْكُهُ كُلَّ مَا يُزْوى
68ــ فَتِلْكَ تِلِمْسَانٌ وَمِلْيَانَةٌ إِلَى   طَرَابُلُسٍ رَوْعًا مُجَدَّدَةً رَعْوَى(145)

6 ــ بيعة مدن إفريقيّة لأبي زكريا

بدأ مسلسل الاعتراف بالسلطة الحفصيّة في بلاد المغرب والأندلس منذ أن برهن أبو زكريا على أنّه رجل المواقف الصّعبة . فقد استولى على بجاية وقسنطينة في سنة 1230/628 ثمّ قضى على ثورة ابن غانية في سنة 1234/631 وبدأ التّفكير في غزو تلمسان . قال ابن الأبّار [الطويل](146) :

8ــ وَلَمَّا أَجَبْتَ النَّاصِرِيَّةَ نَاصِرًا   وَجُبْتَ إِلَى الْبَطْحَاءِ بَيْدَاءَهَا رَكْضَا
9ــ دَعَتْكَ تِلِمْسَانٌ فَلَبَّيْتَ صَوْتَهَا   مُجِيرًا وَنَابُ الْجَوْرِ يُوسِعُهَا عَضًّا

وفعلا تمّ فتح تلمسان سنة 1242/640 فبوّأ هذا النّصر أبا زكريّا مكانة مرموقة في أعين أتباعه ومناوئيه ، داخل إفريقيّة وخارجها ، وأصبح مؤسّس هذه الدّولة الجديدة قوّة ترتجى ورعبا يتّقى . قال الشاعر [طويل](147) :

9ــ دَعَتْكَ تِلِمْسَانٌ فَلَبَّيْتَ صَوْتَهَا   مُجِيرًا وَنَابُ الْجَوْرِ يُوسِعُهَا عَضًّا
15ــ أَبَحْتَ حِمَاهَا قَادِرًا وَحَمَيْتَهُ   فَغَادَرْتَ حُبَّ الْغَدْرِ فِي صَدْرِهَا بُغْضَا
16ــ وَخَلَّفْتَ جَيْشَ الرُّعْبِ فِي أَخَوَاتِهَا   يُقِضُّ عَلَيْهِنَّ الْمَضَاجِعَ مُنْقَضَّا

وكان أبو زكريا قبل ذلك بسنة أي في سنة 1241/639 قد قضى على ثورة طرابلس وهي في المهد وقتل واليها عبد الرّحمان الهرغي أحد كبار شيوخ الموحّدين . وهكذا

(144) د/ص 423 .
(145) الرَّعْوَى : التوبة وحسن الرّجوع :
يشير إلى فتح تلمسان سنة 1242/640 وإخماد ثورة الهرغي في طرابلس 1241/639 .
(146) د/ص 346
(147) د/ص 346

لم يمنعه بعد المسافة بين أطراف مملكته من أن يضرب شرقا وغربا . قال ابن الأبّار [الطويل](148) :

58ــ كَفِيلٌ بِقَهْرِ الْعُرْبِ وَالْعُجْمِ بَأْسُهُ ‏ وَلاَ عَجَبٌ أَنْ يَقْنِصَ الأَجْدَلُ الصَّعْوَا
68ــ فَتِلْكَ تِلِمْسَانٌ وَمَلْيَانَةٌ إِلَى ‏ طَرَابُلُسٍ رُوعًا مُجَدَّدَةً رَغْوَى
69ــ بِلاَدٌ سَقَتْ فِيهَا الطُّغَاةَ سُعُودُهُ ‏ كُؤُوسَ الْمَنَايَا جَزَاءً عَلَى الطُّغْوَى

وبالقوّة خضعتْ إفريقيّة بأكملها للسّلطة الحفصيّة وعادت رياضا آمنة بعد أن كانت غياضا ترتع فيها الوحوش الكاسرة من ثائرين وعصاة . قال الشّاعر[الطويل](149) :

6ــ أَطَاعَتْكَ إِفْرِيقِيَّةٌ فَكَفَيْتَهَا ‏ عُصَاةً عَلَى إِتْلاَفِهَا ائْتَلَفُوا هُضًّا
7ــ وَكَانَتْ غِيَاضًا بِالْعِدَى فَأَعَدْتَهَا ‏ رِيَاضًا يَرِفُّ النَّوْرُ أَثْنَاءَهَا غَضًّا

وفتح تلمسان واستتباب الأمن داخل إفريقيّة ، جعل مدن المغرب الأقصى تراجع سياستها معَ الدّولتين المتواجدتين على السّاحة : وهما الدّولة الموحديّة الضّعيفة والدّولة الحفصيّة القويّة : فبالنّسبة إلى المدن التي مازالت خاضعة لدولة بني عبد المؤمن ، فقد كثر فيها الفساد . ولئن غضّ أبو زكريا الطرف عنها فما ذلك إلاّ من باب الحنان والرّفق بالجاني لعلّه يرعوي عن غيّه من تلقاء نفسه . قال ابن الأبّار [البسيط](150) :

48ــ سَلاَ عَنْ (سَلاَ) مُذْ ظَلَّهَا الْعَارِضُ الَّذِي ‏ أَطَلَّ عَلَى مَرَّاكُشٍ يَحْمِلُ الصَّعْقَا
49ــ وَأَشْرَفَ أَهْلُوهَا مَعَاصِيَ أَوْ بَقَتْ ‏ فَمَا زَادَ أَنْ أَغْضَى حَنَانًا وَأَنْ أَبْقَى
50ــ كَأَنَّ مَشِيدَ السُّورِ شَاءَ انْهِدَادَهُ ‏ لِيَظْفَرَ بِالأَشْقَى عَلَى يَدِهِ الأَتْقَى
51ــ وَإِلاَّ فَكَيْفَ انْهَالَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ‏ كَمَا انْهَالَتِ الْكُثْبَانُ وَانْهَارَتِ الأَنْقَا

وبالنّسبة إلى المدن التي خرجت عن الطاعة الموحّديّة أو هي بصدد المحاوَلة ، فإنّ فتح تلمسان سيجعلها تعيش حالة مخاض من الخوف والحيرة والتردّد . ولكنّ كلّ ذلك

---

(148) د/ص 423 ــ 422

(149) د/ص 345 ــ 346

(150) د/ص 383

سيسرع بها لأخذ قرار البيعة لأبي زكريا الحفصي ، لهذا تساءل الشاعر عن وقع الفتح في نفس متساكنيها ومن جاورهم من روم الجزيرة الأندلسية قائلا [الطويل][151] :

34ـ وَهَلْ سَكَنَتْ فَاسٌ وَسَبْتَةُ بَعْدَهُ　أَمِ اضْطَلَعَا كالخافِقَيْنِ لَهُ خَفْقَا
35ـ لَقَدْ بَاتَ أَهْلُوهَا بِلَيْلَةِ سَاجِعٍ　وَقَدْ عَضَلَتْ وَضْعًا وَمَا قَسَرَتْ طَلْقَا
36ـ وَهَلْ أَخَذَتْ رُومُ الْجَزِيرَةِ حِذْرَهَا　مِنَ الْفَتْكَةِ النَّكْرَاءِ تَمْحَقُهُمْ مَحْقَا

وقد بادرت سبتة مع حاكمها أبي علي بن خلاص سنة 1242/640 بإرسال بيعتها إلى أبي زكرياء . فكانت بيعتها بمثابة العلامة الخضراء لبقيّة المدن المغربيّة لتحذو حذوها وتنحو منحاها . قال ابن الأبّار [الطويل][152] :

8ـ هَنِيئًا لأَهْلِ العُدْوَتَيْنِ عِدَادُهُمْ　بِإِخْلاَصِهِمْ فِي الْمُخْلِصِينَ الأَطَايِبِ
9ـ أَطَاعُوا الإِمَامَ الْمُرْتَضَى وَتَسَابَقُوا　إِلَى سَنَنٍ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ لاَحِبِ
10ـ إِلَى مَذْهَبٍ سَنَّتْهُ سَبْتَةُ قَاصِدٍ　بِهِ عَدَلُوا عَنْ زَائِغَاتِ الْمَذَاهِبِ

وجاءت بيعة فاس معترفة بالخلافة الحفصيّة بعد أن راجعت نفسها وبدا لها طريق الهدى والصّواب . قال الشاعر [الطويل][153] :

27ـ وَأَجْدِرْ بِـ(فَاسٍ) أَنْ تُرَاجِعَ رُشْدَهَا　وَقَدْ رَحَضَتْ (مَرَّاكُشٌ) غَيُّهَا رَحْضَا
31ـ فَحَيَّوْكَ مِنْهَا بِالْخِلاَفَةِ حَيْثُ لَمْ　يَدَعْ جِدُّ أَعْرَاقِ الخِلاَفِ لَهَا نَبْضَا
32ـ تَشَيَّعَتِ الأَمْصَارُ فِيكَ تَزَحْزَحَتْ　غُدَاتُكَ عَنْ أَعْلَى مَنَابِرِهَا رَمْضَا

وبعد مدن الشّمال المغربي أتت بيعة مدن السّاحل والوسط من رباط الفتح إلى قصر ابن عبد الكريم ومكناسة . قال ابن الأبّار [الطويل][154] :

26ـ بِفَتْحِ رِبَاطِ الفَتْحِ تَرْتَبِطُ الْمُنَى　وَيَحْظَى بِهَا مَنْ بَاتَ نَارَ الْوَغَى يَحْظَى

---

(151) د/ص 383

(152) د/ص 80 ، ص 81 . انظر كذلك د/ص 347 بيت 21، 22، 23، 24

(153) د/ص 348

(154) د/ص 348

وقال [الطويل][155] :

27ـ وَبَـا لَشريشٍ وَالْجَزِيـرَةِ يَالَهَـا وَمَكْنَـاسَةٍ وَالْـقَصْرِ عَـزٌّ فَـلاً وَمَصَا
28ـ وَأَنَّتْ رِيَـاشًا فَاسْتَحَـثَّتْ لِدَعْـوَةٍ عَلَـى رَبِّهَـا أَنْ يَكْفِـيَ الـحَسَّ وَالْـحَصَا

ثمّ جاءت مدن أقصى الجنوب فكانت بيعة سجلماسة مع حاكمها عبد الله الهزرجي[156] قال ابن الأبّار [البسيط][157] :

1ـ فَوَاتِـحُ الْفَتْـحِ تُنْبِـي عَـنْ تَوَالِيـهِ لَقَـدْ تَمَهَّـدَ مُـلْكٌ أَنْتَ وَالِيـهِ
4ـ أَمَّتْ إِمَـامَ الْهُـدَى غُـرًّا مُحَجَّلَـةً كَأَنَّمَـا فِـي ثَنَايَاهَـا مَذَاكِيـهِ
9ـ عَلَـى خِلاَفَتِـهِ الإِجْمَـاعُ مُنْعَقِـدٌ فَحَـاضِرُ الْخَلْـقِ طَوْعًـا مِثْـلُ بَادِيـهِ
12ـ بُشْرَى سِجِلْمَاسَةُ أَعْطَتْ مَقَادَتَهَا يَـدَيْ إِمَـامٍ مُعَاطِيهَـا أَيَادِيـهِ

7 ــ نكبة ابن الأبّار الثانية :

نجد في ديوان ابن الأبّار ــ زيادة على القصائد التي قالها في طلب العفو من أبي زكريا في محنته الأولى ، وضمّن أغلبها كتابه إعتاب الكتّاب ــ قصائد أخرى عديدة في طلب العفو من هذا السّلطان نفسه . ممّا يدلّ على أنّ الشاعر تعرّض إلى غضب أبي زكريا مرّة ثانية . وحسب المصادر التاريخيّة ، نفاه في هذه المرّة إلى بجاية ، وبقي مدّة طويلة استمرّت إلى نهاية حكم المولى أبي زكريا سنة 1249/647[158] .

ويبدو أنّ السّلطان لم يأمر ابن الأبّار بالرّحيل وإنّما حرمه من الامتيازات التي كان أمثاله من الكتاب والشّعراء يتمتّعون بها فساءت حاله مادّيا حتى أصبح الشّاعر في حالة

(155) د/ص 340

(156) قتله في نفس السنة ــ أي سنة 1242/640 ــ الخليفة السّعيد الموحدي واسترجع المدينة .

(157) د/ص 411

(158) ذهبنا إلى هذا التّحديد نظرا إلى أنّ جلّ القصائد التي قالها الشّاعر يطلب العفو من أبي زكريا ذكر فيها الأمير محمّدا باعتباره وليّا للعهد ومن المعلوم أنّ هذا الأخير تولّى عهد أبيه بعد وفاة أخيه يحيى سنة 1248/646 . زيادة على ذلك ذكر أبو المطرّف ابن عميرة في إحدى رسائله (انظر ابن شريفة : أبو المطرّف ص 148) أنّ ابن الأبّار كان سحابة سنة 1249/657 وما قبلها .

من الضّنك والفقر يُرثى لها ، فيتحدّث عن أطفاله وجوعهم بطريقة تذكّرنا بأطفال الحطيئة وهو مُلقى في غياهب سجن عمر بن الخطّاب . قال [الطويل](159) :

10ـ وَلَوْلاَ أُطَيْفَالٌ طَوَاهُمْ طَوَاهُمُ   فَأَعْظَمُ مَا يَبْقَى جُلُودٌ وَأَعْظُمُ
12ـ هُمُ أَبَدًا حَتَّى قَلِيلِي اَلْبَالُ   بِمَعْجَزَتِي غَنْيَمٌ وَيَوْمِي أَيْوَمُ
13ـ جَوَانِحُهُمْ تَذْكُو لَهِيبًا وَتَلْتَظِي   وَأَعْيُنُهُمْ تَهْمِي نَجِيعًا وَتَسْجُمُ
14ـ تَخَالُهُمْ فِي شَجْوِهِمْ وَانْتِحَابِهِمْ   حَمَامًا عَلَى أَفْنَانِهَا تَتَرَنَّمُ

ومع ذلك لم يتسرّع الشاعر في الرّحيل بل بقي يترقّب عفوا من لدن السلطان [الطويل](160) :

15ـ وَزَجَّيْتُ أَيَّامِي وَرَجَّيْتُ فُرْجَةً   وَلَمَّا يَبِنْ مُثْرٍ بِرَحْلِي وَمُنْجِمُ
16ـ كَفَانِي الرِّضَى وَالإِذْنُ زَادًا لِطِيَّتِي   هُمَا لِي مَغْنًى حَيْثُ كُنْتُ وَمَغْنَمُ
17ـ وَكَمْ رُمْتُ فِي دَارِ الخِلاَفَةِ ـ أُيِّدَتْ ـ   قَرَارًا فَأَعْيَا ، وَالمَوَاهِبُ أَسْهُمُ
18ـ وَكَمْ لُحْتُ مَعْدُودًا يُلَوِّحُنِي الصَّدَى   وَبَحْرٌ نَدَاهَا مُزْبِدُ المَوْجِ خِضْرِمُ

ولمّا يئس من ذلك اضطرّ إلى الرّحيل [الطويل](161) :

7ـ بِرَغْمِيَ أَزْمَعْتُ المَسِيرَ عَنِ العُلَى   وَصَرْفُ اللَّيَالِي لِلْمُحِبِّينَ مُرْغِمُ
9ـ دَعَانِي لِتَرْحَالِي اضْطِرَارٌ وَلَمْ يَزَلْ   يُحَلِّلُ مَا أَضْحَى عَلَى المَرْءِ يَحْرُمُ
10ـ وَلَوْلاَ أُطَيْفَالٌ طَوَاهُمْ طَوَاهُمُ   فَأَعْظَمُ مَا يَبْقَى جُلُودٌ وَأَعْظُمُ

إنّ تقدّم سنّ الشاعر واضطراره إلى الرّحيل ثانية بعد أن اتّخذ عاصمة الخلافة الحفصيّة وطنا ثانيا له ، ليحزّ في نفسه ويؤلمها ويجعله يتجرّع مرارة خيبته وحرمانه علقما . قال [الوافر](162) :

38ـ أُجِبْتُ إِلَى الوَدَاعِ وَقَدْ دَعَانِي   عَلَى كَلَفٍ بِبَرْحٍ وَاشْتِيَاقِ
39ـ وَمَا دَارُ الإِمَارَةِ بِالَّتِي لاَ   أَبِيتُ لِبَيْنِهَا خَضِلَ المَآقِي

(159) د/ص 259 .

(160) د/ص 259 .

(161) د/ص 258

(162) د/ص 391

40ـ وَقَدْ وافَيْتُهَا غَبْدًا صُرَاحًا   فَكَيْفَ أُعِيبُ مِلْكِي بِالإِبَاقِ
41ـ لَقَدْ فَدَحَ الْعَزَاءُ فَلَمْ يُطِقْهُ   رَحِيلٌ مَا أَرَاهُ بِالمُطَاقِ
42ـ فَإِنْ رَافَقْتُ جِسْمًا فِي سَرَاحٍ   فَقَدْ فَارَقْتُ قَلْبًا فِي وِثَاقِ

وبصيص الأمل الذي بقي يستنير به الشّاعر في مدلهمّات المصائب هو أنّه منتقل من عاصمة السّلطان إلى مدينة وليّ العهد . وما حرم منه لدى الأوّل قد يستعيده لدى الثاني . وعسى أن يكره المرء ماله فيه تحقيق رغباته وأمانيه . قال [**الطّويل**][163] :

20ـ عَلَى أَنَّنِي مِنْهَا إِلَيْهَا تَنَقُّلِي   لِيُفْرَجَ بَابٌ فِي التَّكَسُّبِ مُبْهَمُ
21ـ أَلَيْسَ وَلِيُّ الْعَهْدِ قِبْلَتِيَ الَّتِي   أُوَجِّهُ وَجْهِي نَحْوَهَا وَأُيَمِّمُ
22ـ عَسَى لاِنْتِقَالِ الْحَالِ نَادَتْنِيَ الْمُنَى   فَلاَ بِرْبَتِهِ أَنِّي مُنَادَى مُرَخَّمُ
5ـ وَإِنَّ لَهُ بِالنَّاصِرِيَّةِ نَاصِرً   يَفُلُّ خَمِيسَ الْبُؤْسِ وَهْوَ عَرَمْرَمُ

وفي بجاية يقضي الشّاعر عدّة سنوات ، ويلتقي بصديقه أبي المطرّف بن عميرة ، ويترجم له الغبريني باعتباره أحد أعلام هذه المدينة . وبها يضع أو يكمل عدّة تصانيف ، ويترقّب من السّلطان عفوا فلا يحصل عليه ، فيشكو ويتذمّر لقد طال غضب السّلطان فطال الانتظار وعيل الصّبر . قال [الرّمل][164] :

1ـ أَسْرَفَ الدَّهْرُ فَهَلاَّ قَصَدَا   مَا عَلَيْهِ لَوْ شَفَى بَرْحَ الصَّدَى
2ـ يَنْقَضِي يَوْمِي كَأَمْسِي خَيْبَةً   أَبَدًا أَقْرَعُ بَابًا مُوصَدَا
3ـ طَالَ قَدْحِي لأَمَانٍ أُخْلِفَتْ   وَعَنَاءٌ قَدْحُ زَنْدٍ صَلَدَا
8ـ لاَ أَوَدُّ الْعُمْرَ أَلْقَاهُ إِذَا   عَزَّ فِيهِ مَا يُقِيمُ الأَوَدَا
9ـ حَسْبِيَ اللهُ لِشَتَّى نُوَبٍ   لَيْسَ يُحْصِيهَا حِسَابٌ أَبَدَا
10ـ قَدْ خَلَعْتُ الصَّبْرَ فِي أَثْنَائِهَا   فَرْطَ جَهْدٍ وَلَبِسْتُ الْكَمَدَا
11ـ أَنَا جَارُ الْبَحْرِ إِلاَّ أَنَّ لِي   مِنْهُ فِي حَالِ الْوُرُودِ الثَّمَدَا
13ـ وَعَلَى ذَلِكَ يَا نَفْسِي فَلاَ   تَيْأَسِي إِنَّ مَعَ الْيَوْمِ غَدَا
14ـ لِلإِمَامِ الْمُرْتَضَى مِمَّا مَضَى   خَلَفٌ يُولِيكَ عَيْشًا رَغَدَا

---

(163) د/ص 9 ـ 258

(164) د/ص 60 ـ 159

ويبدو أنّ الشّاعر كان وهو ببجاية مغضوب عليه يتقاضى مرتّبا كلّ شهر وكان ضئيلا لا يفي بالحاجة . قال [الكامل][165]:

9ـ هَلْ شَرْبَةٌ مِنْ أَبْحُرِ الجَدْوَى سِوَى ... ثَمَدٍ يَفِيضُ لِرَأْسِ كُلِّ هِلاَلِ
20ـ إِنْ لَمْ تُفِدْنِي ضَيْعَةً أَوْ صَنْعَةً ... فَضَيَاعُ أَحْوَالِي مِنَ الأَحْوَالِ

ولقد فكّر الشّاعر وقد غلب عليه اليأس أن يعصي أوامر السّلطان ويعود بدون إذن إلى تونس . قال شاكيا متذمّرا [الكامل][166] :

46ـ يَا لَلزَّمَانِ أَعَلَّنِي بِزَمَانَةٍ ... أَصْبَحْتُ بِالإِخْلاَدِ فِيهَا أَقْنَعُ
47ـ لاَ بُرْءَ مِنْهَا يُسْتَفَادُ بِحِيلَةٍ ... فَإِلَى الرِّضَى بِالْحُكْمِ فِيهَا الْمَرْجِعُ
48ـ مِنْ أَيْنَ لِي صَبْرٌ عَلَى مَضَضِ النَّوَى ... سُدَّتْ إِلَى الصَّبْرِ الطَّرِيقُ الْمَهْيَعُ
49ـ لَوْلاَ التَّكَرُّهُ أَنْ أُخِلَّ بِطَاعَةٍ ... لَسَعَيْتُ زَحْفًا أَسْتَقِيمُ وَأَظْلَعُ
50ـ وَبِأَنْ وُكِلْتُ إِلَى الأَمِيرِ مُحَمَّدٍ ... عَذُبَ الأَمَرُّ مِنَ الْفِرَاقِ الأَقْطَعُ

إنّ ما يخفّف عن الشّاعر في كلّ مرّة يشكو فيها ويتذمّر هو وجوده بجوار وليّ العهد في بجاية وأمله في عفو السّلطان . لكن قد ينسى كلّ ذلك ويفقد السّيطرة على أحزانه فيقول متفجّعا [الوافر][167] :

1ـ أَنِينٌ وَاشْتِيَاقٌ وَارْتِيَاعُ ... لَقَدْ حُمِّلْتُ مَا لاَ يُسْتَطَاعُ
3ـ وَرَوَّعَنِي الْفِرَاقُ عَلَى احْتِمَالِي ... وَمَنْ ذَا بِالتَّفَرُّقِ لاَ يُرَاعُ
4ـ بِعَيْنِ اللَّهِ حِفْظِي دُونَ بَحْثِي ... وَكَنْزِي مَا يُضَاعُ وَمَا يُذَاعُ
5ـ لَزِمْتُ الصَّبْرَ حَتَّى عِيلَ صَبْرِي ... وَبَانَ الْعُذْرُ إِذْ جَدَّ الزَّمَاعُ

ويبدو أنّ الشّاعر مرّ بثلاث مراحل في الشّكوى والاستعطاف وهو ببجاية . ففي الفترة الأولى ـ ويبدو أنّه لم يتصّل بعد بأمير بجاية ووليّ العهد ـ كان يستشفع بأبناء أبي زكريّا دون تحديد. قال [الوافر][168] :

26ـ أَمَوْلاَيَ وَمَا أَوْلَيْتَنِيهِ ... فَأَنْعُمُهُ ، مِنَ النِّعَمِ الْجِسَامِ
27ـ وَسَوَّغَنِي التَّشَفُّعَ فِي الرِّضَى مِنْ ... بَنِيكَ بِكُلِّ جَحْجَاحٍ هُمَامِ

(165) د/ص 40 ـ 239 .
(166) د/ص 354 .
(167) د/ص 5 ـ 364 .
(168) د/ص 262

28ــ برابِـي طُـولُ إقصاءٍ غرابـي | وَفـي مُقتـاكَ بُـرْءٌ لِلْكَـلامِ
29ــ ولَـوْ أنّي لَثِمْتُ الْجُودَ مِنْهَـا | غَـفَتْ بالسُرّيّ آثَـارُ الأُوامِ

وفي مرحلة ثانية استشفع بوليّ العهد دون تعيين هل هو يحيى أو محمّد ؟ قال [البسيط][169] :

73ــ عِلْمِي بِـآلِ أبِي حَفْصٍ يُعَلِّمُنِي | مَذابِحَ ابْـنِ حُسَيْنٍ آلِ حِمْدَانَـا
74ــ وَصِدْقُ حُبِّيَ لاَ سُلْوَانَ يُكْذِبُـهُ | فِيهِـمْ وَإِنْ أتْبَـعَ الْهِجْـرَانُ هِجْرَانَـا
75ــ عَسَى وَعَلَّ وَلِيُّ الْعَهْدِ يَشْفَعُ لِـي | فَأَسْتَعِيـدَ مِـنَ التَّغْـرِيبِ مَـا بَانَـا

وكانت المرحلة الثّالثة في آخر أيّام السّلطان أبي زكريا ، فقد مات وليّ العهد أبو يحيى فاغتمّ والده لوفاته واعتلّ ، وكان ذلك فرصة للشّاعر ليصل إلى قلب أبي زكريا وقد نال منه الغمّ والمرض ، فينال رضاه . قال بعد أن هنّأه بشفائه من مرضه [الوافر][170] :

18ــ أمَـوْلاَيَ أُنَـادِي مِـنْ بَعِيـدٍ | لِيُظْفِرَنِـي بِإِدْنَائِـي النِّـدَاءُ
19ــ وَلَـوْ أنَّ الْهَـوَى بِالْـقَصْدِ وَافٍ | لَطَـارَ إِلَـيْكَ (بِالْقَـلْبِ) الْهَـوَاءُ
26ــ لَعَـلَّ عُـلاَكَ تُوسِعُنِـي بِحُسْنَـى | قُبُـولاً . إِنَّـهُ نِعْـمَ الْحِبَـاءُ

وليسرع بنيل رضى السّلطان تشفّع بوليّ العهد الجديد محمّد وهو الّذي خلف أخاه يحيى في ولاية العهد وعلى إمارة بجاية . قال [الكامل][171] :

11ــ وَلَئِـنْ عَلَـتْكَ مِـنَ الضَّنَـى سِمَـةٌ | فَالمَشْرَفِـيُّ يَزِينُـهُ الْفَلَـلُ
12ــ بِشِفَـائِكَ الْمَيْمُـونُ مَطْلَعُـهُ | نُـكِصَتْ عَلَـى أعْقَابِهَـا الْعِلَـلُ
36ــ يَـا حَـادِيَ الْخُلَفَـاءِ مَعْـذِرَةً | إِنَّ الأَيَـادِيَ مَـا بِهَـا قِبَـلُ
37ــ وَعَسَى قَبُـولُكَ أنْ تَجُـودَ بِـهِ | حَلْيًـا لِحَـالٍ شَأْنُهَـا الْعَطَـلُ
38ــ أمَلِـي إِلَـى عَلْيَـاكَ مُنْقَطِـعٌ | وَتَوَسُّلِـي لِـرِضَاكَ مُـتَّصِلُ

---

(169) د/ص 311

(170) د/ص 51 .

(171) د/ص 2 ــ 241 .

39ـ أَكِلُ اخْتِيَارِي لِاخْتِيَارِكَ لِي   وَعَلَى وَلِيِّ الْعَهْدِ أَتَّكِلُ
40ـ حَسْبِي الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ سَنَدًا   بِجَلَالِهِ يُسْتَدْفَعُ الْجَلَلُ

وأخيرا يحصل الشاعر على عفو السلطان ، فكان يوم وصوله بالنسبة إليه عيدا ثالثا يضاف إلى عيد الاضحى وعيد الفطر [الوافر](172) :

45ـ قَدْ عَزَّزَ الْعِيدَيْنِ عِنْدِي ثَالِثٌ   الفِطْرُ وَالْأَضْحَى وَيَوْمُ رِضَاهُ

وقد عبّر الشاعر عن بهجته بهذا العفو في قصيدة أخرى فقال [الطويل](173) :

3ـ وَرَدْتُ نَدَاهُ الغَمْرَ غَيْرَ مُصَرَّدٍ   وَنِلْتُ رِضَاهُ الجَمَّ غَيْرَ مُصَرَّمِ

8 ـ القبائل :

إنّ حديث ابن الأبار عن القبائل يندرج في نطاق علاقة هذه القبائل بالدّولة الحفصيّة الفتيّة . ولم تكن هذه العلاقة حسنة في كثير من الأحيان لهذا نجد ابن الأبار ـ وهو النّاطق الرّسمي باسم السلطان الحفصي ـ إمّا متشفيًا ممّا أصاب هذه القبائل أو مهدّدا لها لما سيؤول إليه أمرها على يد الممدوح . قال متشفيًا [الكامل](174) :

19ـ وَإِقْبَالُكُمْ سَلَبَ الْقَبَائِلَ بَأْوَهَا(175)   وَكَسَا الْبُطُونَ الْهَوْنَ وَالْأَفْخَاذَا

وقال مهدّدا [الرّمل](176) :

57ـ لَيْسَ يَرْجُو مَنْ عَصَى مُعْتَصَمًا   مِنْ عَوَالِيهِ وَلاَ مُعْتَصَرَا(177)
58ـ هَذِهِ الْأَحْيَاءُ قَدْ دَوَّخَهَا   قَبْلَ الْبِيضَ بِهَا وَالسُّمُرَا
60ـ غَادَرَ الْغَدْرُ وَمَنْ دَانَ بِهِ   لِلْعَوَالِي وَالْعَوَافِي جَزَرَا

(172) د/ص 410 .

(173) د/ص 288 .

(174) د/ص 184 .

(175) البأو : الفخر والتكبّر .

(176) د/ص 188

(177) الملجأ .

وهذه القبائل على ثلاثة أصناف :

ــ **صنف أوّل** :قبائل من أحلاف مناوئية من الموحّدين أو بني عبد الواد . ومن هذا الصنف نجد :

ــ قبيلة سفيان التي كانت مع السّعيد عندما هجم على تلمسان وقتل سنة 1248/646 . قال ابن الأبّار [**البسيط**](178) :

49ــ سَاقَتْ رِيَاحُ الْمَنَايَا مِنْ سُيُوفِهِمُ سُفْيَانَ فَانْهَزَمَتْ يَا وَيْحَ سُفْيَانَا

ــ وعرب المعقل وهم ممّن تخلّوا عن السّعيد في حصاره لتلمسان وكانوا مع الخلط السبّب المباشر في انكساره ومقتله(179) . قال ابن الأبّار [**البسيط**](180) :

50ــ وَالْمَعْقِلِيُّونَ لَوْلاَ أَنَّهُمْ عَقَلُوا(181) نَجَاءَهُمْ مَا نَجَوْا شِيبًا وَشُبَّانَا

ــ وبنو سويد من بني مالك بن زغبة وكانوا أحلافا لبني عبد الواد(182) مناوئين لأبي زكريا وخاصّة عندما زحف على تلمسان سنة 1242/640 . قال ابن الأبّار [**وافر**](183) :

65ــ وَرُبَّ مُسَوَّدٍ لِبَنِي سُوَيْدٍ مُقَوَّدٍ بِالْجَرَائِرِ فِي جَرِيرِ(184)

ــ **صنف ثان**:من القبائل يذكر الشّاعر عداوتهم لبني حفص ولكنّهم اضطروا في نهاية الأمر إلى الخضوع لهم كقبيلتي زغبة ورباح من بني هلال . وكانت الأولى مقيمة

---

(178) د/ص 309 .

(179) ابن خلدون : العبر : 535/6 .

(180) د/ص 309 .

(181) د/ص الشّاعر يعتبر غدر عرب المعقل بالسّعيد الموحّدي هو ضرب من التعقّل أنجاهم من الهلاك على يد ممدوحه أبي زكريّا .

(182) ابن خلدون : العبر : 95/6 .

(183) د/ص 197

(184) د/ص جرير : زمام النّاقة أو الحبل .

في المغرب الأوسط والثانية في الزّاب قد لعبتا دورا خطرا فيما جدّ من أحداث في نهاية القرن 12/6 وبداية 13/7 بالمغرب(185) . وكان لهاتين القبيلتين دور كذلك منذ منتصف القرن 11/5 في خراب مدينة القيروان وقد ذكرهما بكلّ سوء شاعرا عاصمة الأغالبة ابن رشيق وابن شرف . قال ابن الأبّار فيهما [كامل](186) :

5ـ وَحَكَتْ أَجَادِلُ زُغْبَةٍ زُغْبَ الْقَطَا وَغَدَتْ رِمَاحُ بَنِي رِيَاحٍ رُكَّدَا

وقد أذعنت هاتان القبيلتان لأبي زكريّا بعد أن ضيّق عليهما الخناق وكان خضوعهما سببا لنجاتهما . قال ابن الأبّار [الوافر](187) :

60ـ وَلَوْلاَ أَنَّهَا رَكَدَتْ «رِيَاحٌ» لَبَاءَتْ مِنْهُ بِالْيَوْمِ الْعَسِيرِ
61ـ وَزَاغَتْ زُغْبَةٌ ثُمَّ اسْتَقَامَتْ فَقَدْ عَادَتْ بِعَفْوٍ مِنْ قَدِيرِ
64ـ وَبَيْنَ الزَّاغِبِينَ وَبَيْنَ زُغْبٍ تَحَوَّلُ عُرْفُهَا نَحْوَ النَّكِيرِ

وتبعتهما في ذلك قبيلة شدّاد . فقال الشاعر [الوافر](188) :

62ـ وَشَادَ نَجَاةَ شَدَّادٍ خُضُوعٌ وَفِي أَعْمَارِهِمْ خَتْمُ الدُّثُورِ

ومن هذه القبائل التي تمّ لبني حفص السّيطرة عليها قبيلتي زناتة وهوّارة البربريّتين . وكانتا في أوّل الأمر مع بني غانية ضدّ الموحّدين ، ثمّ ضدّ الحفصيّين مع بني عبد الواد . قال الشاعر مهدّدا زناتة بمناسبة فتح أبي زكريّا لتلمسان [البسيط](189) :

38ـ بَشِّرْ زَنَاتَةَ بِالْهَيْجَاءِ مُسْفِرَةً عَنْ كُلِّ ذِي قَدَرٍ لاَ حَوْلَ يَدْرَؤُهُ

وهوّارة : وهم فرع من قبيلة صنهاجة ، ولها بطون كثيرة سكن بعضهم طرابلس

---

(185) ابن خلدون:العبر : 44/6 و 632 .
(186) د/ص 167 .
(187) د/ص 196 .
(188) د/ص 196 .
(189) د/ص 44 .

وبرقة وقطن أخرون أوراس . قال الشاعر [الطويل][190] :

22ـ بِحَسْبِكَ فِي هُوَّارَةٍ وَزَنَاتَةٍ وَقَائِعُ هَابَتْهَا سُلَيْمٌ وَعَامِرُ

ولئن نوّه الشاعر بهم ومجّد بطولتهم وخاصّة زناتة فليظهر مدى قوّة ممدوحه وشجاعته على طريقة عنترة في الفخر [الطويل][191] :

9ـ عُصَاةٌ أَطَاعَ اللّهَ فِيهِمْ مُبِيرُهُمْ فَحَصَّهُمُ قَدًّا وَعَتَّهُمُ دَقَّا
10ـ أَخَامِسُ تُنْمِيهِمْ زَنَاتَةُ لِلْوَغَى وَحُقَّ عَلَى الأَغْصَانِ أَنْ تُشْبِهَ الْعِرْقَا
11ـ تَرَى بِهِمْ مِنْ قَامَةٍ وَاسْتِقَامَةٍ رُدَيْنِيَّةً ذُبَّلاً وَهِنْدِيَّةً دُلْقَا
12ـ وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ لَيْسَ تُغْذِيهُم الظُّبَى فَمَا مِنْهُمُ مَنْ لاَنَ طَبْعًا وَلاَ رَقَّا
13ـ غِلاَظٌ فِظَاظٌ مَا لِعُذْرَةَ[192] عِذْرَةٌ لَدَيْهِمْ إِذَا هُمْ أَحْدَثُوا مَوْتَهُمْ عِشْقَا
14ـ وَأَخْرَقُ خَلْقِ اللّهِ حَتَّى إِذَا رَدَوْا لِتَقْيِ الرَّدَى أَقْرَانُهُمْ بَهَرُوا حِذْقَا
15ـ أَتَتْهُمْ جُنُودُ اللّهِ[193] تَصْمُدُ صَمْدَهُمْ فَحُقَّ عَلَيْهِمْ صَيْحَةُ السَّبْتِ[194] مَا حَقَّا

وبدأت هذه القبائل تغيّر مواقفها من الدّولة الحفصيّة بعد فتح تلمسان . فقال الشّاعر مبيّنا تخلّي قبيلة زناتة القويّة عن الطّرق التي كانت تستعملها ضدّ خصومها [وافر][195] :

63ـ وَزَانَ زَنَاتَةً أَنْ لَمْ يَشُقُّهَا شِقَاقٌ جَامِعٌ وِزْرًا لِزُورِ

ويبدو أن هذه القبيلة بالذّات خضعت للحفصيّين أو لحلفائهم بني عبد الواد ، وربطت مصالحها بمصلحة دولتهم . ولهذا نرى الشّاعر ينوّه بشأنهم قائلا [البسيط][196] :

51ـ لِلّهِ صِيدٌ زَنَاتِيُّونَ تَحْسَبُهُمْ أُسْدًا إِذَا افْتَرَسُوا الأَقْرَانَ مَيدَانَا

(190) د/ص 212 .

(191) د/ص 1 ـ 380 .

(192) قبيلة من العرب عرفت بالحبّ الطاهر العفيف حتى أصبح يُعرف بها .

(193) جنود الممدوح وهو أبو زكريا .

(194) يوم فتح تلمسان 1242/640 .

(195) د/ص 196 .

(196) د/ص 309 .

52ــ أَحَلَّهُمْ رُتَبَ الأَمْــلاَكِ جَدُّهُــمْ   فِي خِدْمَةِ الْقَائِمِ الْحَفْصِيِّ عِبْدَانَــا[197]

53ــ صَالُوا صُقُورًا بِخِزَّانٍ[198] جُنْتُ فَرَقًا   وَطَالَمَا مَرَّتْ فِي الْحَــرْبِ عِقْبَانَــا

أمّا الصنف الثّالث فهي قبائل يبدو أنّها استمرّت إلى حين على عداوتها للحفصيّين كبني سليم[199] وكانوا مع ابن غانية ضدّ الموحّدين ثمّ الحفصيّين وبني الجبّار[200] وهي قبيلة نازلة قرب بجاية . قال الشاعر متشفيًا فيهما لمّا بدّد شملهما أبو زكريا[**الوافر**][201] :

66ــ وَجِيئَتِ مِنْ بَنِي الْجَبَّارِ أَوْدَى   عَلَــى صِغَــرٍ بِلَهْذَمِــهِ الطَّرِيــرِ

67ــ وَضَحَّــى بِالْـعُصَاةِ بَنِــي سُلَيْــمٍ   ضُحَــى يَــوْمٍ عَبُــوسٍ قَمْطَرِيــرِ

ومن هذا الصنّف يذكر ابن الأبّار قبيلة سدويكش المقيمة بين قسنطينة وبجاية[202] وأحد فروعها أولاد سوّاق[203] . قال وقد نال منهم الممدوح [**الوافر**][204]:

32ــ أَعَــنْ سَدْوِيــكَشٍ تَنْبُــو ظُبَــاهُ   وَمِــنْ عَادَاتِهَــا فَــرْيُ الْفَــرِيِّ

46ــ وَكَيْــفَ رَجَــا ابْــنُ سَوَّاقٍ نَجَــاةً   وَلَــيْسَ لِمَــا عَنَــاهُ بِالنَّجِــيِّ

---

(197) إنّ خدمتهم للدّولة الحفصيّة بوّأتهم رُتب الملوك والأسياد . وأشار صاحب مقال (زناتة) في دائرة المعارف الإسلاميّة الطبعة العربيّة ج 10 ص 416 أنّ فرعا من زناتة أصابه الوهن في السّهول حيث غدوا عبيدا للعرب الرّحل .

(198) خِزّان : ذكور الأرانب .

(199) د/ص 196 تعليق 25 ــ ابن خلدون : العبر : 71/6 ــ 596 .

(200) د/ص 196 تعليق 24 ــ ابن خلدون ص 101 .

(201) د/ص 197 .

(202) ابن خلدون : العبر : 303/6 .

(203) ابن خلدون : العبر : 304/6 .

(204) د/ص 427 .

وكان الشّاعر وهو يمدح الحفصيّين يخيف القبائل العربيّة بما فعله الممدوح بالقبائل البربريّة قال [الطويل](205) :

22ــ يــحَسْبُكَ فِــي هَــوَّارَةٍ وَزَنَاتَــةٍ   وَقَائِــعُ هابتهــا سُلَيْــمٌ وَعَامِــرُ
23ــ تُعَادُ إِلَــى النَّحْــرِ الوَحِــيِّ قُدُومُهَــا   بِمَــا عَظُــمَتْ آثارُهَــا وَالْجَرَائِــرُ

ويخيف جميعهم بتذكيرهم بوقائع الحفصي فيهم . قال [الطويل](206) :

47ــ لَهَا(207) فِي سُلَيْمٍ مَالَهَا فِي زَنَاتَةٍ   وَهَوَّارَةٍ مِنْ عُدَّةِ الهَصْ(208) وَالرَّهْصِ(209)

والشّاعر في حالات اندفاعه التّمجيدي لأبي زكريّا يجمع مختلف القبائل والأجناس في فزعها من الممدوح ، فلا ترى ألّا وفودها وهي تقدّم له فروض الطّاعة والخضوع . قال [الطويل](210) :

5ــ لَكَ الْخَيْرُ هَذِي الْعُجْمُ وَالْعُرْبُ تَغْتَدِي   بِهَــا مُــنشآتٌ أَوْ تَــرُوحُ رَوَاحِــلُ
6ــ تَمَلَّكَهَــا رُغْبٌ وَرُعْبٌ مُخَامِــرٌ   فَــرُسْلٌ عَلَــى حُكْــمِ الْمُنَــى وَرَسَائِــلُ
7ــ وَرَدَّ عَلَى رَغْــمِ الأُنُــوفِ وُجُوهَهَــا   إِلَــيْكَ أَسَاطِيــلٌ سَفْنٌ وَجَحَافِــلُ

9 ــ الدّولة الموحّديّة :

إنّ موقف ابن الأبّار من الدّولة الموحّديّة هو موقف ملتزم للسّياسة الحفصيّة. لهذا لا يترك أيّة فرصة تمرّ ــ وهو يمدح سلاطين هذه الدّولة الصّاعدة وأمرائها ــ إلّا ونال من دولة عبد المؤمن الضّعيفة المنحلّة ، وذلك بالتّنديد بأعمال أواخر خلفائها منذ المأمون الموحدي ، وبالتّحريض عليها للتّخلّص منها .

(205) د/ص 212 .
(206) د/ص 334 .
(207) خيول الممدوح .
(208) العصر .
(209) الكسر .
(210) د/ص 236 .

ومن وجهة النّظر هذه يرى ابن الأبّار ــ بصفة عامّة ــ أنّ دولة الموحّدين هي دولة قد انتهى أمرها كما انتهى أمر بني أميّة في المشرق مع آخر خلفائهم مروان الملقّب بالحمار . وبنو عبد المؤمن هم أنفسهم على يقين من هذه الحقيقة . قال [الطّويل][211] :

41ــ فَقَدْ أَبْصَرُوا أَلاَّ خُلُودَ لِمُلْكِهِمْ وَإِنْ أَصْبَحُوا عُمْيَ الْبَصَائِرِ كَالْخُلْدِ
42ــ وَبِالْغَرْبِ مِنْ أَعْقَابِهِمْ غُبَّرٌ غُبْرٍ تَيَقَّنَ أَنْ تَرْدَى إِذَا جَيْشُهُ يُرْدِي
43ــ وَهَلْ مَلَكَتْ لِلأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِقْوَدًا أُمَيَّةُ بَعْدَ مَرْوَانِهَا الْجَعْدِ

والشّاعر يتجنّب تسمية الدّولة الموحّدية باسمها ، لأنّ الموحّدين الحقيقيّين ــ في نظره ــ هم الذين حافظوا على دعوة المهدي وصحبه ، وهم الحفصيّون . فتراه يسمّيهم تارة بني يعقوب نسبة إلى جدّهم يعقوب المنصور الخليفة الموحدي الرّابع وبطل معركة الأرك الشّهيرة . قال ابن الأبّار [الكامل][212] :

28ــ أَمَّا بَنُو يَعْقُوبَ قَدْ أَوْدَى بِهِمْ مِنْ بَأْسِهِ الإِرْهَابُ وَالإِرْهَاقُ

وتارة يرجع نسبهم إلى قيس أي قيس عيلان من عرب قحطان . وهذا في نظر ابن خلدون منكر من القول وزور . قال الشّاعر [الطّويل][213] :

36ــ أَدَارَ عَلَى قَيْسٍ وَأَمْلاَكِهَا الرَّدَى فَلَمْ يَكُ عَنْهُمْ لِلنَّوَائِبِ مِنْ رَدْ
37ــ وَتَاللهِ مَا شَرْقُ الْبِلاَدِ وَغَرْبُهَا لِسُلْطَانِهِ إِلاَّ هَدَايَا لِمُسْتَهْدِ

ووجد ابن الأبّار في مواقف بعض خلفاء الموحّدين وسلوكهم مجالا للتّنديد بهم والتّنويه بممدوحه أبي زكريّا . فقد رفض المأمون الموحّدي ، بعد رجوعه إلى مرّاكش من الأندلس سنة 1228/626 ، مذهب ابن تومرت «وأشاع النّكير على المهدي في العصمة وفي وضع العقائد والنّداء للصّلوات باللّسان البربري وأسقط اسم الإمام في الخطبة والسكة وأعلن بلعنه»[214] واستغلّ أبو زكريّا هذا الانحراف عن الدّعوة

(211) د/ص 165

(212) د/ص 388

(213) د/ص 164

(214) العبر ط . دي سلان 1847 ص 386

الموحّديّة فقطع الخطبة للمأمون سنة 1228/626 وأسندها لمنافسه يحيى بن النّاصر ثمّ أزال اسم النّاصر من الخطبة 627/ نهاية فيفري 1229 . وأصبحت الخطبة باسم المهدي والخلفاء الرّاشدين . وباتت الدّولة الحفصيّة تمثّل الاستمراريّة الشّرعيّة للدّولة الموحديّة ، بل هي التي أنقذت الدّعوة المهديّة من الانحراف وأقامت الحقّ بعد خمود . قال ابن الأبّار [الرّمل](215) :

20ــ إنّمَا دَوْلَةُ يَحْيَى رَحْمَةٌ   لِلْبَرَايَا وَحَيَاةٌ لِلْهُدَى
23ــ نَشَرَ الدَّعْوَةَ لَمَّا هَمَدَتْ   وَأَقَامَ الْحَقَّ لَمَّا قَعَدَا

والمحافظة على دعوة المهدي من الزّيغ والانحراف ، أو الاضمحلال والزّوال هو هدف سام دعا إليه جَدّ الحفصيّين وهو أبو حفص أحد أتباع المهدي العشرة . ولم يكتف بذلك بل وصّى به أبناءه من بعده ، لذلك لا يمكن لمدّع أن يَدّعي أنّ الحفصيّين اتخذوا من الدّفاع عن مذهب المهدي ذريعة للوصول إلى السلطة . فهذا المذهب هو جزء من عقيدتهم ورثوه أبا عن جدّ . قال ابن الأبّار [الطّويل](216) :

40ــ هِيَ الدَّعْوَةُ الْمَهْدِيَّةُ اسْتَخْلَصَتْ لَهَا   نُهَى الْقَائِمِ الْهَادِي فَكَانَ لَهَا خِلْصَا
41ــ بِإِظْهَارِهَا وَصَّى أَبُو حَفْصٍ الرِّضَى   بَنِيهِ فَوَفَّى دُونَهُمْ مَا بِهِ وَصَّى

وهكذا يتفرد الحفصيّون بالشّرعيّة الموحديّة عوضا عن حكّام مرّاكش ، فدولتهم هي دولة مهديّة عقيدة ومذهبا ، عمريّة (نسبة إلى عمر بن الخطاب) نسبا وسلوكا . قال الشاعر [الكامل](217) :

35ــ وَإِيَالَةٌ مَهْدِيَّةٌ عُمَرِيَّةٌ   أَوْدَى بِدَعْوَتِهَا الضَّلَالُ وَطَاحَا

وبتمسّكها بالدّعوة المهديّة في الأرض سيأتيها السّند من السّماء قال [البسيط](218):

17ــ بِمَظْهَرِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ مُتَّصِلٌ   وَبِاتِّبَاعِ هُدَى الْمَهْدِيِّ مُتَّصِفُ

(215) د/ص 160

(216) د/ص 342

(217) د/ص 115

(218) د/ص 374

وكان المأمون الموحّدي عندما عزم على مغادرة الأندلس والرّجوع إلى مرّاكش استعان بفرقة مرتزقة من الجيش النّصراني رافقته في عبوره من العدوة الأندلسيّة إلى العدوة الإفريقيّة . واشترط عليه ملك قشتالة الذي أمّده بهذه الفرقة أن يسمح للنّصارى ببناء كنيسة لهم بعاصمته مرّاكش .

ووجد الشّاعر في هذه العلاقات مع النّصارى الفرصة للتّنديد بالمأمون المُوحّدي وبمن جاء بعده من الخلفاء ونهجوا نهجه . وهو يأمل أن تكون المرحلة الثّانية بعد استيلاء الممدوح على تلمسان ووصول بيعة فاس وسبتة أن تأتيه بيعة الزّوراء (بغداد) ، ولم يبق بعد ذلك إلاّ الدّخول إلى مرّاكش منتصرا ، ناشرا فيها العدل والأمن ، ومطهّرها من الكفر والرّجس . قال [**الطّويل**](219) :

7ـــ إِذَا الْمَغْرِبُ الأَقْصَى رَمَى بِقِيَادِهِ   إِلَيْهِ فَمَاذَا يَصْنَعُ الْمَشْرِقُ الأَدْنَى
8ـــ كَأَنِّيَ ـــ بِالزَّوْرَاءِ تَخْطُبُ أَمْنَهُ   وَقَدْ بَثَّ فِي مَرَّاكِشَ الْعَدْلَ وَالأَمْنَا
9ـــ وَزَحْزَحَ بِالتَّوْحِيدِ عَنْ جَنَبَاتِهَا   عَصَائِبَ لِلتَّثْلِيثِ جَارُوا بِهَا سُكْنَى
10ـــ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ لِلْمُؤْمِنِينَ مَغَانِيًا   فَهَا هِيَ لِلْكُفَّارِ وَا أَسَفَا مَغْنَى
11ـــ يَعِزُّ عَلَى اللُّسْنِ الْمَصَاقِعِ أَنَّهَا   تُرَاطِنُ فِي أَقْدَائِهَا عُجُمًا لُكْنَا
12ـــ هُمُ اتَّخَذُوا فِيهَا الْكَنَائِسَ ضِلَّةً   وَهُمْ جَعَلُوا لِلَّهِ فِيمَا افْتَرَوْهُ ابْنَا
13ـــ وَكَمْ سَيِّدٍ مِنْهُمْ يُطَاعُ احْتِكَامُهُ   عَهِدْنَاهُ عَبْدًا لِلْعَبِيدِ بِهَا قِنَّا
14ـــ ضَمَانٌ عَلَى سَيْفِ الإِمَارَةِ تَرْبُهُمْ   وَإِبْرَاءُ قَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ضِمْنَا
15ـــ وَأَمَّا تِلِمْسَانٌ وَفَاسٌ وَسَبْتَةٌ   فَتِلْكَ لِيُمْنَاهُ أَعِنَّتُهَا تُثْنَى

وواصل الشّاعر التّأكيد على هذه النّقطة في قصائده المدحيّة ، بعد أن تولّى الخلافة السّعيد الموحّدي . وهو يرى أن هذا الخليفة بعيد كلّ البعد عن الإيمان باللّه سواء أكان ذلك حسب العقيدة النّصرانيّة أو العقيدة الإسلاميّة . قال ابن الأبّار يهجو السّعيد ملقّبا إيّاه بالغراب لأنّه كان أسود اللّون [**البسيط**](220) :

5ـــ مُسْتَبْصِرًا فِي عَمًى أَبْلَى الأَذَانَ أَذًى   مِمَّا اسْتَجَدَّ نَوَاقِيسًا وَصُلْبَانَا
8ـــ لَمْ يَثْنِ غَيًّا إِلَى رُشْدٍ أَعِنَّتَهُ   لاَ بَلْ تَعَلَّقَ أَصْنَامًا وَأَوْثَانَا

---

(219) د/ص 296

(220) د/ص 6 ـــ 305

9ـ أذال مِنْ عُلَمَاءِ الوَحْيِ يَجْزنُهم بحبرة(221) الشِّرك أحبارًا ورهبانا
10ـ إذا هُمُ هَيْنَمُوا(222) أصغى لهم طربًا بخال ذلك أوتارًا وألحانا
11ـ والحال شاهدة أن ليس معتقدًا لحكم الكتابين إنجيلاً وقرآنا
21ـ بعدًا له من غراب قائِدٍ رَخمًا(223) ملء الملا تعد الذبان غذوانا

والسّعيد عند ابن الأبّار بقسوته وسوء معاملته لرعيّته قد قَبُح خلقًا وخُلقًا كما قبح سلوكا وسياسة عندما واصل الاستعانة بالنّصارى ، قال الشّاعر [البسيط](224):

15ـ أفاض رَخمته(225) فالفضّ مَعْشَرها(226) إليه من حَوْل فظّ القلب(227) قاسيه
19ـ بالرّوم رام انتصارًا في مذاهبه أليس قد رآه من تعاميه

ويربط الشّاعر ثانية وهو يمدح أبا زكريا بين سواد لون السّعيد وسوء سياسته بتعاونه مع الحامية القشتالية، ويقارن بينه وبين كبار المرتدّين بعد انتقال الرّسول إلى الرّفيق الأعلى . قال [الطّويل](228):

14ـ وإنّ عدوّ الدّين مَنْ ظاهر العدى ليخذله فاستنصر الشّرك واستقصى
15ـ بعبّاد عيسى هاض أمّة أحمد لأشيائها بخسًا وأعيُنِها بخصا
17ـ ذرى الأسود القيسيّ(229) أنّ أمامه وذى الأسود العنسيّ(230) مُشبهه خرصا

(221) الحبرة : ملاءة الرّهبان .

(222) الإشارة إلى ترانيم الرّهبان .

(223) الرخم ج رخمة : طائر على شكل النسر خِلقةً مبقّع بسواد وبياض معروف بالغدر والحمق .

(224) د/ص 412

(225) الضمير يعود على أبي زكريا .

(226) الضمير يعود على الخلافة .

(227) فظّ القلب : السّعيد .

(228) د/ص 339

(229) الأسود القيسي : السّعيد .

(230) الأسود العنسيّ : من زعماء المرتدّين بعد وفاة النّبيء .

والسّعيد بجيشه الوفير وحلفائه النّصارى سوف لن يكون مصيره إلاّ كمصير غيره من الخائنين المغرورين . والحفصيّون تعوّدوا مواجهة الكثرة بالقلّة وانتصروا ، شأنهم في ذلك شأن المسلمين الأوائل . قال ابن الأبّار [البسيط](231) :

41ـــ أعْيَا الْمُنَاصِبَ تَقْوِيمُ بِقُرْبَتِهِ ... مِنْ فَوْزِهِ فَاغْتَدَى يَنْأَى وَيَنْآدُ

42ـــ وَالرُّومُ نَازَعَ أَمْرَ اللّهِ يَا عَجَبًا! ... مَتَى تُوَازَنُ إِغْوَاءٌ وَإِرْشَادُ ؟

43ـــ هَيْهَاتَ يَخْلُصُ وَالأَقْدَارُ قَدْ وَضَعَتْ ... مِنْهَا لَهَا رُقُبٌ كُثْرٌ وَأَرْصَادُ

44ـــ كَمْ عَائِدٍ مِثْلِهِ لَمْ يَحْمِهِ وَزَرٌ ... كَانَتْ لَهُ عُدَدٌ خَانَتْ وَأَعْدَادُ

45ـــ لاَ تُعْجِبِ الْخَائِنَ الْمَغْرُورَ كَثْرَتُهُ ... فَطَالَمَا هَزَمَ الآلاَفَ آحَادُ

46ـــ أَبْنَاءُ صِيَابَةٍ حَفْصِيَّةٍ كَرُمُوا ... أُرُومَةً وَبَنُو الأَمْجَادِ أَمْجَادُ

إنّ ابن الأبّار في حديثه عن الموحّدين بصفة عامة والسّعيد بصفة خاصّة ، إنّما يعبّر عن وجهة نظر أبي زكريا فيه . فالسّعيد مثّل ، بشخصيّته القويّة ومحاولة استرجاع هيبة الخلافة ، آخر محاولة للنّهوض بالدّولة الموحّديّة من كبوتها ، وبالتّالي جسّم أكبر خطر على الدّولة الحفصيّة . لهذا لمّا قتل وهو يحاصر يغمراسن أمير تلمسان في قلعة تامزجدرت آخر صفر 646/1248 نزل الخبر بمقتله على نفوس الحفصيّين بلسما شافيا ، ووجد ابن الأبّار المجال فسيحا للتشفّي من خليفة كثيرا ما هجاه وسخر منه . قال متحدّثا عن حملة السّعيد على تلمسان وما آل به الأمر على أبواب القلعة الحصينة [البسيط](232) :

27ـــ حَتَّى إِذَا الْعَطَبُ اسْتَخْبَى سَلاَمَتَهُ ... أَفَاءَهُ يَبْتَغِي بَغْيًا بِتِلِمْسَانَا

28ـــ وَكَانَ مِنْ قِيلِهِ (هِيَ التُّرَاثُ لَهُ) ... مَا بَالُهُ جَهِلَ التَّصْحِيفَ لاَ كَانَا(233)

29ـــ ظَمْآنُ رَاحَ لأُفْقِ الشَّرْقِ مُلْتَهِمًا ... لَكِنْ غَدَا بِنَجِيعِ الْجَوْفِ رَيَّانَا

31ـــ بِرَمْجَدَةَ أَظْهَرَ التَّرْجُدُ الْحِمَامَ عَلَى ... حَيَاتِهِ فَنَضَاهَا عَنْهُ غَضْبَانَا

32ـــ وَاسْتَقْبَلَ الْقَلْعَةَ الشَّمَّاءَ فَاقْتَلَعَتْ ... رُوحًا لَهُ . خَبُثَتْ رُوحًا وَجُثْمَانَا

---

(231) د/ص 141 .

(232) د/ص 307

(233) عبارة (هي التراث له) إذا صحّفت أصبحت : هي التراب له أي القبر .

وأشار الشّاعر إلى الكمين الذي نصبه الزّناتيون أتباع يغمراسن للسّعيد ، فكان من نتيجته أن سقط الخليفة من فوق فرسه وأُجهز عليه مع وزيره ابن عطوش ، وانتهبت محلّته وتفرّق عسكره . قال ابن الأبّار [البسيط](234) :

34ــ حَتَّى الْجَوَادُ الَّذِي قَدْ كَانَ يَعْصِمُهُ   أَرْدَاهُ يَقْعِيمُــــــهُ نِــــقْعًا وإِهْوانـــــا

40ــ وَالْفَلُّ مِنْ بَيْتِهِ أَوْدَى الْبَيَاتُ بِهِـمْ   عَلَــى يَــدَيْ أَبِـدٍ كَالْـعَضْبِ يَفْضَانـــا

وسقط بعض حرم السّعيد في الأسر كأخته تاغروش(235) . قال الشّاعر [البسيط](236) :

56ــ هَـذِي بَنَـاتُ أَبِيـهِ فِـي ظَعَائِنِـهِ   يُبْدِيـنَ لِلسَّــبْيِ إِجْهَــاشًا وَإِذْعَانـــا

وافتكّ منه الزّناتيّون مصحف عثمان ، وهو المصحف الذي كان الخلفاء الموحدون يضعونه في مقدّمة موكبهم . وتذكر بعض المصادر(237) أنّ الزّناتيين ، وقد أصبحوا حلفاء لأبي زكريّا ، سلّموه إليه باعتباره أولى به من الخليفة الموحدي . قال ابن الأبّار [البسيط](238) :

58ــ إِنَّ الإِمَامَ ابنَ فَارُوقِ الْهُدَى عُمَرٍ   أَوْلَى بِمُصْحَفِ ذِي النُّورَيْنِ عُثْمَانَا(239)

وهكذا استطاع أبو زكريا بأحلافه من بني عبد الواد في المغرب الأوسط وبني مرين في المغرب الأقصى ، أن يحدّ من غلواء الموحّدين في مرحلة أولى وأن يقضي على آخر أمل لهم في استرجاع مجدهم . وفي نظر الشّاعر انتصار هؤلاء على الموحّدين

---

(234) د/ص 8 ــ 307 .

(235) د/ص 309.

(236) د/ص 309

(237) د/ص 309.

(238) د/ص 309 .

(239) ذكر المقري في النفح : 605/1 أنّ هذا المصحف كان موجودا في مقدّمة موكب الخليفة الموحّدي الواثق سنة 1267/666 .

هو نصر من الله تأتي بطاعة أبي زكريا يحيى الحفصي [البسيط][240] :

45ـ تُجْرُمُو[241] بِابْنِ عَبْدِ الْحَقِّ[242] واصْطُلِمُوا ... وَقَبْلَهَا مَا اسْتُبِيحُوا بِابْنِ زَيَّانَا[243]
46ـ أَعَاجِمٌ أَلْسُنًا لَكِنْ مَنَاسِبُهُمْ ... تُنْمَى إِلَى الْعُرْبِ الْعَرْبَاءِ قَحْطَانَا
47ـ مُتُونُ خَيْلِهِمُ أَوْطَانُهُمْ وَكَفَى ... عِزًّا يُسَاوِي مُتُونَ الْخَيْلِ أَوْطَانَا
48ـ نَادَوْا بِطَاعَةِ يَحْيَى فَاسْتَجَابَ لَهُمْ ... نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ إِسْرَارًا وَإِعْلاَنَا

وبدأت الوفود تتهافت على عاصمة الحفصيّين تدعو العاهل الحفصي لاستكمال المرحلة الأخيرة من فتوحاته ، وهي الاستيلاء على عاصمة الموحّدين مرّاكش والقضاء على دولتهم قضاء مبرما . قال ابن الأبّار [الطويل][244] .

1ـ هَنِيئًا لِوَفْدِ الْغُرْبِ مِنْ صَفْوَةِ الْعُرْبِ ... قُدُومٌ عَلَى الرُّغْبِ الْمُجِيرِ مِنَ الرُّعْبِ
3ـ أَلَمْ تَرَهُمْ أَفْضَوْا إِلَى فَائِضِ النَّدَى ... فَلَقَّاهُمُ بِالنَّائِلِ الرَّحْبِ وَالرُّحْبِ
4ـ وَقَلَّدَهُمْ لَمَّا كَسَاهُمْ فَلاَ تَرَى ... سِوَى الْعَضْبِ جَلاَّهُ النُّضَارُ عَلَى الْعَصْبِ

10 ـ الدّولة الحفصيّة :

لقد وصل ابن الأبّار إلى إفريقيّة في بداية عهد الدّولة الحفصيّة . ولا شكّ أن هذه الدّولة في هذه الفترة أي في الرّبع الثّاني من القرن 7/13 في حاجة أكيدة إلى من يشدّ أزرها سواء أكان ذلك بالسّيف أم بالقلم . وسوف لن تجد خيرا من شاعر قدير كابن الأبّار لينافح عن مبادئها ويمجّد أمراءها ويَنوّه بشأنها ويحقّر من أعدائها لتثبيت أسسها وتدعيم أركانها . ولهذا السّبب فسح الأمير أبو زكريا لشاعر بلنسيّة المجال للمجيء والاستقرار بتونس حاضرة الدّولة بعد ضياع وطنه ومسقط رأسه بالأندلس .

ونظرا إلى الظروف التي كانت تمرّ بها العدوة الإفريقيّة بعد انهيار صرح الأمبراطورية الموحّديّة كانت الدّعوة الحفصيّة في حاجة ماسّة إلى تبرير شرعيّتها في وراثة الدّولة

(240) د/ص 308

(241) أي الموحّدون .

(242) ابن عبد الحقّ : بنو مرين .

(243) بنو زيّان : بنو عبد الواد .

(244) د/ص 83 .

الموحّدية . وقد فهم ابن الأبّار ما تحتاجه هذه الدّولة الفتيّة من تبرير ، فرأى أنّ بني حفص هم أحقّ بوراثة دعوة المهدي بن تومرت ودولة عبد المؤمن . فهذه العائلة لها مجد طريف وتليد ، فهي تنتمي في نسبها إلى عمر بن الخطّاب ونعم النّسب والأصل ، قال الشّاعر [الكامل] (245) :

18 ـ هِيَ دَوْلَةٌ عُمَرِيَّةٌ سِيَرًا   خَضَعَتْ لِعِزَّةِ أَمْرِهَا الدُّوَلُ

وهي لم ترث النّسب والأصل من عمر بن الخطّاب بل ورثت أيضا أشهر خصلة عرف بها الخليفة الثّاني وهي الاستقامة والعدل وتطبيق أحكام الشّريعة السّمحاء . قال ابن الأبّار [الطويل] (246) :

33 ـ قَضَى لأَمْرِ اللهِ أَنْ شُدَّ أَزْرُهُ   بِآلِ أَبِي حَفْصٍ أُلِي النَّهْيِ وَالأَمْرِ
38 ـ وَمَا هِيَ إِلاَّ دَوْلَةٌ عُمَرِيَّةٌ   يَدُومُ بِهَا الإِقْبَالُ مُنْفَسِحَ العُمْرِ

وهذا المجد الأثيل لم ينقطع بل استمرّ إلى أن تجسّم في شخص جدّ الحفصيّين وهو أبو حفص عمر أحد أصحاب المهدي بن تومرت الذين قامت الدّولة الموحّدية على أكتافهم . وهكذا جمعت هذه العائلة بين نقاوة الدّم العربي قديما ، وخلاصة مآثرهم حديثا. قال ابن الأبّار(247) [المتدارك](248) :

68 ـ لاَ ضَيْرَ بِهِمْ وَتَنَصُّرُهُ   تُنْمَى مَعَدًّا وَتَمَعْدُدُهُ (249)
70 ـ عَدَوِيُّ (250) البَيْتِ مُطَنَّبُهُ   فَوْقَ الأَفْلاَكِ مُمَدَّدُهُ
71 ـ وَرِثَ العُمَرَيْنِ (251) سَنَاءَهُمَا   يَعْتَدُّ بِهِ وَيُعَدِّدُهُ
72 ـ عَنْ عَبْدِ الوَاحِدِ أَحْرَزَهُ   قَدُّ التَّوْحِيدِ وَأَوْحَدُهُ

(245) د/ص 241 .

(246) د/ص 192 .

(247) مطلع القصيدة ص 154 من الدّيوان :
1 ـ تَرَقْرَقُ وَجْهُ الخَدِّ مُوَرَّدُهُ   يَكْسُونِي اللُّثْمَ مُجَرَّدُهُ

(248) د/ص 158 .

(249) أي ينتسب الممدوح وهو أبو زكريا إلى مُضر ومَعَدّ .

(250) نسبة إلى عدي جدّ عمر بن الخطاب (انظر كذلك : الدّيوان ص 160 بيت 25).

(251) العُمَرين : عمر بن الخطاب وأبو حفص عمر الهنتاتي .

وهذه الخصال ورثها الوالد عن الجدّ وأورثها الابن. قال الشاعر [المتدارك][252] :

4 ــ عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ أَحْرَزَهَا   يَحْبِي لِلنَّحْلِ ابْنٌ وَأَبُ
5 ــ فِي جُمْجُمَةٍ عُلْيَا وَرَحَى   عُمَرُ الْفَارُوقُ لَهَا قُطُبُ

ومن النّاحية المذهبيّة العقائديّة تمسّكت هذه العائلة بدعوة المهدي بن تومرت ولم تتنكّر لها كما فعل المأمون الموحّدي . قال الشاعر [الكامل][253] :

35 ــ وَإِيَالَةٌ مَهْدِيَّةٌ عُمَرِيَّةٌ   أَوْدَى بِدَعْوَتِهَا الضَّلاَلُ وَطَاحَا

وبهذه الخصال وبهذا النّسب الرّفيع شادت هذه العائلة ملكا يفوق ما شادته عائلات أخرى، لها في التّاريخ ذكر وصيت ، وتمكّنت من تطهير البلاد من أصحاب الفتن والشّغب . قال الشاعر [الكامل][254] :

32 ــ أَبَنِي أَبِي حَفْصٍ دَهَيْتُمْ بِالْعُلَى   وَأَفَدْتِ الدُّنْيَا بِكُمْ إِفْذَاذَا
33 ــ وَتَعَاصَمَتْ عِيدَانُكُمْ أَنْ تُعْتَزَى   فِي آلِ بَرْمَكَ أَوْ بَنِي بَزْدَاذَا
34 ــ شِدْتُمْ بِإِفْرِيقِيَّةٍ مُلْكًا غَفَا   لَمَّا اصْطَفَتْكُمْ مَلْجَأً وَمَعَاذَا
35 ــ وَطَرَدْتُمُ عَنْ جَانِبَيْهَا كُلَّ ذِي   دَعْوَى تُهَاذِي بَيْنَهَا وَتُهَاذَى[255]

وهكذا صفا الجوّ لدولتهم وساد الأمن والرّخاء وتطلعت النّفوس لتحقيق ما تطمح إليه وترجو بل وتتمنّى . قال ابن الأبار [الرمل][256] :

25 ــ إِنَّمَا آلُ أَبِي حَفْصٍ هُدًى   يَكْشِفُ الْغَيَّ وَيَجْلُو السُّرَرَا
26 ــ قَدْ أَفَاءَ بِهِمُ ظِلُّ الْمُنَى   وَصَفَا مِنْ شُرْبِهَا مَا كَدَرَا
27 ــ تَجِدُ النَّاسُ عُلاَهُمْ سُنَنًا   وَتَلاَ الدَّهْرُ حُلاَهُمْ سُوَرَا

---

(252) د/ص 92 .

(253) د/ص 115 .

(254) د/ص 183ــ184 .

(255) المقصود ابن غانية .

(256) د/ص 186 .

واتّخذت هذه الدّولة شِعَارا لها الرّاية الحمراء رمزا لدماء أعدائها ومناوئيها . قال الشاعر [الطويل] (257) :

45 ــ بِرَايَتِــهِ الْحَمْــرَاءِ يَصْطَلِـمُ الْعِـدَى   لِمِلَّتِــهِ الْبَــيْضَاءِ غَضْبَــانَ مُقْــتَصَا

11 ــ العائلة الحفصيّة :

لا نجد في ديوان ابن الأبّار ذكرا ــ من الأسرة الحفصيّة الكبرى ــ إلّا لعائلة أبي زكرياء يحيى الأوّل مؤسّس الدّولة الحفصيّة ، فقد تردّد ذكر هذا الأمير وذكر ابنيه أبي يحيى زكريا وأبي عبد الله محمد .

المولى أبو زكرياء الحفصي

أ ــ ألقابـه :

عندما تمكّن أبو زكرياء من القضاء على ثورة ابن غانية واستقلّ بإفريقيّة متحديّا بذلك السّلطة الموحّديّة بمراكش ، رأى ألّا يحيط نفسه بمظاهر الأبّهة والعظمة . وهذا دليل على حصافة رأيه وبعد نظره فاكتفى باسم (أمير) ورفض أن يخاطب بأمير المؤمنين (258) في سنة 634/7ـ1236 . وفي ديوان ابن الأبّار نجد كلمة (خليفة) تتردّد بكثرة نعتا لأبي زكريّا من ذلك قول الشّاعر [الكامل] (259) :

31ــ وَخَلِيفَــةٌ فِــي الأَرْضِ لَكِــنْ بَيْتُــهُ   فَوْقَ السَّمَاءِ ، يُمَــدُّ فِــي تَطْنِيبِــهِ

كما نجد لقب (المرتضى) كما جاء في قول الشّاعر [الكامل] (260) :

24ــ فَــبِمَا يَحْيَى الْمُرْتَضَى لَقَدِ انْتَضَى   مِنْ بَأْسِهِ مِثْلَ الصِّفَــاحِ صِفَاحَــا

(257) د/ص 342 .

(258) الأدلّة البيّنة ، ص 48 .

(259) د/ص 79 .

(260) د/ص 117 .

كما يدعوه بأمير المؤمنين بعد فتح تلمسان ، وتهاطل بيعة مدن العدوتين الإفريقيّة والأندلسيّة عليه . قال [السّريع] (261) :

2ــ أنْتَ أَمِيـرُ الْمُؤْمِنِيـنَ الَّـذِي   دَوْلَتُـهُ يُمْـنٌ عَلَـى الْمُؤْمِنِيـنَ

كما نجد ابن الأبّار يسمّي أبا زكرياء (ملك المغرب) تفاؤلا وتبشيرا بامتلاكه لكامل أرض المغرب . قال ابن الأبّار بمناسبة حفلة سيرك شاهدها في ملعب تونس في أواخر شعبان سنة 1238/636 بعد أن وصف الحيوانات المفترسة [**المتقارب**] (262) :

34ــ غَـرَائِبُ شَتَّـى بَهَـرْنَ الْعُقُـولَ   جُمِعْـنَ لَـدَى مَـلِكِ الْمَغْـرِبِ
36ــ إِمَـامُ هُـدًى نُـورُهُ ثَـاقِبٌ   وَزُهْـرُ الْكَـوَاكِبِ لَـمْ تَثْـقُبِ
37ــ عَلَـى مَـذْهَبٍ لِلإِمَـامِ الـرِّضَى   تَقَبَّلَـهُ ، وَعَلَـى مَشْعَـبِ
38ــ يُهِـيبُ لِدَعْوَتِـهِ بِالأَنَـامِ   فَيُـرْضِي الإِلَـهَ وَيُـرْضِي النَّبِـي

ب ــ عائلتــه :

ــ أبوه وجدّه :

لئن كان الفضل في قيام الدّولة الحفصيّة يرجع بالدّرجة الأولى إلى الأمير أبي زكرياء ، فقد مهّد له الأرضية الصّالحة لذلك أبوه أبو محمد عبد الواحد ، وجدّه أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي أحد أصحاب المهدي . ولهذا نجد ابن الأبّار كثيرا ما نوّه بشأنهما أثناء تمجيده بصفة عامّة للعائلة الحفصيّة ، وبصفة خاصّة عند مدحه لأبي زكرياء . قال ابن الأبّار يذكر ثلاثتهم [**البسيط**] (263) :

21ــ وَإِنَّ يَحْيَى بْنَ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي   حَفْصٍ لأَنْوَرُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نَسَبَا
22ــ ثَلاَثَةٌ هُمْ نُجُومُ الأَرْضِ قَدْ عَثَرُوا   وَعَاشَرُوا فِي السَّمَاءِ السَّبْعَةَ الشُّهُبَا

---

(261) د/ص 300 .

(262) د/ص 101 .

(263) د/ص 74 .

ويرى ابن الأبّار أنّ السّلطة التي ورثها أبو زكرياء عن أبيه هي حقّ من حقوقه وله أن يورثها أبناءه بعده حقّا شرعيّا لا مُرَاءَ فِيه . قال [المتدارك] (264) :

4ـ عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ أَحْرَزَهَا يَحْيَى لِلنَّجْلِ ، ابْنٌ وَأَبْ
5ـ فِي جُمْجُمَةٍ (265) عُلْيَا وَرَحَى عُمَرُ الْفَارُوقُ لَهَا قُطُبْ

ـ أبناؤه :

وأبناء المولى أبي زكرياء جديرون بهذا الإرث وهذا التتويج فهم كالنّجوم مع البدر ، نورًا ورفعة . قال الشاعر [البسيط] (266) :

66ـ يَلْتَاحُ بَدْرًا أَبُو يَحْيَى الأَمِيرُ وَهُمْ إِزَاءَهُ كَالنُّجُومِ الزُّهْرِ أَمْثَالُ
67ـ قَدْ رُتِّبُوا فِي نِظَامِ الْمُلْكِ أَرْبَعَةً كَمَا يُرَتَّبُ نَظْمَ الْعِقْدِ لَأْآلُ

ولا يكتفي ابن الأبّار بالتّعميم بل نراه يذكرهم بأسمائهم واحدا واحدا . قال [الطويل] (267) :

66ـ وَأَطْلَعَ مِنْ أَبْنَائِهِ زُهْرَ أَنْجُمٍ يُنَافِسُ فِي أَنْوَارِهَا الْمَغْرِبُ الشَّرْقَا
67ـ تَلاَ زَكَرِيَّاءَ الأَمِيرُ مُحَمَّدٌ وَبَرَّزَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَهُمَا سَبْقَا
68ـ وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ أَخِيرًا بِأَوَّلٍ مِنَ الْفَضْلِ يَسْتَوْلِي عَلَى شَأْوِهِمْ لَحْقَا

ولا يترك الشاعر فرصة تمرّ دون تهنئة الأمير بوليده الخامس عثمان الذي تزامن مولده مع عيد الأضحى . قال [مخلّع البسيط] (268) :

38ـ للهِ مَنْ نَجْلُهُ الْمُفَدَّى نَجْمٌ يَزِينُ الزَّمَانَ حُسْنَا
40ـ سَمَّاهُ عُثْمَانَ إِذْ نَمَاهُ يَسْلُبُ نَعْتَ السَّمَاحِ مَعْنَى

---

(264) د/ص 92 .

(265) الجمجمة : رؤساء القوم وساداتهم .

(266) د/ص 248 .

(267) د/ص 385 .

(268) د/ص 4ـ303 .

42ــ جَاذَ بِهِ خَامِسُ الدَّرَارِي دَفْــرٌ لِسِوَى بُرْهَــةٍ وَضَنّـا
44ــ مَوْلاَيَ هُنّئْتَ عِيدَ أَضْحَى أَضْحَى بِمِيـلاَدِهِ يُهَنَّا

ج ــ حياته الخاصّة :

إنّ ما توردَه كتب التّاريخ من تقشّف أبي زكرياء في مأكله وملبسه ومركوبه يمكن أن يكون من المبالغات التي وجب ترويجها في تلك الفترة لتدعيم أركان الدّولة الجديدة ، حتّى أنها كادت أن تجعل من أبي زكرياء صورة طبق الأصل لجدّه ــ كما زعموا ــ عمر بن الخطّاب . والشّعر قد يفتح لنا بعض الأبواب الموصدة فنرى صاحب السّلطة على حقيقته . فابن الأبّار قد عاش مدّة ــ طالت أو قصرت ــ في رحاب بلاط أبي زكرياء فوصف في ديوانه بعض مجالس الأنس التي كانت تقام في منتزهات الحفصيّين بأبي فهر في ضواحي عاصمتهم . وكان الأمير يستدعي من رجال دولته من يراه جديرا بهذه الجلسات الخاصّة . قال ابن الأبّار في مجلس أنس بأبي فهر عقدت فيه مأدبة في عهد أبي زكرياء [مجزوء الوافر] (269) :

51ــ وَيَـوْمٍ فِـي (أَبِـي فِهْـرٍ) يُـؤَرِّخُ فَخْـرَهُ الأَبَـدُ
52ــ تُغَـذّى الـرُّوحُ وَالرَّيْحَـا نُ مِنْـهُ الـرُّوحُ وَالْـجَسَدُ
53ــ أَفَانِيـنٌ مِـنَ التَّغْنَـى إِذَا مَـا أُصْدِرَتْ تَـرِدُ
54ــ وَجَنَّـاتٌ مُزَخْرَفَـةٌ يَشُوقُ حَمَامُهَـا الْغَـرِدُ

ومن هذه الجزئيات التي يهتمّ بها شعراء البلاط مرض الأمير وشفاؤه . فابن الأبّار يذكر مرض أبي زكرياء وشفاؤه في ثلاث قصائد مدحيّة : نرجّح أنّه قال الأولى منها وهو في تونس في فترة كانت علاقته بالأمير علاقة عادية . وقد اغتنم مناسبة شفاء الأمير ويوم عيد أضحى ليهنئه بالمناسبتين . قال [الكامل] (270) :

38 ــ إِنْ كَانَتِ الأَيَّامُ بُهْمًا قَبْلَهُ فَلَقَدْ مَا كُسِيَتْ بِهِ إِفْصَاحَا
39 ــ أَوْ لُحْنَ مَرْضَى لاَ شِفَاءَ لِسُقْمِهَا فَالآنَ لَمَّا صَحَّ رُحْنَ صِحَاحَا
40 ــ للهِ أَضْحَى زَانَهُ بِبَهَائِهِ كَالشَّمْسِ زَانَ شُعَاعُهَا الإِصْبَاحَا

---

(269) د/ص 146 .

(270) د ص 118 .

أمّا الثّانية والثّالثة فيبدو أنّه قالهما في آخر عهد أبي زكرياء وهو مغضوب عليه ببجاية . فقد ذكر في الأولى الأمير محمدا وناداه بوليّ العهد (271) ، فقال [الكامل] (272) :

12 ـ بِشِفَـائِكَ الْمَيْمُـونُ مَطْلَعُـهُ نَـكَصَتْ عَلَـى أَعْقَابِهَـا الْعِلَـلُ

وطلب العفو في الثانية مشيرا إلى بعده عن الممدوح (273) . فقال منوّها بشفاء أبي زكرياء [الوافر] (274) :

1 ـ نُفُـوسُ الْعَالَمِيـنَ لَكَ الْفِـدَاءُ فَكَيْـفَ أَلَـمَّ بُؤْلِـمُكَ اشْتِكَـاءُ
8 ـ فَـإِنْ عُوفِـيتَ عُوفِـيَتِ الْبَرَايَـا وَقَـدْ نَاجَـى مَعَالِمَهَـا الْعَفَـاءُ
11 ـ نَصَا عَـنْكَ الضَّنَـى بُـرْءٌ سَعِيـدٌ كَمَـا رَوَّتْ صَدَى الْأَرْضِ السَّمَـاءُ

د ـ وفاتـه :

ويبدو أنّ هذا المرض الأخير كان سببه الحزن الشّديد الذي ألمّ بأبي زكرياء بعد وفاة وليّ عهده وابنه أبي يحيى . ولم يلبث الخليفة أن توفّي ببونة (275) بعد أن ظنّ النّاس أنّه شفي من مرضه أو كاد . فقال ابن الأبّار [الكامل] (276) :

18 ـ فِي بُونَـةٍ بَـانَتْ حَيَـاةُ الْمُرْتَضَى يَحْيَـى وَقِيـدَ إِلَـى الثَّـرَى بِزِمَـامِ
19 ـ وَهُنَـاكَ خُـطَّ ضَرِيحُـهُ سَقْيًـا لَـهُ هَـلاً (277) بِأَفْئِـدَةٍ عَلَيْـهِ حِيَـامُ

---

(271) تولّى العهد بعد وفاة أخيه أبي يحيى في سنة 7ـ1248/646 (أنظر أيضا د/ص 242 بيت 39 و40).

(272) د/ص 241 .

(273) د/ص 51 بيت 18 .

(274) د/ص 50 .

(275) حسب الأدلّة البيّنة ص 51 توفّي ليلة الجمعة 29 جمادى II 9/647 أكتوبر 1249، في د/ص 262 : 22 جمادى II 1249/647 .

(276) د/ص 263 .

(277) هلّ المطر هلاّ : أمطر بشدّة .

أبو يحيى زكريّاء بن أبي زكرياء يحيى الحفصي

أبو يحيى زكريّاء هذا هو الابن الأكبر لمؤسس الدّولة الحفصيّة أبي زكريّاء يحيى الحفصي . وقد اختاره والده لحكم مدينة بجاية ــ أو النّاصريّة [278] كما يحلو لابن الأبّار تسميتها ــ في سنة 1237/633 بعد رجوعه من حملته الأولى الموفّقة على المغرب الأوسط . ولا نجد صدى لهذا الحدث الكبير في حياة هذا الأمير في شعر ابن الأبّار ، لسبب بسيط هو أنّ الشّاعر في هذه السّنة مازال في وطنه ومسقط رأسه بلنسيّة .

وعلى عكس ذلك نجد في ديوان ابن الأبّار اهتماما بهذا الأمير في ثلاث مناسبات :

ــ **الأولى** : بمناسبة تعيينه وليّا للعهد يوم الخميس 2 رجب 1240/638. وقد نوّه الشّاعر بهذا الحدث خمس مرّات في القصائد رقم 58 ص 133 ورقم 84 ص 181 ورقم 85 ص 185 ورقم 86 ص 190 ورقم 5 من الملحق ص 440 .

إنّ كفاءة الأمير وقدرته وحسن سلوكه وجليل أعماله هو الّذي جعل أباه يعيّنه لولاية العهد . قال ابن الأبّار [**الطويل**] [279] :

30 ــ أمِيرًا حَبَا مِنْهُ أَمِيرًا بِمُلْكِهِ فَأَدْرَكَ ثَأْرَ الدِّينِ فِي الْبَغْيِ وَالْكُفْرِ
31 ــ وَقَلَّدَهُ الْعَهْدَ الإمَامِيَّ رَاضِيًا بِسِيرَتِهِ الْحُسْنَى وَآثَارِهِ الْغُرِّ

والدّولة في حاجة إلى مثل هذه الكفاءة لردع من يناوئها من الأعداء . قال الشّاعر [الكامل] [280] :

29ــ أَمْضَى وَأَنْفَذَ مِنْ وِلاَيَةِ عَهْدِهِ مَا شَرَّفَ الإمْضَاءَ وَالإِنْفَاذَا
30 ــ وَنَضَا لِنَصْرِ الْحَقِّ مِنْهُ مُهَنَّدًا يَسْقِي الْعِدَى صِرْفَ الرَّدَى هَذَاذَا

---

(278) نسبة إلى مؤسسها النّاصر بن حمّاد الصّنهاجي .

(279) د/ص 192 .

(280) د/ص 183 .

وهي بيعة إجماع لم يتخلّف عنها أحد لما يَتَمَتَّع به الأمير أبو يحيى من خصال . قال ابن الأبّار [الرجز] (281) :

6 ــ وَلاَ لَهَا فِي الأَرْضِ مِنْ مُعَانِدِ بَيْعَةُ رِضْوَانٍ وَفَــدْيُ خَالِدِ
7 ــ مَا بَيْنَ مَعْهُودٍ لَهُ وَعَاهِدِ مِيثَاقُهَا حَلُّ عُرَى الْمَكَائِدِ
8 ــ وَعَقْدُهَا جَلَّ عَنِ الْعَقَائِدِ كَانَتْ لَهَا السُّعُودُ بِالْمَرَاصِدِ
20 ــ إِنَّ الْعُلَى مَجْمُوعَةٌ فِي وَاحِدِ مِنْ زَكَرِيَّاءَ الأَمِيرِ الْمَاجِدِ

وهي كذلك بيعة رضوان وبركة على المسلمين فلا غرو أن يشيد بها الشادي وينوّه بها المنوّه . قال الشاعر [الطويل] (282) :

1 ــ أَشَادَ بِهَا الدَّاعِي الْمُهِيبُ إِلَى الرُّشْدِ فَهَبَّ لَهَا أَهْلُ السَّعَادَةِ بِالْخُلْدِ
2 ــ وِلاَيَةُ عَهْدِ الْحَزْ الْحَقُّ وَعْدَهُ بِتَقْلِيدِهَا مِنْ أَهْلِهِ الصَّادِقِ الْوَعْدِ
3 ــ وَبَيْعَةُ رِضْوَانٍ تَبَلَّجَ صُبْحُهَا عَنِ الْقَمَرِ الْوَضَّاحِ فِي أُفُقِ الْمَجْدِ
12 ــ عَلَى زَكَرِيَّا بْنِ يَحْيَى التَّقِي الرِّضَى كَمَا الْتَفَتِ الأَنْدَاءُ صُبْحًا عَلَى وَرْدِ

وهي بيعة لئن جسّمت استمراريّة الدّولة في آل أبي حفص ، فهي تدعّم سنّة عريقة يتمّ بموجبها انتقال السّلطة من الأب إلى الابن . قال ابن الأبّار [الرمل] (283) :

21 ــ حَسْبُهُ (284) ، مَعْلُوَةً ، خِدْمَتُهُ لِلأَمِيرِ بْنِ إِمَامِ الأُمَرَا
22 ــ زَكَرِيَّاءَ بْنِ يَحْيَى الْمُرْتَضَى ابْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ عُمَرَا
23 ــ نَسَبٌ أَبْهَرُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى لَيْسَ مَاءُ الْمُزْنِ مِنْهُ أَطْهَرَا
24 ــ وَأَبٌ يَخْلُفُهُ ابْنٌ فِي الْعُلَى كَالْجَنَى يَعْقُبُ بَعْدُ الزَّهَرَا

ــ الثّانية : بمناسبة زيارته لتونس . وقد أشار الشّاعر إلى هذا الحدث في خمس قصائد : وهي القصيدة رقم 85 ص 185 ورقم 86 ص 190 ورقم 87 ص 193 ورقم 116 ص 225 ورقم 202 ص 425 .

(281) د/ص 4ــ133 .

(282) د/ص 1ــ440 .

(283) د/ص 186 .

(284) الضمير يعود على الشّاعر .

ويبدو أنّ حاضرة تونس استعدّت لقبول أمير بجاية ووليّ العهد ، فبدت في أحلى زينة وكأنّها في يوم عيد . ولهذا تساءل الشّاعر في مطلع قصيدته رقم 86 ص 190 قائلا [الطويل] (285) :

1 ــ أمُبْتَسِمُ الأضْحَى وَمَطْلَعُ الْفِطْرِ ... أمِ الدَّوْلَةُ الغَرَّاءُ وَضَّاحَةُ الْبِشْرِ (286)

ودخوله إلى حاضرة الدّولة يشبه الأبطال العائدين من المعركة مكلّلين بأزاهير الغار . قال الشاعر (287) :

28 ــ تَجَلَّى يَمْلأُ الدُّنْيَا جَلاَلاً ... وَأكْنَافَ السُّهُولَةِ وَالْوُعُورِ
29 ــ فَكَمْ مِنْ أنْفُسٍ لِهُدَاهُ مِيلٌ ... وَكَمْ مِنْ أعْيُنٍ لِسَنَاهُ صُورِ
30 ــ وَجَاشَتْ مِنْ حَوَالَيْهِ جُيُوشٌ ... تَجُلُّ بِحَارُهُنَّ عَنِ الْعُبُورِ
31 ــ وَرَايَاتٌ كَأفْئِدَةِ الأعَادِي ... إذَا خَفَقَتْ وَأجْنِحَةِ الطُّيُورِ

ويرى ابن الأبّار ــ تأكيدا على أواصر المحبّة التي تربط الابن بأبيه ــ أن هذه الزّيارة هي زيارة الشبل لعرين الأسد . قال [الطويل] (288) :

5 ــ ألاَ هُوَ شِبْلُ الْبَأسِ زَارَ هِزَبْرَهُ ... فَقَرَّ قَرَارُ النَّاسِ مِنْهُ عَلَى الزَّأرِ
15 ــ تَنَاصَرَتِ الْبُشْرَى بِيَوْمِ قُدُومِهِ ... عَلَى الحَضْرَةِ العَلْيَاءِ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضْرِ

ويؤكّد الشّاعر على البهجة التي عمرت القلوب بزيارة الأمير أبي يحيى زكرياء إلى تونس ، فوالده قد قرّت عينه برؤية نجله ، والعاصمة بأكملها عمّها السّرور بحلول ركب وليّ العهد بها . قال [الوافر] (289) :

19 ــ هِلاَلاً حَلَّ مَنْزِلَةَ الثُّرَيَّا ... وَقَبَّلَ رَاحَةَ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ
20 ــ وَشِبْلاً يَبْهَرُ الآسَادَ بَأسًا ... ألَمَّ بِغَابَةِ الأسَدِ الْهَصُورِ

---

(285) د/ص 190 .

(286) تعليق المحقّق يدلّ على سوء فهم للبيت .

(287) د/ص 194 .

(288) د/ ص 1ــ190 .

(289) د/ ص 194 .

23 ـ أَمِيرُ الدَّهْرِ يَوْمَ فِيهِ وَافَى ... أَبُو يَحْيَى الأَمِيرُ ابْنُ الأَمِيرِ
24 ـ لِدَارِ المُلْكِ صَارَ وَسَارَ يُمْنًا ... فَأَسْعِدْ بِالْمَصِيرِ وَبِالْمَسِيرِ
27 ـ وَأَكْرَمُ زَائِرٍ نَجْلٌ أَقَرَّتْ ... عُلاَهُ عَيْنَ نَاجِلِهِ الْمَزُورِ

إنّ الزائر هو رجل الدّولة في المستقبل ، ولقد تشبّع بكلّ خصال رجالها من الجدّ الأوّل للعائلة وهو عمر بن الخطاب ، إلى جدّه القريب الشيخ أبي حفص ، إلى أبيه أبي زكرياء يحيى مؤسّس الدّولة . وقد قام هذا الأخير بتدبيج وصيّة له يرى الشاعر أنها مستقاة من مبادىء المهدي بن تومرت (290) فقال [الوافر] (291) :

1 ـ وَلِيُّ الْعَهْدِ أَمْ عَهْدُ الْوَلِيِّ ... أَتَى يُزْرِي الْبَسِيطَةَ كَالأَتِيِّ
13 ـ إِلَى الْفَارُوقِ تَنْمِيهِ السَّجَايَا ... سَمِيُّ أَبِيهِ يَا لَكَ مِنْ سَمِيِّ
14 ـ وَحَسْبُكَ مَا هَدَاهُ مِنَ الْوَصَايَا ... عَنِ الْمَهْدِيِّ مِنْ آلِ الْوَصِيِّ
17 ـ وَلَمْ يَكُ مَنْ أَبُو حَفْصٍ أَبُوهُ ... لِيُلْفَى غَيْرَ شَيْحَانٍ أَبِيِّ

ـ الثالثة : بمناسبة رجوعه من الحضرة تونس إلى بجاية ، وقد رأى الشاعر أنّ الأمير ذهب هلالا مضيئا فعاد بدرا كاملا ، عليه ملامح الشباب جمالا وبهاء ، وله عقل الكهول حكمة وسدادا . قال [الخفيف] (292) :

1 ـ آبَ بَدْرًا وَقَدْ أَلَمَّ هِلاَلاَ ... مَلِكٌ زِيدَ لِلْكَمَالِ كَمَالاَ
2 ـ إِنْ يَكُنْ يَمْلأُ الْعُيُونَ شَبَابًا ... فَلَقَدْ يَبْهَرُ الْحُلُومَ اكْتِهَالاَ

أبو عبد الله محمد المستنصر

جاء ذكر أبي عبد الله محمد المستنصر الابن الثّاني لأبي زكرياء في 6 مناسبات في القصيدة رقم 42 ص 103 ورقم 70 ص 167 ورقم 69 ص 166 ورقم 68 ص 162 ورقم 120 ص 262 ورقم 22 من الملحق ص 541 ورقم 132 ص 290 .

---

(290) من مبادىء السياسة الحفصيّة التأكيد على تمسّكها بالمذهب الموحّدي وبمبادىء المهديّ، وذلك ردّا على ما فعله المأمون المُوَحّدي في مرّاكش من تنكّر لمذهب الدّولة الرّسمي .

(291) د/ ص 6ـ425 .

(292) د/ ص 254 .

الأولى : قالها الشاعر لمّا توفّي أخوه الأمير أبو يحيى زكرياء حاكم بجاية وولي العهد ، فقد اختاره أبوه أبو زكرياء يحيى أوّلا ليعوّض أخاه على رأس ولاية بجاية المدينة الثانية في المملكة الحفصيّة وكان ذلك سنة 1248/646 . فقال ابن الأبّار منوّها بهذا الاختيار [**الكامل**] (293) :

16 ـ هٰذِي بِجَايَةُ قَدْ سَدَدْتَ ثُغُورَهَا   بِمُبَارَكٍ يُمْضِي الأُمُورَ مُسَدَّدَا

ويغتنم الشّاعر هذه الفرصة ليطلب من المولى أبي زكرياء تكريم أبي عبد الله محمّد بولاية العهد ، وهو ما يرغب فيه أبو زكرياء نفسه . قال (294) :

22 ـ وَاعْقِدْ لِمَوْلاَيَ الأَمِيرِ مُحَمَّدٍ   عَهْدًا بِهِ تُرْضِي النَّبِيَّ مُحَمَّدَا
20 ـ هُوَ زَانَ إِخْوَتَهُ وَهُمْ زَانُوا الْهُدَى   فَكَأَنَّهُ بَيْتُ الْقَصِيدِ مُجَوَّدَا
21 ـ وُسْطَى قِلاَدَتِهِمْ وَزَهْرَةُ رَوْضِهِمْ   وَأَحَقُّ مَنْ حُبِيَ الْجَسِيمَ وَقُلِّدَا (295)

ـ **الثانية** : قيلت بمناسبة تعيين هذا الأمير في نفس السّنة التي توفي فيها أخوه يحيى ، وليّا للعهد . فنوّه ابن الأبّار بهذا الحدث ورأى أنّ أبا زكرياء أحسن الاختيار عندما عيّن ابنه محمّدا لهذا المنصب الخطير . فقال [**الطويل**] (296) :

1 ـ تَخَيَّرْتَ مُخْتَارَ الْخَلِيفَةِ لِلْعَهْدِ   فَرَوَّيْتَ أَمْحَالَ الْبَسِيطَةِ كَالْعِهْدِ (297)
6 ـ وَفِي رَجَبٍ مَا هُنِّئُوا بِانْعِقَادِهَا   لِيَهْنِئَهَا فَرْدُ الشُّهُورِ إِلَى فَرْدِ
29 ـ هَنِيئًا لِيَحْيَى أَنَّهُ بِمُحَمَّدٍ   تُرَجِّي أَوَاخِيُّ الْخِلاَفَةِ بِالشَّدِّ
31 ـ إِمَامٌ أَرَانَا مِنْ إِمَامَةِ نَجْلِهِ   مَثِيبَةَ مُسْتَعْصٍ وَمُنْيَةَ مُسْتَعْدِ

وفي الدّيوان ذكر المحقّق ـ اعتمادا على المصادر التّاريخيّة ـ تاريخين لولاية العهد هما رجب 646 (د/ص 162) و12 ذي الحجّة 646 (د/ص 166) . وفي إحدى

---

(293) د/ص 168 .

(294) د/ص 168 .

(295) هذه القصيدة أصاب التّلف بعض أبياتها كما أشار محقّق الدّيوان ، ويغلب على الظنّ أنّ ما بقي منها من أبيات وصل إلينا مشوّشا فحاولنا إعادة ترتيب الأبيات المستشهد بها .

(296) د/ص 162 و164 .

(297) العِهْدُ : مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوّله .

القصائد نجد أنّها تمّت في أوّل عام جديد أي في شهر محرّم ولن يكون هذا العام إلّا سنة 1249/647 . قال ابن الأبّار [الرّجز] [298] :

11 ــ يَا بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ أَوْ يَا أُخْتَهَا ... هُنِّئْتِ فَخْرًا ، عُمْرُهُ لَنْ يَنْفُدَا
12 ــ أَهْدَى بِكَ الْعَامُ الْجَدِيدُ أَمَلاً ... يَسْنَ يَدَيْهِ لِلْهُدَى مُجَدَّدَا

وهو بذلك لم يترك المسلمين نهب الضّياع بعده ، فضمن لهم بتعيين وليّ عهد جديد الاستمراريّة في كنف الأمن والطّمأنينة . قال [رجز] [299] :

1 ــ إِنَّ إِمَامَ الْحَقِّ لاَ يَسْأَمُ أَنْ ... يُصْدِرَ عَنْ حَقِيقَةٍ وَيُورِدَا
2 ــ قَلَّدَهَا عَنِ اجْتِهَادٍ أَهْلَهَا ... يَا مَنْ رَأَى مُجْتَهِدًا مُقَلِّدَا
4 ــ خِلاَفَةٌ لَوْ غَيْرُ يَحْيَى الْمُرْتَضَى ... بِعِبْئِهَا رَامَ قِيَامًا قَعَدَا
6 ــ وَلَمْ يَدَعْ أُمَّةَ أَحْمَدٍ سُدًى ... حَيْثُ ارْتَضَى لِعَهْدِهَا مُحَمَّدَا

وولّي العهد المعيّن يستحقّ هذا المنصب لما حباه الله من خصال موروثة ومكتسبة [الطويل] [300] :

41 ــ خِلاَفَةُ يَحْيَى زَانَ عَهْدُ مُحَمَّدٍ ... وَلاَ شَكَّ أَنَّ الزَّنْدَ يَزْدَانُ بِالْقُلْبِ [301]
42 ــ هُمَا الْقَمَرَانِ النَّيِّرَانِ وَإِنَّمَا ... مَدَارُهُمَا لِلْمَعْلُوَاتِ عَلَى قُطْبِ
43 ــ أَمَا وَوَلِيُّ الْعَهْدِ أَزْكَى أَلِيَّةً ... لَقَدْ أَحْرَزَ الْعَلْيَا بِالإِرْثِ وَالْكَسْبِ

ــ **الثّالثة** : قالها الشّاعر بمناسبة إعذار بعض أبنائه . وكان ذلك ما بين نهاية 1249/646 وبداية 1249/647 عندما كان أبو عبد الله وليّا لعهد أبيه . وهذا من باب التّرجيح لا اليقين لأنّ الشّاعر لا يذكر اسم الممدوح وإنّما يكتفي بقوله (وليّ

(298) د/ص 166 .

(299) د/ص 166 .

(300) د/ص 86 .

(301) القُلْب : السّوار .

العهد) . وهذا يمكن أن ينطبق على أبي عبد الله ويمكن أن يتطبق على أبي يحيى أخيه الأكبر . قال الشاعر [البسيط] (302) :

18 ـ يَا شِدَّةَ الْبَأْسِ إِنْ يُمْسِتْ فِيكَ فَقَدْ   أَضْحَى رَجَاءُ وَلِيِّ الْعَهْدِ لِي فَرَجَا
30 ـ هَادٍ لِقَصْدِ أَبِيهِ الْمُرْتَضَى عَلَمًا   لِجَبْرِ مَا انْهَاضَ أَوْ إِصْلاَحِ مَا مَرِجَا
31 ـ لله مَشْرُوعُ آثَارٍ تَقَبَّلَهَا   هُدَاهُ فَاعْتَدَّهَا أَهْلُ الْهُدَى حُجَجَا
32 ـ مُطَهَّرًا مِنْ بَنِيهِ كُلُّ مَنْ طَهُرَتْ   أَعْرَاقُهُ ، وَتَرَقَّتْ فِي الْعُلَى دَرَجَا

ـ **الرّابعة** : قالها في موت أبي زكرياء : يبدو أنّ المولى أبا زكرياء تأثّر لوفاة ابنه أبي يحيى فمرض وتوفّي بعد ابنه بأشهر قلائل بمدينة بونة في جمادى II 647/أكتوبر 1249 (303) . فاغتنم ابن الأبّار هذه الفرصة ليتقرّب إلى الحاكم الجديد . فقال راثيا [الكامل] (304) :

18 ـ فِي بُونَةٍ بَانَتْ حَيَاةُ الْمُرْتَضَى   يَحْيَى وَقِيدَ إِلَى الثَّرَى بِزِمَامِ

ومُهنّئا (305) :

49 ـ بِمُحَمَّدٍ وُعِدَتْ رَعَايَا أَحْمَدٍ   أَلاَّ تَزَالَ زَوَاهِرَ الأَيَّامِ
51 ـ مَلِكٌ نَمَتْهُ فِي الْمُلُوكِ عِصَابَةٌ   هِيَ مَفْخَرُ الأَسْيَافِ وَالأَقْلاَمِ

ـ **الخامسة** : قيلت في سنة 1250/648 ، بمناسبة إيصال المستنصر الماء إلى مدينة تونس من زغوان بواسطة الحنايا الرّومانيّة التي أعيد ترميمها وتصليحها ، كما أوصل الماء إلى جامع الزّيتونة . وقد كتب ابن الأبّار رسالة طويلة (306) للتنويه بهذا

---

(302) د/ص 5ـ104 .

(303) اختلفت المصادر في تحديد اليوم . في الدّيوان ص 162 : 22 جمادى II ، وفي الأدلّة البيّنة النورانيّة ص 51 : 29 جمادى الثّانية وفي تاريخ ابن أبي الضياف ج 1 ، ص 160 : ليلة الجمعة 28 جمادى II .

(304) د/ص 263 .

(305) د/ص 265 .

(306) انظر الرّسالة في أزهار الرّياض للمقرّي:3/114 .

الصّنيع،(307) وخلال الرّسالة ذكر ابن الأبّار أبياتا له في مدح المستنصر أوّلها [البسيط] (308) :

1 ـ جَمَعْتَ لِلنَّاسِ بَيْنَ الرِّيِّ وَالشِّبَعِ فَهُمْ بِأَخْصَبِ مُصْطَافٍ وَمُرْتَبَعِ

وهذه الأبيات لابن الأبّار هامّة من النّاحية التاريخيّة لأنها تبيّن أنّ ترميم وإصلاح الحنايا تمّ في مرحلتين : الأولى وكانت في سنة 1250/648، والثّانية تمّت في سنة 1267/665 (309) أو 1268/666 (310) وهي التي أنشد فيها حازم القرطاجنّي المقصورة . وقد أخطأ بعض الباحثين المعاصرين في ذلك وجعلها مناسبة واحدة (311) وأرّخها بسنة 1250/648 .

ـ السّادسة : قالها بمناسبة كان لها صداها في عاصمة الدّولة الحفصيّة ، إذ جاءت المستنصر بيعة مكّة . وقد كتب نصّ البيعة المتصوّف الشّهير ابن سبعين ، وكان ذلك سنة 1252/657 أي بعد سقوط بغداد عاصمة الخلافة العبّاسيّة على يد التّتار بسنة .

والطّريف أنّ هذه البيعة وصلت وقد شفي الأمير من مرض ألمّ به . ولهذا جمع ابن الأبّار في بيتين له أرسلهما من بجاية إلى تونس بين الأمرين ، فقال [الكامل] (312) :

1 ـ إنَّ الْبَشَائِرَ كُلَّهَا جُمِعَتْ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا وَلِلأُمَمِ
2 ـ فِي نِعْمَتَيْنِ جَسِيمَتَيْنِ هُمَا بُرْءُ الإِمَامِ وَبَيْعَةُ الْحَرَمِ

---

(307) أرسل أبو المطرّف هو الآخر من مدينة قابس وكان قاضيا عليها رسالة إلى المستنصر مهنّئا بهذه المناسبة .

(308) د/ص 451 .

(309) الفارسيّة ص 127 .

(310) الأدلّة البيّنة النّورانيّة ص 8ـ67 .

(311) محمد ابن شريفة : أبو المطرّف ، ص 152 .

(312) د/ص 290 .

12 ـ المشرق العربي :

يجد النّاظر في ديوان ابن الأبّار إشارات إلى المشرق العربي تندرج في نطاق التّمجيد والتّنويه بأبي زكريّاء وبالدّولة الحفصيّة . فكما خضع له المغرب فإنّ الشرق بشامِه وعراقه لا محالة خاضع تبعا لذلك . وابن الأبّار لا يذكر من حكام المشرق العربي إلاّ حكام مصر من الأيوبيّين . وهو يذكرهم ليستنقص من شأنهم باعتبارهم ساهموا بدور فعّال في إطالة ثورة ابن غانية . فقد أرسلوا لمساعدته الغزّ ، وعلى رأسهم القائد قراقوش . قال ابن الأبّار [الكامل] (313) :

22 ـ هذي الْمَمَالِكُ وَالْمُلُوكُ لأَمْرِهِ   تُنْقَادُ طَيِّعَةً كَمَا تُنْسَاقُ
23 ـ سَتُجِيبُهُ عَقِبَ الْمَغَارِبِ شَامُهَا   وَسَتَقْتَدِي يَمَنٌ بِهِ وَعِرَاقُ
26 ـ يَا آلَ أَيُّوبَ اضْعَنُوا عَنْ مِصْرِهِ (314)   أَوْ أَذْعِنُوا فَلَهُ بِهَا إِحْرَاقُ

وقد يذكر الشّاعر بني أيّوب حكّام مصر ويقارن بينهم وبين آل يعقوب من الموحّدين. ويرى أنّ الموحدين أكثر جرأة وشجاعة ومع ذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام أبي زكرياء فكيف بآل أيّوب ؟ قال [البسيط] (315) :

66 ـ وَاصْرِفْ عِنَانَكَ عَنْ مَرَّاكُشٍ ثِقَةً   بِالنُّجْحِ فِيهَا إِلَى مِصْرٍ وَبَغْدَانَا
67 ـ مَا آلُ أَيُّوبَ وَالآثَارُ نَاطِقَةٌ   مِنْ آلِ يَعْقُوبَ إِقْدَامًا وَإِمْكَانَا
68 ـ لِهَؤُلاَءِ عَلَيْهِمْ فَضْلُ بَأْسِهِمُ   وَقَدْ قَرَضْتَهُمُ قَتْلاً وَخِلْعَانَا
69 ـ بِالأَيْدِ وَالْكَيْدِ تَضْطَرُّ الْعِدَى أَبَدًا   إِلَى إِبَادَتِهِمْ سُخْمًا (316) وَغُزَّانَا (317)

(313) د/ص 388 .

(314) مصره : بلده . وقد يكون الشّاعر قصد مصر البلد المعروف تفاؤلا بخضوع هذا البلد الكبير إلى الممدوح .

(315) د/ص 310 .

(316) السّخم : الموحّدون .

(317) الغزّان : الغزّ وقائدهم قراقوش كانوا مع ابن غانية .

13 ـ مقتل ابن الأبّار

توفّي أبو زكريّاء وترك لابنه المستنصر دولة قويّة ، فاتجهت عنايته إلى البناء والتّشييد و(جمع حوله طبقة من العلماء والأدباء . وكان ابن الأبّار واحدا منهم) [318]. وكان من ألدّ أعداء الشاعر في هذا البلاط الوزير ابن أبي الحسين ، وكان يحقد على ابن الأبّار . (وكان سبب حقد هذا الوزير عليه أنّ ابن الأبّار لمّا قدم في الأسطول من بلنسيّة نزل ببنزرت وخاطب ابن أبي الحسين بغرض رسالته ، ووصف أباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم ، ونبّه إلى ذلك فاستضحك ، وقال : إنّ أبا لا تعرف حياته من موته لأب خامل . ونميت إلى الوزير فأسرّها في نفسه) [319] وراح يكيد له .

واستطاع هذا الوزير في نطاق تنافس البلديّين والأندلسيين على المناصب الهامّة في البلاط الحفصي أن يوغر صدر المستنصر على الشّاعر . وكان (في ابن الأبّار أنفة وبأو وضيق خلق ، وكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصر مداركه ... مع ما كان يسخط به السّلطان من تفضيل الأندلس وولاتها عليه) [320] .

وزاد ابن سعيد على ذلك (أنّ أخلاق ابن الأبّار لم تعنه على الوفاء بأسباب الخدمة) [321] فأشخصه السّلطان إلى بجاية . لكن متى تمّ ذلك ؟

إنّ ابن سعيد عندما كتب ترجمة ابن الأبّار في القدح [322] ذكر أنّ الشّاعر كان في ذلك الوقت في بجاية . ومن المعلوم أنّ ابن سعيد دخل تونس سنة 1254/652 والتقى بابن الأبّار وأخذ عنه المقطوعات التي أوردها في كتابه . حينئذ يحقّ لنا أن نفترض أنّ ابن الأبّار نفي إلى بجاية بعد هذه السّنة . وبقي هناك إلى أن عفا عنه المستنصر سنة 1259/657 ، وقد هنّأه صديقه أبو المطرّف بذلك في إحدى رسائله [323] .

---

(318) مقدّمة إعتاب الكتّاب ، ص 15 .

(319) العبر : 654/6 .

(320) العبر : 654/6 .

(321) اختصار القدح ، ص 19 .

(322) اختصار القدح ، ص 19 .

(323) ابن شريفة : أبو المطرّف ، ص 155 .

وقال الشّاعر وقد التقى وجها لوجه بالمستنصر بعد طول غياب [الكامل] (324) :

1 ــ بُشْرَايَ بَاشَرْتُ الْهُدَى وَالنُّورَا   بِلِقَائِـيَ الْمُسْتَنْصِرَ الْمَنْصُورَا
2 ــ فَإِذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَقِيتُهُ   لَمْ أَلْقَ إِلاَّ نَضْرَةً وَسُرُورَا

ويبدو أنّ الشّاعر لم ينجح وللمرّة الأخيرة في التأقلم مع بلاط الدّولة الحفصيّة . وتظافر العاملان الأعداء ومزاجه الحادّ في نفور المستنصر منه من جديد . ولكن في هذه المرّة لم يَنْفِه ، نظرا إلى تقدّمه في السنّ ، وإنما احتقره وأهمله فكان ابن الأبّار إذا دخل على المستنصر ، لا يكلّمه ولا يلتفت إليه وكان ابن الأبّار يَتشكّى من ذلك ويتألّم [الوافر] (325) :

1 ــ عَلَتْ سِنِّي وَقَدْرِي فِي انْخِفَاضِ   وَحُكْمُ الرَّبِّ فِي الْمَرْبُوبِ مَاضِ
2 ــ إِلَى كَمْ أُسْخِطُ الأَقْدَارَ حَتَّى   كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا بِرَاضِ

وكان المستنصر إذا أشكل عليه شيء أو ورد عليه لغز معمّى أو مترجم بعث به إليه فيحلّه ، فإذا حضر عنده لا يكلّمه ولا يلتفت إليه . فقال في ذلك **[مجزوء الكامل]** (326) :

1 ــ أَمْرِي عَجِيبٌ فِي الأُمُورِ   بَيْنَ التَّوَارِي وَالظُّهُورِ
2 ــ مُسْتَعْمَلٌ عِنْدَ الْمَغِيبِ   وَمُهْمَلٌ عِنْدَ الْحُضُورِ

ويغتنم ابن الأبّار مرض السّلطان وشفاءه ليهنّئه بالإبلال ، وجلاء الشكّ والحيرة من قلوب الرّعيّة [الكامل] (327) :

12 ــ شُفِيَ الأَمِيرُ فَكُلُّ قَلْبٍ سَاكِنٌ   بَعْدَ الْخُفُوقِ وَكُلُّ طَرْفٍ هَاجِعُ
13 ــ وَبَدَا سَنَاهُ فَلاَ عَدُوٌّ آمِنٌ   يَرْجُو النَّجَاةَ وَلاَ وَلِيٌّ جَازِعُ
17 ــ كَانُوا مِنَ الشُّبَهِ الْمُضِلَّةِ فِي دُجَى   فَجَلاَ غَيَاهِبَهَا هُدَاهُ السَّاطِعُ

(324) د/ص 447 .
(325) د/ص 448 .
(326) د/ص 445 .
(327) د/ص 356 .

ثمّ يطلب منه العفو عنه من الجفوة والإهمال [الكامل] [328] :

40 ـ مَوْلاَيَ عَبْدُكَ فِي الرِّضَى مُسْتَشْفِعٌ   وَبَنَاتُ خَاطِرِهِ إِلَيْكَ شَوَافِعُ
41 ـ هُوَ ذَا بِبَابِكَ لَيْسَ يَسْأَمُ قَرْعَهُ   وَلَطَالَمَا وَلَجَ الْمُلِظُّ الْقَارِعُ
44 ـ إِنَّ الضَّرَاعَةَ لِلْقَبُولِ ذَرِيعَةٌ   وَالْحَقُّ فِي تَخْلِيدِ أَمْرِكَ ضَارِعُ

وسواء أناله أم لم ينله فقد بقي ابن الأبّار شخصا ثقيلا غير مرغوب فيه في بلاط المستنصر ، بل إنّه أصبح بسلوكه مستهدفا للتخلّص منه . وقد أتاح الشّاعر الفرصة لأعدائه والمستنصر (ذلك أنّه حضر يوما مجلس السّلطان فسمعه يسأل بعض من حضر عن مولد ولده الواثق . فغدا عليه ابن الأبّار في اليوم التّالي برقعة فيها تاريخ الولادة وطالعها فلمّا رآها المستنصر استشاط غضبا من فضوله وتطفّله) [329] . وألصقت به تهمة (توقّع المكروه للدّولة والتربّص بها كما كان أعداؤه يشنّعون عليه ، لما كان ينظر في النّجوم فتقبّض عليه وبعث السّلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع . ولقي أثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات أوّلها :

طَغَى بِتُونِسَ خَلَفٌ   سَمَّوْهُ ظُلْمًا خَلِيفَهْ [330]

فاستشاط لها السّلطان وأمر بامتحانه ثمّ بقتله قعصا بالرّماح وسط محرّم 1260/658) [331] . وأحرق شلوه وكتبه ومن بينها كتاب سماه (كتاب التاريخ) يسيء فيه إلى السلطان [332] .

ولا شكّ أنّ هذه بعض الأسباب التي أدّت بابن الأبّار إلى هذه النّهاية المأسويّة . ولكن لا يمكن أن نقول إنّها كلّ الأسباب . فقد ورد في الدّيوان مثلا بيت منفرد

---

(328) د/ص 357 .

(329) الإعتاب ، ص 17 .

(330) د/ص 452 .

(331) العبر: ص 5ـ654 .

(332) الإعتاب ، ص 18 .

وهو قول ابن الأبار ـــ إن صحّت نسبته إليه ـــ في المستنصر [السّريع] [333] :

غصَى أبـــــاهُ وَجَفَـــــا أمَّـــــهُ   وَلَـمْ يُقِـلْ مِـنْ عَثْـرَةٍ عَمَّـهُ

وهو بيت يدلّ على أنّ الشّاعر لم يكن راضيا على سلوك هذا السّلطان مع أبيه ، وبعد وفاته مع أمّه . بل لعلّه كان يرى في مقتل عمّيه محمد اللّحياني وأبي إبراهيم في ثورة سنة 1250/648 ظلما وعدوانا لأنّهما لم يشاركا فيها . وهذه التّهم من النّاحية الشّرعيّة خطرة لأنّها تجيز التّراجع في بيعة السّلطان بل الخروج عليه .

الخاتمــة

قام الأستاذ عبد السّلام الهرّاس بتحقيق ديوان ابن الأبّار لأوّل مرّة بالاعتماد على النّسخة الوحيدة المحفوظة في الخزانة الملكيّة بالمغرب تحت رقم 4602 . والأستاذ الهرّاس بعمله هذا الجيّد سدّ ثغرة لا يستهان بها في تاريخ الشّعر الأندلسي . فصاحب الدّيوان هو إحدى الشّخصيات المرموقة خلال القرن 13/7 على المستويين السّياسي والأدبي وفي العدوتين الأندلسيّة والإفريقيّة .

وبصفة عامّة إنّ النّاظر في النصّ الأدبي يمكن أن ينظر فيه من زاويتين :

1 ـــ فإن كان ناقدا أو أسلوبيّا كانت غايته منه القيمة الجماليّة فيه .

2 ـــ وإن كان مؤرّخا للأدب أو دارسا للتّفكير فيه كان هدفه منه القيمة الوثائقيّة .

وبما أنّنا أصبحنا نؤمن بالقيمة الوثائقيّة للنصّ الأدبي ـــ بعد عدّة دراسات في دواوين شعريّة أندلسيّة ـــ [334] فإنّنا حاولنا أن نطبّق نفس هذا المنهج على ديوان ابن الأبار فكيف تراءت لنا الأحداث التاريخيّة في هذا الأثر الشّعري من القرن 13/7 ؟

---

(333) د/ص 462 .

(334) انظر على سبيل المثال :

ـــ القيمة الوثائقيّة في ديوان ابن الخطيب (مجلّة كلّية الآداب بتطوان السنة 2 عدد 1987/2، ص 291).

ـــ القيمة الوثائقيّة لديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي (حوليات الجامعة التونسيّة العدد 1988/27 ، ص 119) .

ـــ القيمة الوثائقيّة في ديوان يوسف III (الحوليات عدد 1988/28 ، ص 185) .

إنّ ديوان ابن الأبّار هو ديوان شعر ذاتي ورسمي :

1 ــ ذاتي بالنّظر إلى العِدوة الأندلسيّة : لقد بكى فيه الشاعر وطنه الضائع فحزن وتألّم لمصابه ، وحنّ واشتاق إلى رحابه ، ودافع وحرّض على استرجاعه .

2 ــ رسمي بالنّظر إلى العِدوة الإفريقيّة : فقد نظَر للسياسة الحفصيّة فمدح وقرّض أمراءها ، وهجا واستنقص أعداءها ، وشجّع ونوّه بمن حالفها ووالاها .

3 ــ على أنّ هناك مظهرا ثالثا في الدّيوان يتخلّل الجانبين الذّاتي والرّسمي هو الجانب الشّخصي : عبّر فيه الشاعر بكلّ صدق عمّا أصابه من محن الأيّام وصروف الدّهر بالعدوتين وخاصّةً ما تعرّض له من نكبات في إفريقيّة آلت به إلى المأساة الكبرى وهي مقتله على يد المستنصر الحفصي .

ونحن لا ندّعي البتّة أنّنا وجدنا في ديوان ابن الأبّار شيئا كثيرا يختلف عمّا هو مسطّر في كتب التّاريخ ، لكن هناك من الأحداث الجزئيّة ما لم يهتم به المؤرّخون ذكرت في الدّيوان ، وهناك بعض التّدقيقات في حياة الشّاعر استُخْلِصت وأُضيفَت . والأهمّ من كلّ هذا وذاك أنّنا نجد في ديوان ابن الأبّار تفسيرا للأحداث ، وخاصّة الإفريقيّة منها، من وجهة نظر معيّنة . هذا التّفسير قد لا نجده في كتب التّاريخ ، ومجال المقارنة فسيح لَوْ وُجد الشعر المقابل لشعر ابن الأبّار أي الشّعر المعبّر عن وجهة نظر الدّولة الموحّدية مثلا وكان لهم في مَرّاكش شعراء عديدون [335] . وهذا ابن الأبّار نفسه يتراجع نادما عمّا بدر منه مغايرا للحقيقة في ديوانه . قال [المتدارك] [336] :

1 ــ حُـرِمْتُ الـرَّشَادَ لأنّـي سَفَاهَـا   خَـدَمْتُ الْمُلُـوكَ وَهُـمْ أعْبُـدُ
2 ــ وَفِـي رَغْبَاتِـي لَهُـمْ جِـئْتُ إدًّا   فَهَـلاَّ رَغِـبْتُ لِمَـنْ أعْبُـدُ

فهل هذا الموقف من الشّاعر كافٍ لنحذر كلّ الحذر إذا أردنا معرفة الحقيقة خالية من كلّ الشّوائب ؟

---

(335) انظر نموذجا ثانيا من هذا الشّعر في الجزء II من أطروحتنا : الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي ص 204 عند مقارنتنا للشّعر المعبّر عن وجهة نظر المأمون الموحّدي والشّعر المقابل له المعبّر عن وجهة نظر غريمه ومنافسه على الخلافة ابن أخيه يحيى المعتصم .

(336) د/ص 178 .

الدار العربيّة للكتاب

- مؤسسة تونسية ليبية تجسم وجها طريفا من وجوه التعاون المثمر بين قطرين عربيين في ميدان النشر والطباعة والتوزيع.
- خمس عشرة سنة من العمل المتواصل في خدمة الكتاب وتنمية الثقافة العربية والمعرفة الإنسانية وإحياء التراث وتشجيع الإبداع العربي المعاصر.
- طموحات ومشاريع مستقبلية مهمة في مجال الأعمال الموسوعية والسلاسل المتخصصة.
- من منشوراتها التي تعنى بالأندلس تاريخا وحضارة، لغة وأدبا :

1 ــ ابن هانئ الأندلسي متنبّي المغرب تأليف أبي القاسم محمد كرو.

2 ــ العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب تأليف عبد العزيز الفيلالي.

3 ــ دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس تأليف د. أمين توفيق الطيبي.

4 ــ فصول الأحكام للقاضي أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي تحقيق وتقديم محمد أبو الأجفان.

5 ــ حركة الموحّدين في المغرب في القرنين الثاني والثالث عشر ترجمة أمين الطيبي.

6 ــ كشف الأسرار عن علم حروف الغبار للقلصادي تحقيق د. محمد السويسي.

7 ــ الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسّام الشنتريني تحقيق الدكتور إحسان عبّاس.

- ودراسات أخرى في طريقها إلى الصدور :

1) الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي تأليف الدكتور جمعة شيخة تعتمد هذه الدراسة على الشعر المعبّر بصدق عما خالج نفوس أصحابها من الأحداث والوقائع والانتصارات والنكبات، الهدف منها النظر في المادة الشعرية الأندلسية من بداية القرن الخامس إلى نهاية القرن التاسع هجري، باعتبارها مرآة تعكس مجموعة من الأحداث والمظاهر الحضارية للبيئة الأندلسية.

2) ديوان ابن زمرك، تحقيق الأستاذ توفيق النّيفر.

لم يصلنا من شعر ابن زمرك إلا ما هو مُثبت في المصادر القديمة «كنفح الطيب» و «أزهار الرياض» وغيرهما.

فالدّيوان زيادة على الجهد الذي بذله المحقّق، مادّة جديدة تنضاف إلى كنوز الشعر الأندلسي.

شاعر وفي لوطنه

د. عبد السلام الهرّاس
كلّية الآداب فاس ـــ المغرب

لعلّ أوّل أديب مسؤول في تاريخ الأندلس ، إلى منتصف القرن السابع أو ربّما إلى آخر تاريخها الإسلامي ، سجّل في شعره قضية بلده وهمومه نحوها لهو ابن الأبّار البلنسي ... نعم ! لقد سبقه سفيرٌ شاعر مثّل بلاده في كلٍّ من بلاد الروم وبلاد المجوس الفيكنك ، لم يعكس في شعره سوى مغامراته الغرامية ، أما القضية التي من أجلها سفر وسافر فلم يتسرب منها شيء إلى شعره الذي بيْنَ أيدينا على الأقل[1].

لقد كان ابن الأبّار وزيرا لا كالوزراء ، فهو الذي كلّف بحمل عبء التّسليم كما كان الرجل الكفء ليضطلع بمهمة الاستنجاد بتونس الحفصية مرتين ، وقد نجحت مساعيه الأولى والثانية ، وترك الرجل أثرا كبيرا في الأوساط السياسية والأدبية مما جعله شخصيّة ناجحة ولامعة ومحبوبة .

وكلّما كان الأملُ في إنجاد بلده كبيرا كان هاجسُه واهتمامُه بها وحدها واسع المدى ، غير أن دائرة الاهتمام بنفسه بدأت تتسع شيئا فشيئا عندما سقطت بلنسيةُ وبعضُ مواقع شرق الأندلس،ومع ذلك بقي كيانُ الرجل أندلسيًا بما كان يَنفُثُ من تحسرات ويصعّد من آهات ويستكثِر لبلده من أمجاد . وإن الهمّ الأندلسي ظَلّ يلازمه إلى آخر

(1) اختصارًا رمزنا لديوان ابن الأبّار بحرف (د) .

نفس من حياته إذ كان تآليفه كالتكملة نوعا من المفاخرة والمباهاة بما للأندلس من شخصيات علمية وأدبية ذكورا وإناثا أصلاءَ وطارِئين (أي غرباء) .

إنّ الرجل كما يبدو لم يكن أول أمره يفكر في نفسه أو في أسرته أو مصالحه على حساب بلده ، فقد أخلص للقضية وأبى أن يفرّ من الزّحف بل رأيناه يتشبثّ مع بلديّيه بتُرابِ وطنه وبتراب ماجاوره ، وينتقل مع اللاّجئين إلى دانية ومرسية أملا في العودة إلى الرّصافة والجسر والمسجد والمنتزهات .

وقد سبق له أن التجأ مع أميره أبي زيد إلى صاحب أرغون سنة 1229/626 وعمره إحدى وثلاثون سنة لكنّه ما لبث أن عاد إلى بلده بعدما ذاق مرارة الغربة التي لم تستطع حلاوة المقام هناك من التّخفيف من حِدّتها وزُعَاقِها .

وقد دافع عن نفسه بأنّ تلك الهجرة كانت مشروعة فهي كهجرة الصحابة إلى الحبشة النصرانية للاحتماء بملك نصراني كِتَابِي: ومعنى هذا أنّ هجرته كانت لخدمة قضية بلده . لكنه كيف خدمها؟ ذلك ما لم يطلعنا عليه كما ضيع علينا معلومات ثمينة عن العلاقة بين إمارة بلنسية ومملكة أرغون في هذه الحقبة لكنه قال ما يلي فقط [**البسيط**](2) :

قالُوا : الخروجُ لأرض الروم منقصةٌ فقُلْتُ : كلاَّ ! ولكن صَادَهـا بَـاءُ
إذا خـرجت وفـاءً ثـمَّ عـدتُ تُقـىً أتـيتُ بفعلـي عُذابـي والأحِبَّـاء
وكـان لـي فـي قـريش أسوةٌ وكفَـى مـع النَّجـاشي تَرضَّاهَـا الأَلِبَّـاء

لمن كان هذا الوفاء ألِقضية بلده أم لأميره المرتبط به ببيعة لا يستطيع الفكاك منها دون مُسَوِّغٍ شرعيّ ؟ حتى إذا ما أصرَّ صاحبُه على البقاء في بلاد النصارى كانت العودةُ إلى بلاد الإسلام واجبةً .

وإني استبعد أن يكون خروجه تمَّ دون موافقة شيخه أبي الربيع سالم الكلاعي وكذلك عودته .

كان ابن الأبّار شخصيةً جديرة بأن يستقبلها الأرغونيون بكلِّ تقدير ويحيطوها بكل

(2) د/ص 55

احترام لكنه كان يشعر بقسوة الحسرات وهو يرسف في أغلال الغربة فلم يَرْضَ بتلك الإقامة . يقول [الكامل](3):

وكفــاك أنّ الــروم كــانت جيرتـــي ... مــن جَــور دَهْــري واستحالــةِ حالــي
كــنتُ الطليــق هنــاك لكــن لــم أزل ... مــن شِدّةِ الــحسرات فــي أغْــلال
أبكــي علــى استــئصالِ مَــنْ خلّفتـــه ... وأطيــل فــي الأسحــار والآمــال

وهذه الأغلالُ لم تكن سوى آلامه المتراكمة بمفارقته وطنَه وأهله واستقرارَه مما لم يَجِد معه صبرًا ولا جَلَدًا . ولم يكن له من ملاذٍ سوى الاعتصام بحمد الله على الحال التي أصبح عليها من حرب الزمان له بعد ما كان مسالما معه مدة معينة سرعان ما انقضت،يقول [البسيط](4) :

الحمـــد للّـــه لا أهـــلٌ ولا ولَـــدُ ... ولا قـــرارٌ ولا صبـــرٌ ولا جلـــدُ
كــان الزمــانُ لنــا سِلْمًــا إلــى أمــدٍ ... فعــاد حربًــا لنــا لمّــا انــقضى الأمَــدُ

وكثيرا ما صعَّد الزفراتِ شوقا إلى أهله وذويه كما يقول [الوافر](5):

إلـــى الإلْفيـــن مـــن أهـــلٍ ودار ... تأوّبنـــي اشتياقـــي وادّكـــاري
وحـــنَّ القـــلبُ أعشارًا إليهـــا ... حنيـــنَ الوالهـــات مـــن الـــعِشار
فـــبتُّ كأنّـــي ثوقًـــا وشوقًـــا ... علـــى مثـــل الأسنـــة والشفـــار
ومـــا حشوُ الضلـــوع سوى أُوَارٍ ... ومـــا نـــومُ الجفـــون سوى غـــرار

ويقول [الوافر](6) :

بعيـــشك عاطنـــي أخبـــارَ داري ... بهـــا أُغنـــى عـــن القَـــدَحِ المُـــدَار
إذا قـــرُبتْ يهيـــجُ لهـــا اشتياقـــي ... وإن نـــزَحت بمثْلِهـــا ادّكَـــارِي
ودعْ لومـــي إذا أبصرت مَيْلـــي ... فسُكْـــرُ الشوقِ مـــن سُكْـــرِ العُقَـــار

لقد كان تعلقه ببلنسية ومنازلها أقوى من كل إغراء ولكن كيف يعود ؟

---

(3) د/ص 250
(4) د/ص 178
(5) د/ص 199
(6) د/ص 200

لعله غامر في العودة إلى الأندلس الإسلامية إذ نجده في وادي آش في شوال 1229/626 ، مما يدل أنه لم يمكث طويلا عند الأرغونيين .ومن هناك فيما يبدو صار يراسل صديقه أبا الحسين الخزرجي حاكم شاطبة واستهلّ قصيدته الأولى بذكر بلده وجناتها يقول [الوافر](7):

جَنابِـــي عامــرٌ بهـــوى جِنابِـــي وإن صدعت برحلتِهـــا جَنانـــي
وطرفـــي لـــيس يَعْنيـــه سواهـــا ولـــو عـــنَّت لـــه حـــورُ الجِنـــان
وقـــاد إلـــى هواهـــا القـــلب قهـــرًا فأصبـــح فـــي يديهـــا القـــلبُ عـــانِ

وفيها يبث آلامه وأحزانه ويصف واقعه المظلم الذي يحاصره بأخطاره فلا يشعر بأمل لا في الذهاب ولا في الإياب،وهو تصوير دقيق لحالته النفسية بل لوضعه الحرج الذي وقع فيه إثر خروجه من بلنسية فارا مع أميره يقول [الوافر](8) :

أمَـــا أنَّ الليالـــي غالبـــات ولـــو يُغـــرى بـــنصري الفرقـــدان
إذا لـــم ألقَهـــا بعُلَـــىٰ ابـــنِ عيســـى وَحَسْبـــي مـــن حُسَامٍ أو سِنـــان
فَلسْـــتُ مـــن الإيـــاب علـــى يقيـــن ولسْـــتُ من الذهـــاب علـــى أمـــان
فـــإنَّ أبـــا الحسيـــن ينـــال منهـــا منـــال الذُّعْـــرِ فـــي قَـــلْبِ الجَبـــان
يُنَهْنِهُهَـــا متـــى انهـــدَّت لِحربـــي ويأخـــذ لـــي الأمـــانَ مـــن الزمـــان

ويبدو أن أبا الحسين بذل للرّجل ضُرُوبًا من المعروف ، وفتح له بابَ الأمل ليعود إلى بلده معزّزا مُكرّما . فهو الذي ظَاهَرَهُ على الليالي وأخذ له الأمان من الزمان الذي أعلن عليه الحرب ، وبذلك أصبح في ظل حاكم شاطبة كباقي الرعية كلّها في حرز وضمان من الدهر وإذايته وامتهانه . وقد شاهد عيانا في أبي الحسين أكثر مما كان يُحدِّثُ به نفسَه . وهكذا استعادت أجنحتُه ريشَها المقصوصة بمقص الظلم ، كما صارت راحتُه تجني أغلَى الأماني وتقطف ثمارها من قِمَمِها الشّماء . يقول [الوافر](9):

وجنـــتك سُوْرَ أيـــامٍ لِئـــامٍ أعانـــي مـــن أذاهـــا مـــا أعانـــي

(7) د/ص 323
(8) د/ص 324
(9) د/ص 325

ومثــــلُك رقَّ سؤددُه لمثلـــــي   فأجنَــــى راحتــــي شَمَّ الأمانـــــي
وراشَ جناحـــيَ المــــقصوصَ ظلمـــا   وآنسانِـــــي الأحِبَّـــــةَ والمغانـــــي

وهكذا أصبح ابن الأبّار يتمتّع في شاطبة بربيع مزهر دائم متصل صيفا وشتاء،لا سَعير ولا زمهرير . ومع ذلك فإنّ بلنسية هي بلنسية . فهناك الرصافة وهناك المصلّى وهناك الجسروالحدائق الغناء والجنان الفيحاء، وهناك شيُوخه وأصحابه وهناك مَرْكَزه ومسؤوليته إذن فالعَوْدَةُ مُحَتّمة؛لذلك نراه ينتقل إليها بعد محاولات بذلت لاشك ، من الداخل والخارج لتحقيق هذا اللقاء لقاء الشاعر الوزير بحبيبته : بلده بلنسية .

وفي العودة تحمل مسؤولية جديدة ...

وقد دشن عودته بقصيدة رائقة في قائدها الجديد ورفيقه القديم في البلاط الراحل ، والقصيدة إشادةٌ ببطولة القائد الأمير الذي اضطلع بمسؤولية الدفاع عن بلنسية.وإذا ما صدقنا ما جاء فيها ــ ولا شك أنها لا تخلو من أصل الحقيقة مع بعض المبالغات ــ فإن جيشَ بلنسية بقيادة جَميل حققَّ انتصارات متعددة على الأرغونيين لكنْ تحت الرايةِ السّوداء التي تدل على ولاء هذه الإمارة الصغيرة النائية للخلافة العباسية المشرفة على الهلاك في ذلك الحين .

فكأنّ ابن الأبّار يُسوّغ عودته إلى بلنسية بكون الإمارة الجديدة تبنت قضيتها ، وهو ما دفعه للإشادة بهذه القيادة التي تضمن لبلده البقاء والاستمرار وللأرغونيين اليأس من الانتصار . والقائد الجديد لا يقف موقف الدفاع فقط وإنما تجاوز ذلك للهجوم في عقر دار الأعداء . يقول ابن الأبّار ، واصفًا أبا زَيّان [**الطويل**][10] :

وَتغْــزُو العــدَى فـــي عُقْرِهــا متتابعـــا   وحسبكَ غـــزوٌ فـــي العـــدى متَتَابِـع
تُلْقِـــي ديـــارَ المشركيـــن ولـــم تـــزل   أواهـــلَ قـــد أصبحْنَ وهـــيَ بلاقِـــعُ
ولاذوا بأعلـــى الرّابيـــــات تَوقُّعًـــــا   لِمـــا سَوْف يغشاهـــم . ومَـــا حُـــمَّ واقـــعُ
فلـم تـــألُ هـــذا أرضهـــم واستباحَـــةَ   تُجاذِبُهـــــم أطرافَهـــــا وتُنَـــــازع

(10) د.ص 359

إلى أن يقول[11] :

أيرجو انتصارى في زمانك نصرةً وقد كثرت فيهم لعمري الوقائع
فأعينهم بعد الهجوع سواهدٌ وأعيننا بعد السهاد هواجع

ويقول [12] :

ثغورُ ثغورِ المسلمين بواسمٌ به ورقابُ المشركين خواضع

وأخيرا يتكلم عن علاقته بالأمير واعتذاره عما كان منه[13] :

أميرَ العُلى أرجو ومثلُك سامحٌ أميرَ العلى أدعو ومثلك سامع
وأشدو بما طوّقتني من صنائع جسامٍ كما تشدو الحَمام السواجع
نـ بصدحُ منّي باعتمادك صادحٌ ويصدع مني باعتمادك صادعُ

تولى قضاء دانية سنة 633 هـ/1235 ـ 1236 م ، ثم الوزارة ببلنسية . وقد خلّف قصائد تتحدث عن همومه التي كانت تشغل عواطفه وتحتل بؤرة تفكيره وملكت عليه كيانه :

ففي القصيدة السينية المشهورة لم نجد له فيها أي إشارة إلى شخصيته من حيث منفعةٌ تخصُّها ، وإنما هناك أبيات قليلة في أواخر القصيدة يشير فيها إلى أنّ السعيد مَن يلقى الأمير ، ويبشر نفسه بتحقيق آماله فيه كأنما خاض إليه البحر طريقا يَبَسًا فوجد الجود في استقباله . ثم يعود إلى الموضوع الذي من أجله سافر وكأنما قدم لآخر القصيدة بتلك المقدمة الصغيرة من أجل التأثير وتحقيق ما من أجله وقف هذا الموقف . فهو يريد إنقاذ الأندلس عموما وشرق الأندلس خصوصا وبلنسية بصفةٍ أخصّ . وقد وضع أمام الأمير صورةَ الواقع كما هُوَ ليس فيه تزيدٌ أو تزييف : السبيل إلى إنقاذ الأندلس دَرَسَ . فليس من السهل ، إذن ، نجاتها مما هي فيه [البسيط][14] :

أدرك بخيلك خيلِ الله أندلسا إنَّ السبيلَ إلى مَنجاتها درسا

(11) د/ص 361
(12) د/ص 361
(13) د/ص 361
(14) د/ص 395

لقد فاجأهم بالحقيقة المرة ولكنّ الأمل قوي في الحفصيين الذين يخاطبهم باسم الأندلس ، فالأندلس تعاني حشاشتُها ما تعاني من سكرات الموت وحشرّجات الاحتضار بما يعتورُها من بلاَيا صباح مساء ، ففي كل مطلع شمس تحلُّ بها بائِقة وفي كل مغرب تنزل بها كارثة تتناوبُها الويلات والمصائب،لا تكادُ مصيبةٌ تفارقها حتى تنقض عليها أخرى ، فهناك مدائنُ ارتحل عنها الإيمان مبتسا مذعورا إذ حلَّها الإشراك مبتسما مسرورا ، أما المساجد فهي تستحق الرثاء وتستوجب الإنجاد إذ عادت بِيعًا وكنائسَ وتحولَّ بها الأذان إلى أجراس ونواقيس ، كما أنّ مدارسَ العلم والمعرفة قد اندرست معالمُها وطُمِسَ وجودُها مما يثير في النفس الألَمَ والحسرة .

أمّا المرابع الجميلة والحدائق الغناء والأشجار الباسقة والزهور المتفتحة النضرة فقد صوَّح نبْتُها ويبِستْ أغصانها وجفت خُضرتها وتساقطت أوراقها وتغير كلُّ شيء جميل فيها .

ومما يضاعف الآلام أنّ الأندلسيين أصبحوا جَزَرًا وقطعا مفرَّقة تنهشُهم الأحداث واستحال حظُّهم السعيد السالفُ شقاءً وبؤسا . ويُبرز ابنُ الأبّار عنصر « العِرْضِ » كَلُبّ المأساة ليستثير هِمم الحَفصيين : فقد أقْسم الرومُ ألا تنَالَ أيديهم بالقسمةِ والتوزيع إلّا نساءَ الأندلس المحجَّبات المصُونَاتِ .

واختار من مدائن الأندلس حاضرتها الكبرى : قرطبة وحاضرة الشرق بلنسية ، فإنّ حالتَهما وما تعاني كلٌّ منهما ما يَفضي النَّفسَ ويستنزف النَّفَسَ وإن كان ميّز بلنسية بتأكيد خاص [البسيط](15) :

وانصر عبيدًا بأقصى شرقها شرِقت   عيونهم أدمعا تَهْمِي زكًا وخَسَا

وهو كما قلنا يشيد بما لقيه من حسن الاستقبال وكرم الوفادة ، لكنه سرعان ما يتخذ ذلك وسيلة لخدمة الغرض المقصود لتحقيق هدفه فيوحي للأمير أنّ الإجماع والتواتر قائمان على أنه الوحيد الذي يجدر أن يُحيي الأندلس بمحق أعدائها [البسيط](16) :

وقد تواترتِ الأنباء أنك مَنْ   يُحْيي بقتلِ ملوكِ الصفر أندلُسَا

(15) د/ص 399

(16) د/ص 399

ويعود إلى بلنسية وقد نجحت سفارته تصحبه نجدة حفصية ، كاستجابة فورية ، اقتنع الشاعر أنها كافية لإنقاذ بلنسية . وهكذا سيتمّ في نظره فتحٌ جديدٌ يذكّر بفتح مكة ، فاستحقّ منه هذا الحدث قصيدة على غرار قصيدة حسّان بن ثابت رضي الله عنه التي أنشأها بمناسبة الفتح . وقصيدة ابن الأبار جاءت في وصف لأسطول الحفصيين الذي يقلّ على متنه أسودًا عظاما،ومدح الأمير الحفصي الذي هو وحده الجدير بعلاج الخطب الذي حلّ ببلنسية .

لكن هذه النّجدة لم تستطع أن تُحقّق أمل ابن الأبّار لا في الإنقاذ ولا في دفع خطر الحصار ، مما جعل البلد يُقرر الاستسلام ، فكان ابن الآبار هو المفاوض في هذا الأمر .

على الرغم من ذلك فإنّ الشاعر الوزير لم ييأس من استعادة بلده أو على الأقل من المحافظة على ما تبقّى من شرق الأندلس كدانية ومرسية لأنه وجد في تونس من يستجيب لندائه وينفعل لشعره ويتأثر لصريخه . فعاد إليها مرةً ثانية ليُناشد الأمير أبا زكريا إعادةَ الكَرّةِ لإنقاذِ الأندلس لا سيما وقد حمل إليه بيعةَ بعض مدنها [الكامل][17] :

هي دارُك القُصوى أوتْ لإيالةٍ ضَمِنت لها مع نصرها إيواءَها

وهو يعيد على مسامعه الآن أنباءها التي بثُّها إليه في السفارة الأولى [الكامل][18] :

مولاي هاكَ مُعادةً أنباءَها لِتُنيلَ منك سعادةً أبناءَها

فالأندلس ليس لأهلها سبيل إلّا الضّراعة والتوسل إليك،كما أن أهلها خلعت قلوبهم لباس الصبر ورداءَ السلوان،ذلك أنهم دُفِعوا دفعًا لتَفتَرسَهم الخطوبُ بشتى أنواعها : تلك التي عرفتموها سابقًا وأخرى جديدة . وهكذا أشرفت على الهلاك والموت ، فلم يبقَ منها سوى نبضاتٍ متقطعة . وقد قدم صورًا لمآس حلّت ببلنسية بعد ضياعها ، وصار يشجع الأمير بأساليب متعددة من أجل إنقاذ الجزيرة التي تريد العدى الاستيلاءَ عليها ، وقد حاول أن يغريه لقيادة جيش النجدة بنفسه ، إذ يقول [الكامل][19] :

بشرى لأندلسٍ تُحِبُّ لقاءَه ويُحِبُّ في ذاتِ الإلهِ لقاءَها

---

(17) د/ص 33

(18) د/ص 35

(19) د/ص 37

كان ابن الأبّار يغتنم كلّ فرصة للإشادة بارتباط الأندلس بالدولة الحفصية ارتباط ولاء وتبعية ، من ذلك قصيدته رقم (25) (ص 80) ، التي يسجل فيها بيعةَ بعض المدن الأندلسية لأبي زكريا ، وذلكس حوالي 1243/641 يقول [**الطويل**][20]:

إلى مَـذهبٍ سَنَّتْـه سبتـةُ ، قـاصِدٍ ... بـه عدلـوا عـن زائغـات المـذاهب
ألا هـذه « حـمصٌ » تُثـابِبُ طاعـةً ... سجلمـاسةً فـي رفضهـا للمُنـاصب
ومـا خالـفت غرناطـةُ رأيَ ريّـةٍ ... لتشمـل أنـوارُ الهـدى كـلَّ جـانب
وجيّـانُ لـم تبـرح كشِلْبٍ وطنجـة ... مباريـةً هـوجَ الصَّبـا والجَنـائب

إلى أن يقول :

لأنـدلسَ البُشْرى بـنصرٍ خليفـةٍ ... ضَرُوبٍ بنصلِ السيف زاكِـي المَنَاصب

ورفع للأمير أبي زكريا قصيدةً طويلة بمناسبة بيعة المرية عقب بيعة سبتة . ولعل مدنا أخرى بايعت أيضا وسُمّي هذا العام : عام الجماعة ، يقول [**البسيط**][21] :

لا مِرْيـةٌ أنْ إقْطـاع المريـةَ فـي ... أعقـاب سَبتـةَ للإجمـاع ميعـاد
عـامَ الجَماعـة مـا اعْتَاضت ولا نعلَت ... فيمَـا يُقـرِّر حسبـانٌ وتَعْـداد

وعندما سقطت إشبيلية في أيدي القشتاليين في شعبان 646 هـ/1248 م كان ابن الأبّار في بجاية . وبعد ذلك بثلاثة أشهر أنشأ قصيدة موجهة إلى أبي زكريا ، وكان ذلك بعد العفو عنه ، كلّها تحريض وإثارة لحميّة الحفصيين حتّى يسارعوا لإنقاذ الأندلس ، بأسلوب يدل أن الأمر هيّن ، وأن ليس بين الحفصيّين وبين القضاء على محتلّي بلنسية وغيرها سوى أيام قليلة . فأرض الأعداء قد استوجبت وأذنت بافتتاحها إذ ليس وراء اللّيل إلا الصباح ، إنّهم ذئاب هيّجوا ليث الحرب والمعامع ، وقد صور الأعداء بأنهم ضعفاء ومنهزمون ، في حين صور الحفصيين في قوة واكتساح . وتحدث عن النجدة وكأنها أمر واقع ، يقول للأندلسيين [**المديد**][22] :

وغَـدت أنـدلسٌ منـه بيـوم ... هـي لاستقبالـه فـي ارتيـاح

(20) د/ص 80
(21) د/ص 141
(22) د/ص 20 ــ 119

إن يَكُن عيدا لنحرٍ وذَبْحٍ   كيف شاءت فالأعادي أضاحي
أجنبي جنس أباحوا جهارا   وجماها لم يكن بالمُباح
لا ويحيى المرتضى لاهتامهم   بأليم القَرْح وردُ القَراح
إنما يرقُب ميقات فتح   هو آتٍ في ضمانِ النَّجاح

ولم يتحدث عن نفسه إلاّ في آخر القصيدة حيث أبرز فرحة عارمة بالعفو عنه إذْ يقول :

يَدُكَ العليا حَبَتْ كُلُّ حُذْيا   نا لأرباحي بها من بَرَاحِ
بُوركتْ من راحةٍ سَوَّغتني   في بُكوري لثمَها أوْ رَوَاحي

كانت بيعة إشبيلية قبل سقوطها ذات أهمية وتأثير في بيعة الجزيرة وشريش كما يظهر ذلك من قوله[الكامل](23) :

لِلَّهِ حمصٌ وَفوزُها بسعادة   هَدتِ الجزيرةَ نحوَها وَشريشا

ويظهر جليا أنه عندما استقرت به الأحوال في تونس ، لم يستسلم للحياة الإدارية التي تولى فيها منصبا كبيرا . فلم ينس «القضية» ، بل ظلت هاجسَه في كل مناسبة ، ولذلك نجده يغتنم كل فرصة من أجل حمل تونس على إعلان الجهاد وإنقاذ المدن الأندلسية الضائعة أو المهدّدة فالقصيدة رقم(65) (ص 151) يبدو أنّه أنشأها إثر نزوله بتونس ملتجئا كما يفهم من قوله [الرمل](24) :

قَرّت الحالُ بكم في نِعمة   أنطقتني بالقوافي الشُّرَّد
تَصف الروضَ وقد غنّى بها   واصفٌ سجعَ الحَمام الغُرَّدِ

وهي مليئة بوصف شجاعة أبي زكريا وجهاده ، وتهديد الروم به يقول (25) :

إنْ يكن طاغيةُ الرّوم بَغى   فظُبى الهندِ لَه بالمَرْصد
غرّه البعدُ وعن قربٍ يَرى   جزيةَ الكُفر تُؤدّى عن يَدِ

---

(23) د/ص 404
(24) د/ص 153

إلى غير ذلك مما كان يتصور وقوعه على يد أميره الجديد .

ومن القصائد التي مدح بها أبا زكرياء واصفا أحواله الجديدة وحياته بتونس في ظل الحفصيين تلك التي مهّد لها بمقدمة غزليّة طويلة مادحًا الأمير بأوصاف مستفيضة من العلم والشجاعة والكرم . وربط ذلك بجهاده للكفار بالأندلس . يقول آخر القصيدة [الطويل](26) :

وَهَـذِي ملـوكُ الـرُّومِ تُشْخِص رسْلَهـا	بِسِلْـمِكَ تَبْغِـي للسَّلامـةِ سُلَّمـا
ويُغْـزى جَنـابٌ طَـالَ بالغـزوِ عهـدُه	ويُفْتَـحُ بـابٌ كـانَ للكفـرِ مُبْهَمـا

وهنا حقيقة هامة لم تسجّل في التاريخ أو على الأقل في تاريخنا ، وهي السّفارات الأرغونية أو غيرها إلى تونس في شأن تنظيم العلاقات الحربيّة والسلميّة بين الجانبين .

كان ابن الأبّار شخصية قويّة مفرطا في الإعجاب بنفسه ، وزادته الغربة حدةً في طبعه مما جعله يجأر بالشكوى . وكان يبثّ هذه الشكوى خلال قصائده الاعتذارية وخلال نفثاته الحزينة التي كانت أشواقا لوطنه ووصفًا لجماله ، وترديدًا لذكريات جميلة في رياضه وحلقاته العلمية ومجالس أصحابه ومدارج ألعابه :

يقول شاكيا ضياعه ، وأرجح أن تكون هذه الأبيات في تونس أو بجاية [الكامل](27) :

لأمَ المحبّـون الفـراقَ ولمتـه	لكنّهـم سئمـوا ولمّـا أسأم
ظعنـوا وهـم قـد ودعـوا أو سلّمـوا	وظعنـتُ غيـر مـودَّعٍ ومسلَّـم
فعلـيَّ فلتبـكِ البواكـي إنّنـي	أُخرِجْتُ مـن وَطنـي ولسـتُ بمُجْـرِم
وأُضعتُ يـومَ وُضِعْتُ فـي أرضٍ بهـا	يَغْـدُو الفصيـحُ معظَّمـا للأعْجَـم
لا أستريـح بغيـر ليـلٍ ألْيَـلِ	أشْكُـو تطاوُلَـه ونـومٍ أيْـوَم

وقد مرّت على الشاعر الوزير حقبٌ كان الحديث فيها عن نفسه ممزوجا بوطنه وقضيته . فالجراح ملكت عليه جوارحه واستبدت بها لا تخلو جارحةٌ من جرح ينزف

(25) د/ص 152
(26) د/ص 3ـ272
(27) د/ص 292

دمًا، فلا أمل في شفائه ذلك لأنه كوطنه عار أعزل أمام هجمات الخطوب والكوارث المتجددة ، وهو في صحراء قاحلة لا ماء ولا شجر بل إنه يسير في متاهاتها ليس له من سبيل ولا قدرة على التخلّص من الهلاك الذي يتربصه في كل ناحية كطائر مهيض الجناح . وحديثه عن وطنه مفعمٌ أبدًا بالأسى والكمد إذْ أُسْلِمَ إلى العَدُو الذي هوى عليه بسيفه كالسفاح في حين غاب عنه منصوره الذي كان يحمي حماه ويحوطه بالأمن والأمان . يقول في ندب بلنسية [الكامل](28) :

مَلَكَتْ جوارحَه عليه جراحُه ... فَشِفَاؤه لا يُرْتَجى وَسَراحُه
عارٍ لأبكار الخُطوب وعُونِها ... غِيضَتْ مواردُه وهِيضَ جناحُه
لم يعترضه مَسَاؤه بمساءةٍ ... إلاَّ وَضَاعفَها عَلَيْه صَبَاحُه

وَحديثُه كمَدٌ عن الأفق الّذي ... تصف الجنانَ تِلاعُه وبطاحُه
تجري حثيثًا تحته أنهارُه ... وتميس لِينًا فوقه أدواحُه

وهو أسير شوقه لبلنسية وحدائقها وجناتها ولا سيما الرّصافة والغدير [الخفيف](29) :

لاَ تصدُّوا فربّما مات صَدًا ... مستهامٌ لسلوةٍ ما تصدّى
جَعَلَ السّهدَ في رضاكم كَراهُ ... واكتفى في هواكمُ السُّقْمَ بُرْدَا

ثم يقول (30) :

يا سَقى اللّه للرصافة عهْدًا ... كنسيم الصَّبا يَرُقُّ وَيَنْدى
وجنانًا فِيهَا أُهِيمُ حَنانًا ... بَيْدَ أنّي حُرِمتُ فِيهنّ خُلْدَا
مُستهِلاً كأدْمُعي يَوْمَ وَدَّعـ ... ـتُ ثَرَاهَا النُّفاحَ مِسكًا ونَدًّا
لَيتَ شعري هلْ يرجِعُ الدَّهرُ عَيْشًا ... يَشْهَدُ الطّيبُ أنّهُ كانَ شُهْدَا

وكثيرا ما ردد تعلقه بوطنه وبخاصة بلنسية ، وهو غير قادر على السلو عنها ، لأنها

(28) د/ص 131
(29) د/ص 175
(30) د/ص 176

ماثلةٌ في قلبه ونفسه وهي ملء السّمع والبصر لأنّ ذكرياته فيها جميلةٌ لا تُنسى أبدا . [الوافر][31] :

إلـــى أوطانـــه حـــنّ العميـــد　　فظـــل كأنّـــه غُصْنٌ يَميـــد
ومسقـــطَ رأسه ذكـــرَ اشتياقـــا　　فـــذاب فـــؤاده وهْـــوَ الحَديـــدُ
وَلـــو رام السلـــوَّ أبت عليـــه　　مَعَاهـــدُه،عَهدُهـــا المَـــاضِي حميـــدُ

ويشبه نفسه بالشاعر العربي : الصِّمَّةِ بن عبد الله القُشيْري الأموي [الوافر][32] :

ضَميـــرِي وَاجـــد بهَـــوى «المُصلّـــى»　　كَوِجـــد أخـــي تُشَيْـــر بالضّمَـــار
لآصَالٍ بـــــه حسنت وطـــــابت　　كمـــا حُـــدِّثْتَ عـــن نـــور الغَـــرار
وَمَـــا جـــار الغَـــرامُ علـــيَّ حَتَّـــى　　تأكـــد بَينَنـــا سَبَبُ الجِـــوار

وهو يسكر بذكرى بلده يهيجه قربها ، فإذا ابتعد عنها تمثّل ذكراها ، لذلك كانت أنْبَاؤها كؤوس خمر تغنيه عن الكؤوس المُدارة [الوافر][33] :

بِعَـــيشك عاطِنـــي أنْبَـــاءَ داري　　بهـــا أغنَـــى عـــن القَـــدح المُـــدار
إذا قَرُبَتْ يهِيـــجُ لهـــا اشتياقـــي　　وإنْ نـــزحت يمثّلهـــا ادِّكَـــارِي

وهو في غربته كالحمام لا يفتر عن النّواح كلّما ذكر شرق الأندلس . وتسحّ عيونه بالدموع كأنما تسكب منها الغمام كلما لمع برق من تلك الجهات ، حتى أصبح محسودا على بكائه ونوحه من المطر والحمام [الطويل][34] :

أنـــوحُ حَمامـــا كلّمـــا ذُكِـــرَ الشرقُ　　وأبكـــي غمامًـــا كُلّمَـــا لَمَـــع البَـــرْقُ
وَيَغبطُنـــي فـــي سَكْب أدمُعـــيَ الحيـــا　　وَيَحْسِدُنـــي فـــي نـــدب أرْبُعـــيَ الـــوُرْقُ

وفي القطعة (186 ص 400) أنات حزينة على الماضي الجميل لبلنسية وواقعها الحالك ، لذلك فهو يندبها ندب الطلول المندرسة مع أنها آهلة بالسّكان ولكن أيّ

---

(31) د/ص 177
(32) د/ص 200
(33) د/ص 200
(34) د/ص 392

سكان ؟ ويتوجع باكيا ونادبا بلدته وَيخُصُّ منها عذوبة مائها وجناها[الطويل](35) :

بلنسيـــة يـــا عذبَـــة المـــاء والجَنـــى   سُقِيت ـــ وإن أُسْقِيْتِ ـــ صَوْب الرَّواجِس
أحِبُّ وأقنـــى مـــنكِ حـــالاً وَمَاضِيًـــا   بمُـــوحِشَة أَلْـــوَتْ بِعَهْـــد الأَوَانِس
وَمِـــن عـــجبٍ أنَّ الديـــارَ أواهِـــلٌ   وأندبُهـــا نـــدبَ الطلـــول الـــدَّوارس

وهكذا نجد ابن الأبار يرتبط ببلده ووطنه الكبير والصغير ، لذلك تجاوز ذكر الأندلس في ديوانه ثلاثين مرة ، وبلنسية بملاعبها وبساتينها ومصلاها وجسرها ورصافتها حوالي ثلاثين مرة أيضا ، وأنيشة ومرسية وجيان مرّتين ، كما ذكر كلاً من قرطبة ومالقة والمرية وميورقة وشِلْب وإشبيلية بالإضافة إلى سبتة ، كما عبر برموز كثيرة عن أماكن لهوه وصباه في وطنه الصغير بلنسية .

ولو بقي لنا ديوانه كاملا لرأينا أكثر من ذلك وأصرح ، غير أنّ الرجل لم يكن في جو من الحرية ليعلن عن جميع شعره الذي عبر به عن خوالج نفسه كشخصية أندلسية فذة لاقت جحودا من ثلة لم تُقدِّرِ مواهبه العظيمة ولا مكانته العلمية الكبيرة ولا انتماءه الحضاري الرّفيع .

ومهما يكن من شيء فإنّ بعض مؤلفاته أيضا مما يكشف لنا عن شديد تعلّقه بوطنه كالتكملة ، والحلّة السيراء ومعاجمه لشيوخ الأندلس وإعصار الهبوب في ذكر الوطن المحبوب ، وخضراء السّندس في شعراء الأندلس ، وإيماض البرق في شعراء الشرّق .

كما يعتبر درر السّمط ومعدن اللّجين من الآثار الأدبية التي بكى فيها الأندلس عبر بكائه الحسين وآل البيت .

لذلك وطّن نفسه وألزمها أن تظلّ دائما وفية للوطن وذكرى مواطنيه : بسكب الدموع وتصعيد زفرات الأسى والحزن ، وقد أصبح بذلك مشهورا إذ يحمل راية الأشجان رغم كبر سنه وضعف جسمه .

يقول في قصيدة رائعة له مخاطبا نفسه [البسيط](36) :

وَطِّنْ علـى الدائِبَيْـن : الدَّمْـعِ والشَّجَـن   يـا نـادبَ الذاهبيـن الأَهْـلِ والوَطَـن
هَـذا فـؤادي كالبـرق الخَفُـوقِ أسىً   وهـذهِ أدمعـي كالعـارض الهَتِـن
بِراحَتـي رايـةُ الأشجـانِ أُحمِلُهـا   وإنْ غـدا الجِسْمُ وهْنًـا لَـيس يَحْمِلُنـي

(35) د/ص 400
(36) د/ص 320

دار التركي للنشر

68، شارع الحبيب بورقيبة ــ 2000 باردو ــ تونس
الهاتف : 222.536 / 222.502 تلكس : 13.664 TN

كتب تشرف الأدب العربي : أصالة وتفتحًا

آخر ما صدر :

ــ تنبيه الحكام على مآخذ الأحكام لمحمد بن عيسى بن المناصف (القرن السابع الهجري) تحقيق عبد الحفيظ منصور	380 ص (24 × 16) 9973.715.03.9 السعر : 8 د.ت. / 15 $
2 ــ بينات النبوة الخاتمة من القرآن والسنة والأخبار تأليف مصطفى نفرة	311 ص (15,5 × 24) 9773.715.18.7 السعر : 8 د.ت / 15 $
3 ــ الصخرة العالية (مجموعة أساطير من التراث التونسي) تأليف الطاهر قيقة	125 ص (14 × 21) 9973.715.10.1 السعر : 4 د.ت. / 8 $
4 ــ أضواء على الشيعة الهادي حمّو	268 ص (16 × 24) 9973.715.09 السعر : 8 د.ت. / 15 $
5 ــ أبو الحسن الشاذلي محمد بوذينة	208 ص (14 × 21) 9973.715.12.8 السعر : 7 د.ت. / 14 $
6 ــ كليلة ودمنة (منتخبات) تقديم البشير المجدوب	216 ص (16 × 24) 9973.715.06 السعر : 5 د.ت. / 10 $
7 ــ أبو منصور الماتريدي بلقاسم الغالي	324 ص (14 × 21) 9973.715.07.1 السعر : 8 د.ت. / 15 $
8 ــ شرح منازل السائرين إلى الحق المبين تحقيق عبد الحفيظ منصور	جزء (1) 324 ص جزء (2) 312 ص (24 × 16) 9973.715.16.0 9973.175.17.0 السعر : 7د.ت./14$ ج1 7 د.ت./14 $ ج2

de l'autre côté de Gibraltar. La prise de Valence eut lieu le 17 Safar 636. Ibn-al-'Abbàr, assumant de nouveau sa responsabilité, repartit à Tunis, pour tenter une nouvelle fois, de convaincre le monarque hafside de la nécessité d'intervenir en Andalousie pour sauver ses coreligionnaires de Valence. Il utilisa pour y parvenir son génie politique et sa veine poétique.

Ni l'accueil favorable et chaleureux que lui avait réservé Abū Zakariyyā, ni le poste de chef de chancellerie qu'il lui avait décerné dans la capitale hafside, n'arrivèrent à lui faire oublier la cause de sa patrie. Sa fidélité à Balansiya et à al-Andalus était totale. Il finira sa vie à Tunis et consacrera tous ses écrits (notamment K.al Takmila et K.al Ḥulla al-Siyarā') et toute sa poésie à chanter l'amour éternel qui le liait à son pays natal, à savourer une nostalgie qui ne cessait de croître, et à glorifier et pleurer son paradis à jamais perdu. Sa fidélité presque légendaire à sa patrie a certainement été à l'origine de son renom et probablement aussi, l'une des causes de sa disgrâce et de sa fin tragique.

c) Ibn al-'Abbàr, a poet faithful to his homeland

The purpose of this paper is to study one of the most attractive and original aspects of Ibn al-'Abbàr's personality, namely his faithfulness to his homeland al Andalus and to his hometown Balansiya, the Spanish Orient of Moslem rule. In fact, Abū 'Abd Allah Muḥammad Ibn al-'Abbàr al-qudā'ī(died in 658/1260) was not a simple and conservative historian or an ordinary court poet. He was rather a brilliant minister, a courageous and lucid statesman and a militant poet. Following the siege of Valence by King Jack I of Aragon in 635/1238, Ibn al-'Abbàr headed a delegation to the Hafsid Ifrikya in order to secure some help from the ruler of Tunis, Abu Zakarya, who was then at the top of his strength and glory. He read in the presence of the Hafsid prince, his famous poem rhyming in «sīn» (Siniya) in which he mourned his homeland and depicted his besieged hometown; he urged the Moslem prince to help save Islam which was threatened from the other side of Gibraltar. Valence fell on 17 Safar 636. Ibn al-'Abbār, once again made a journey to Tunis to try to convince the Hafsid monark of the necessity to save his moslem brothers in Valence. To reach his goal, he used his political cunning and his poetry.

Neither the warn and favourable welcome by Abū Zakariya, nor the post of head of chancellery he was offered in the Hafsid capital resulted in his forgetting the plight of his homeland. From Tunis, where he died, he recorded in his writings (K. Takmila et al-Ḥulla as-siyarà) and in his poetry the eternal love for his homeland. His almost legendary faithfulness towards his lost paradise was certainly at the origin of his fame; it was also probably one of the causes of his disgrace and tragic death.

poeta militante y comprometido. Después del asedio de Valencia por el rey Jaime I de Aragón en el año 1238, Ibn al-Abbár, a la cabeza de una delegación, hizo rumbo a la Ifriqiyya hafsí para pedir ayuda al soberano de Túnez, Abú Zakariyya, que, en aquel entonces, estaba en el pináculo del poderió y de la gloria. Recitó ante el emir hafsí su famoso poema cuyos versos tienen como rima común la letra «sín» (Síniyya). En él, lloraba la pérdida de su patria, bosquejaba un cuadro conmovedor de su ciudad natal asediada, e incitaba al emir musulmán a que salvase al Islam del peligro y amenaza que se cernían sobre él, procedentes del otro lado de Gibraltar. Valencia fue conquistada el 17 de Safar del año 636 de la era musulmana. Asumiendo de nuevo su responsabilidad, Ibn al-'Abbár volvió a Túnez para tratar, otra vez, de persuadir al monarca hafsí de que su intervención en al-Andalus era imprescindible para salvar a sus correligionarios de Valencia. Para ello se valió de su instinto político y de su vena poética.

Ni la acogida favorable y calurosa que le había dispensado Abú Zakariyya, ni el puesto de canciller que le había otorgado, en la capital hafsí, consiguieron que abandonara su causa. Su fidelidad a Valencia y al-Andalus era absoluta.

pasò los últimos años de vida en Túnez y consagró todos sus escritos (especialmente: al Takmila y.al Hullaal-Siyará) ytoda su poesía a cantar el amor eterno que le unía a su país natal, a saborear una nostalgia que no cesaba de crecer y a glorificar y llorar su patria perdida para siempre. El renombre de Ibn al-Abbár era, sin duda, el resultado de esa legendaria fidelidad a la patria que, probablemente, era también una de las causas de su desgracia y final trágico.

b) Ibn al-'Abbàr : un poète fidèle à sa patrie

L'article se propose d'étudier à travers la poésie d'Ibn al-'Abbār un des aspects les plus attrayants et les plus originaux de sa personnalité à savoir sa fidélité à sa patrie al-Andalus et à sa ville natale Balansiyya, métropole du levant espagnol, le Šarq-al Andalus de l'époque musulmane. En effet, Abù Abd Allah Muḥammad Ibn al-'Abbàr-al quḍā'ī (mort en 658/1260) n'était pas un simple historien traditionaliste ou un poète de courordinaire ; c'était plutôt un ministre brillant, un homme d'Etat, courageux et lucide, et un poète militant et engagé. Après le siège de Valence par le roi d'Aragon Jacques I[er] en 635/1238, Ibn al-'Abbār prit le chemin de l'Ifriqiyya hafside, à la tête d'une députation pour solliciter aide et secours du souverain de Tunis, Abū Zakariyyā, alors au faîte de sa puissance et de sa gloire. Il récita, devant l'emir hafside, son fameux poème rimant en sin (Sīniyya) dans lequel il pleurait sa patrie, brossait un émouvant tableau de sa ville natale assiégée et invitait l'émir musulman à venir en aide à l'Islam menacé

3 — However, besides the subjective and official aspects, a third one can be pointed out, the personal aspect : the poet earnestly evokes his misfortunes in Moslem spain and Ifriqiyya, misfortunes which led to his killing by El Mustanṣir El-Hafsi.

We do not claim to have found a lot of things differing from what is found in history books, but there are details in Ibn al-ʾAbbār's poetry which historians did not mention. There are also precisions added to the poet's biography. Most important is the fact that one finds in Ibn al-ʾAbbār's poetry an explanation of events — especially those about Ifriqiyya — from a special viewpoint. Such an explanation might not be found in history books.

Had an opposite poetry — for example that relating the Muwahdine dynasty point of view — been discovered, there would be enough room for comparison. The Muwaḥdines had numerous poets in Marrakech (2). The reader is invited to examine the following lines where Ibn al-ʾAbbār regrets having distorted reality in his poetry (3) :

1 — I have been deprived of reason since I awkwardly served kings who are slaves.

2 — In my desires, I lied to them ; my desires should have been addressed to whom I pray.

Isn't Ibn al-ʾAbbār's confession sufficient enough for us to be careful if we want to know the truth, and but the truth ?

III

a) Ibn al-ʾAbbār: Un poeta fiel a su patria

El propósito de este articulo consiste en estudiar, a través de la poesia de Ibn al-ʾAbbár, una de las facetas más atrayentes y originales de la personalidad de este poeta, a saber, su fidelidad a la patria, al-Andalus, y a su ciudad natal, la metrópoli del Levante español o del Šarq al-Andalus, Valencia. En efecto, Abú Abd Allah Muḥammad Ibn al-ʾAbbár al-Qudāʿī, muerto en el año 1260 (correspondiente al año 658 de la era musulmana), no era un simple historiador tradicionalista o un ordinario poeta cortesano sino, más bien, un ministro birllante, un estadista valiente y lúcido y un

(2) See a second sample of this poetry in part II of our thesis : «Troubles and Wars and their effect in Andalusian poetry», (page 204) when we compare between the poetry relating el Ma'mūn El Muwaḥḥidi's viewpoint ant the opposite poetry relating the point of view of his rival about ruling i. e. his nephew Yaḥyā El Mu'taṣim.

(3) Ibn al-ʾAbbar's diwān page 178.

rétractant et regrettant amèrement ce qu'il avait exprimé dans son Diwān, de façon contraire à la vérité, dit :

J'étais dans l'égarement, et, par sottise,
J'avais servi les rois, alors qu'ils ne sont que des esclaves (3)
Quel malheur que de les avoir suppliés.
Que n'aurais-je supplié celui que j'adore.

Cette attitude du poète suffirait-elle comme mise en garde, si nous tenons à atteindre la vérité, toute la vérité?

c) The documentary value in Ibn al-ʾAbbār's diwān

Professor Abdelssalim Harras has, for the first time, critically edited the works of the poet Ibn al-ʾAbbār. He has used the unique copy held at the royal library in Marocco under number 4602. Professor Harras' work constitutes a major contribution to the history of Andalusian poetry, for Ibn al-ʾAbbār was among the great personalities of the 7th/13th century, both on the political and literary levels in Moslem spain an Ifriqiyya.

A literary work may lend itself to two kinds of study :

1 — For a critic or a stylist it is the esthetic aspect of the work which matters.

2 — For a literature historian or a thought investigator, it is the documentary value of the text which counts.

Since the documentary value of a literary text has proved worthwhile after many studies on Andalusian poetry (1), we have tried to apply this methodology on Ibn al-ʾAbbār's diwān. This is how historical events stand out in this poetic work belonging to the 7th/13th century. Ibn al-ʾAbbār's poetry has subjective and official aspects :

1 — Subjective as regards Moslem spain : the poet conveys his feelings about his lost homeland.

2 — Official as regards Ifriqiyya : the poet supported the hafside policy ; he praised its princes and severely attacked its foes ; he encouraged and valued its faithful allies.

= dans la poésie Andalouse p. 204). Dans notre comparaison entre la poésie exprimant le point de vue de Ma'mun l'Almohade et la poésie correspondante de son adversaire et concurrent pour le Califat, son neveu Yaḥyā al Mu'taṣim.

(3) Diwān p. 178.

(1) See for example our articles:
— The documentary value in Ibn al-Khatib's poetry (Faculty of letters Review of Tatouane volume 2 n° 2/1987 page 191).
— The documentary value in Abdelkarim el-qaysī al-Andalousi's poetry (Annals of the university of Tunis n° 27/1988 page 118).
— The documentary value in Youssef III's poetry (Ibid. n° 28 / 1988 page 185).

1) Pour le critique, ou le linguiste, il s'agit d'en saisir la valeur esthétique.

2) Quant à l'historien de la littérature ou le chercheur de la pensée, leur but serait d'en déduire la valeur documentaire.

Et comme nous avons fini, après l'étude de maints recueils de poésie andalouse[1], par admettre la valeur documentaire du texte littéraire, nous avons essayé d'appliquer cette méthode à l'étude du Diwān d'Ibn al-'Abbār. Donc comment, nous parurent les évènements historiques dans ce texte poétique du 7e siècle (de l'Hégire)/13e siècle (de J.C)?

Ce Diwan est un recueil de poésie particulières et officielles :

1) Particulières, par rapport à l'Andalousie. En effet, le poète pleure sa patrie perdue, traduit sa tristesse, clame sa souffrance pour ce malheur ; il exprime sa nostalgie et son désir de la retrouver ; il la défend et exhorte les Hafsides à la récupérer.

2) Officielles, par rapport à l'Ifriqiyya. En effet, il s'intéressa à la politique de la dynastie Hafside, loua ses princes, invectiva ses ennemis, encouragea et glorifia ses alliés.

3) Cependant le Diwān comporte, entre le subjectif et l'officiel, un troisième aspect : il s'agit de l'aspect personnel. Le poète y exprime avec toute sa sincérité, les malheurs et les vicissitudes, qu'il rencontra aussi bien en Andalousie, qu'en Ifriqiyya, notamment les calamités qui, en Ifriqiyya, auront pour dénouement tragique sa mort par ordre d'al Mustansir le Hafside.

Bien que n'ayant pas la prétention d'avoir découvert dans le Diwān d'Ibn-al-'Abbār beaucoup d'éléments qui diffèrent de ce qui existe déjà dans les livres d'histoire, nous pouvons soutenir qu'il contient des détails qui ont été négligés par les historiens. De même, y a-t-il sur la vie du poète, des précisions qui ont été déduites et ajoutées.

Le plus important, c'est que nous y découvrons une explication des événements, surtout concernant l'Ifriqiyya, selon un point de vue particulier. Ce qui manque dans les livres d'histoire.
Le domaine de la comparaison serait vaste s'il y avait une poésie, correspondante à celle d'Ibn al-'Abbār, c'est-à-dire, celle exprimant le point de vue de la dynastie Almohade par exemple ; celle-ci avait d'ailleurs de nombreux poètes à Marrakech[2]. ET voici, Ibn al-Ábbār, lui-même qui, se

(1) Cf. à titre d'exemple:
— La valeur documentaire du Diwān d'Ibn al Ḫatib (in Revue de la Fac. des lettres de Tétouan - Année 2 n° 22 / 1987 p. 291).
— La valeur documentaire du Diwān de Abdelkérim al Qaysī al Andalousī (Annales de l'université de Tunis n° 27 / 1988 p. 119).
— La valeur documentaire du Diwān de Youssef III (Annales n° 28 / 1988 p. 185).
(2) Cf. Un deuxième spécimen de cette poésie: Tome II de notre Thèse (troubles et guerres =

— En el tercero y último grupo hablaba, con mucha sinceridad, de la serie de desgracias y vicisitudes que le habian sonbrevenido en al-Andalus y sobre todo en Ifriqiyya donde tendría un final trágico : al-Mustansir al-Hafsí ordenaria su muerte.

Los elementos históricos que hemos descubierto en el diván de Ibn al-ʾAbbár y que difieren de lo ya tratado en los libros de historia no son numerosos. No obstante, constatamos que contiene acontecimientos y detalles que los historiadores han descuidado. Por otra parte, hemos podido deducir otros elementos referentes al poeta que nos han permitido, por tanto, agregar nuevos datos y precisiones sobre su vida.

Pero lo más importante de esta obra es, sin duda, esa explicación peculiar de los acontecimientos acurridos, sobre todo en Ifriqiyya, de la que carecen los libros de historia. El ámbito de la comparación sería amplio si existiera otra poesia opuesta a la de Ibn al-Abbár; es decir, una poesia que expresase, por ejemplo, el punto de vista de la disastía almohade que contaba con muchos poetas en Marraquex[2] . Y he aquí al propio Ibn al-ʾAbbár desenganado y arrepentido retractándose de lo que habia escrito antes porque no correspondia a la realidad[3]:

Servia a los reyes desacertada y neciamente,
y a que los reyes no son más que esclavos.
Cometi un grave error al implorarles ;
debí implorar a los que adoro.

Es suficiente esta actitud del poeta para que estemos sobre aviso a fin de no confundir entre la pura verdad y la verdad alterada.

b) La valeur documentaire de l'œuvre d'Ibn al-'Abbār.

Le professeur 'Abdessalâm al Harras entreprit pour la première fois le rétablissement du Diwân d'Ibn al-'Abbār en se fondant sur l'unique texte (manuscrit) déposé à la Bibliothèque Royale du Maroc sous le n° 4602. Par cet excellent travail, le professeur vient de combler une lacune non négligeable dans l'histoire de la poésie Andalouse. En effet, l'auteur du Diwān est une personnalité célèbre du 7e siècle (de l'hégire)/13 siècle (de J.C) sur les deux plans : politique et littéraire, aussi bien en Andalousie, qu'en Ifriqiyya.

D'une façon générale, le texte littéraire, pourrait être consulté sous deux angies :

(2) Cf. otro modelo de esta poesia en el segundo tomo de neustra tesis (Disturbios y guerras en la poesia andalusi p. 204), cuando hacemos una comparación entre la poesia que expresa el punto de vista de Ma'mun el almohade y la opuesta; es decir, la de su adversario y rival para el califato, su sobrino Yahyā al-M'utasim.

(3) Divan Ibn al-ʾAbbár p. 178.

grammar, eloquence, genelogy, etc... Tunis became then the center of scientists, doctors, engineers, technicians, teachers, men of letters and historians.

II

a) El valor documental del divan de Ibn Al-'Abbār

El profesor 'Abdeslâm al-Harràs ha sido meritoriamente el primero en desempolvar y glosar el diván de Ibn al-'Abbár basándose en la única copia que se conserva en la Biblioteca Real de Marruecos bajo el número 4602. Con ello se ha llenado una laguna no despreciable en la historia de la poesia andalusí ya que Ibn al-'Abbár era en el siglo XIII de la era cristiana una de las personalidades notables en los campos politico y literario tanto en al-Andalus como en Ifriqiyya.

De un modo general, se investiga un texto literario desde dos puntos de vista distintos: mientras que los especialistas en critica literaria o en estilistica procuran apreciar su valor artistico y estético, el objetivo de los que se dedican a la historia de la literatura o a estudiar el pensamiento del autor consiste en intentar captar su valor documental.

Después del estudio de varias obras de poesia andalusí[1], hemos terminado, nosotros también, por reconocer este valor documental de los textos literarios y, por lo tanto, hemos procurado deducir el que se desprende del diván de Ibn al-'Abbár. Cuáles son, pues, los acontecimientos históricos que se infieren de esta obra poética del siglo XIII (correspondiente al siglo VII de la era musulmana).

Los poemas de que consta este diván pueden agruparse por temas:

— En el primer grupo el poeta lloraba la pérdida de su patria, al-Andalus, la anoraba, expresaba su tristeza y dolor por esa desgracia e incitaba vehementemente a los hafsíes a que la reconquistasen.

— En el segundo, se interesaba por la politica de la dinastía hafsi, alababa a sus principes, increpaba a sus enemigos, alentaba y enaltecía a sus aliados.

---

(1) Cf. entre otros estudios:

— El valor documental del diván de Ibn al-Ḥatib (in Revista de la Facultad de Letras de Tetuán — Ano 2, n_22/1987, p. 291).

— El valor documental del diván de Abdelkarim al-Qaysi al-Andalusi (in Anales de la Universidad de Túnez n°27/1988, p. 119).

— El valor documental del diván de Yusef III (in Anales de la Universidad de Túnez n°28/1988, p. 185).

The sixth element deals with the attitudes of the Andalusian immigrants in general in Tunisia. They had an attitude of superiority over the local inhabitants. They were also conscious of their scientific and civilisational superiority, which caused them to live in closed small communities.

The seventh element was primarily political, and had the greatest impact on the decision of killing Ibn al-'Abbâr. Some historians mention that what happened to Ibn al-'Abbâr can be considered one part of the struggle between the Andalusians and Tunisians in high rank administrative positions. Upon that also lay the accusation against him that he expected « mishap and disaster to the Dynasty», and that he used to belittle al-Mustansir... who disfavoured him. Add to that Ibn al-'Abbâr's preference for an Andalusian hegemony.

It is our opinion that the ingratitude of Ibn al-'Abbâr towards his masters in Tunisia was based on political divergences. The only explanation for Ibn al-'Abbâr's attitude is that he was motivated by political reasons. A reasonable explanation, if one considers that he was the only Andalusian on whom such a severe punishment fell. Ibn al-'Abbâr was ambitious for power, rank and glory. Moreover, in one of his history books were found harmful remarks concerning the Khalifa al Mustansir and poems satirizing him.

We think hat all those elements together caused Ibn al-'Abbâr's loss and not just one single element of them. But among them all, the political element was the strongest.

The Andalusian immigration to Tunisia started since the beginning of the 13 cent. A.D. under the reign of Abû Zakariyya al-Hafsi, who encouraged them to live in Tunisia, and who allured them with favors so much the new Dynasty needed their knowledge in the various scientific, literary, administrative and artistic domains. A renaissance had started in Tunisia which distinguished that century from the other eras in that country, so much so that we can call it the Era of Tunisian Renaissance.

The endalusians kept influencing Tunisia during centuries afterwards. This influence became part of the Tunisian-traditions. Had that influence been limited to the courts of princes and notables, it would have vanished. Their knowledge there fore flourished so much so that Tunis, the capital, became the goal of those who aspired for sciences and arts.

The Andalusians renewed many aspects, and introduced new ways, systems and specialisations which had an immediate and strong impact over the cultural life and modernisation in Tunisia. Especially in educational subjet matters, in building modern and great schools, libraries, book shopes. They were the most important professors and authors in Tunisia during that period. They were famous for their distinguished scientific experiments and discoveries, in medicine, education, architecture, history,

of January 6, 1260 in Tunis, upon the order of al-Khalifa al-Mustansir bi Allah al-Hafsî (d. 1277).

The second aspect upon which I will concentrate is to bring to light the importance of the presence of Andalusian scholars in Tunisia, and their impact on the various sciences and specialisations there.

Concerning the first element of our study, I should notice that Ibn al-'Abbár reached Tunis in 1238. His misfortune was that his stay in Tunis coincided with the rule of its greatest Hafsi rulers, even of the founders of the dynasty itself. This fact makes the rulers very merciless towards any incident which may sap their rule.

I should notice first, in the tragedy of Ibn al-'Abbár, that the norms of racial strengths in the Islamic society had started to change after the superiority of the Arab race, the situation became different and the strong ruling families changed especially in the countries of North Africa.

The Hafsid princes were Berbers originating from the High Atlas mountains of Morocco. They had their own Berber ways which showed clearly in their strict rule in the interior or in their fierce confrontation with the outside powers endangering their interests and peace.

We can therefore easily imagine the fire of fury with which the Khalifa burned those un loyal to the ruler. Absolute fidelity to the Dynasty and personal self denial in order to secure its internal and external integrity were conditions not entirely part of Ibn al-'Abbar's character.

The second element was racial. Ibn al-'Abbár originated from an old Arab family deep rooted in its Kudhâî ancestry. He was very proud of his noble Arab origins and felt superior over those who were not Arabs, no matter what their positions were. So it was most probable that the relation of Ibn Al-'Abbár, the distinguished Arab, with his masters, the Berber Bani Hafs, was a relation of ethnic competition in which the examination of intentions and of ethnic belongings was included.

The third element concerns the excellent training of Ibn al-'Abbár in administrative affairs, a struggle for high posts in Tunis started. As a result, the Khalifa feared Ibn al-'Abbár 's betrayal and treachery.

The fourth element has to do with his feeling of superiority and with his stubborn positions and his pride in them. This made him an easy target for criticism and finally annihilation. He was finally accused of having expected « mishap and disaster to the Dynasty''.

The fifth element is that Ibn al-'Abbár was accused of tashayyu, or having Shiite leanings towards Ali Ibn Abi Talib and his family. Although it is quite difficult to believe such an accusation for several reasons, the context it was put in was one causing a death sentence. It is worthwhile mentioning, that the Tunisian Dynasty is considered among the strongest opponents of Shiisme, especially at that time in Tunisia, after the complete extermination of the Fatimids in Tunis at the hands of the Maliki Sunnis.

Sixième point compromettant : Ibn al-Abbar faisait partie de ces immigrants andalous qui, conscients de la supériorité de leur culture sur celle de la population d'origine locale, finissaient par se constituer en société à part et à vivre en petites communautés closes sur elles-mêmes.

Cette dernière constatation nous amène à une septième cause de la condamnation d'Ibn al-Abbar. Ainsi que le pensent quelques historiens, l'aventure d'Ibn al-Abbar n'est qu'un épisode de la lutte entre Andalous et Tunisiens dans les hautes sphères de l'administration. D'autant plus qu'Ibn al-Abbar ne se privait pas de critiquer al-Mustansir lorsque ce dernier manifestait à son égard quelque défaveur.

A notre avis, la prise de distance d'Ibn al-Abbar envers les maîtres de la Tunisie était surtout basée sur des divergences de vues politiques, et c'est là que gît l'explication ultime du sort qui, seul parmi les Andalous, le frappa finalement. Ibn al-Abbar était ambitieux ; il aspirait au pouvoir, aux hautes dignités, à la gloire. Ne découvrit-on pas dans un de ses livres d'histoire des réflexions — et jusqu'à des poèmes satiriques — qui ne pouvaient qu'offenser le Khalifa al-Mustansir ?

C'est l'ensemble de ces données qui, nous le pensons, expliquent la perte d'Ibn al-Abbar, mais un ensemble de données où domine tout de même, on le voit, la réalité politique.

L'immigration en Tunisie des Andalous commença au début du XIIIème siècle sous le règne de Abou Zakariyya al-Hafsi qui les attira par la promesse d'avantages particuliers. Le nouvel Etat avait besoin de leurs services dans les domaines scientifique, littéraire, administratif et artistique. Ce fut le point de départ d'une renaissance qui valut à la Tunisie une de ses plus belles époques. Tunis, la capitale, devint un centre d'attraction pour quiconque aspirait à la science et aux arts.

Les Andalous furent les précieux agents d'un considérable renouveau civilisationnel et technique en Tunisie : rénovation des études, construction d'écoles, de bibliothèques, installation de librairies. C'était l'époque où professeurs et écrivains célèbres vivaient et produisaient en Tunisie, ainsi devenue centre de rayonnement culturel où se multipliaient expériences scientifiques, découvertes en médecine, où se fondaient les institutions les plus variés d'enseignement : architecture, histoire, grammaire, éloquence, science héraldique, etc. Tunis était à cette époque la **ka'ba**, le foyer d'un véritable univers culturel arabo-musulman.

c) Ibn al-'Abbâr and his epoch in Tunisia

I have tried in this study to concentrate upon two aspects that have been on my mind for a long time. The first is the elements behind the death santence and the killing of the scholar Ibn al-'Abbâr (killed in the morning

dynastie. Les dirigeants politiques en Tunisie ne s'en montraient que plus intransigeants en face de tout ce qui était susceptible de porter atteinte à leur pouvoir.

Il convient de noter ensuite — et ceci n'est pas sans rapport avec la tragédie d'Ibn al-Abbar — qu'à cette époque l'équilibre ancien des forces raciales dans la société islamique avait commencé à se modifier. La race arabe avait désormais à compter avec de puissantes familles régnantes sur les pays d'Afrique du Nord et qui n'étaient point arabes.

Les princes hafsides étaient des berbères originaires du Haut-Atlas marocain. Ils avaient leurs propres coutumes qui se reflétaient dans les rigueurs de leur politique intérieure et dans la dureté de leur confrontation avec les forces étrangères qui pouvaient mettre en danger leurs intérêts et la paix intérieure de leurs Etats. Le khalifa réagissait violemment à toute tentative de résistance et n'hésitait pas à livrer au feu leurs auteurs. L'intégrité interne et externe de l'Etat exigeait, aux yeux des souverains, une fidélité absolue et une totale abnégation personnelle, toutes dispositions qui n'étaient pas spécialement inscrites au tempérament d'Ibn al-Abbar.

Rappelons, en second lieu, qu'Ibn al-Abbar était originaire d'une vieille famille arabe bien enracinée dans sa souche ancestrale. Il était très fier de ses nobles origines arabes et éprouvait à l'égard des non arabes, quelle que fût l'échelle de leur position sociale, un véritable sentiment de supériorité. Il est fort probable que son comportement d'arabe distingué envers ses maîtres Banī Hafs berbères n'ait pas été exempt de toute prétention ethnique pour laquelle il importait de faire valoir ses titres de noblesse.

Ibn al-Abbar — et nous touchons ici une troisième cause — avait de remarquables talents d'administrateur et manifesta la prétention d'accéder, coûte que coûte, aux plus hauts postes du pays. Le khalifa ne pouvait, bien sûr, qu'en prendre ombrage et même se méfier des fins, à ses yeux sans doute perfides, poursuivies par Ibn al-Abbar.

En quatrième lieu, au sentiment de supériorité dont était animé Ibn al-Abbar s'ajoutait la fière obstination avec laquelle il défendait ses propres vues, ce qui faisait de son personnage une cible exposée à la critique et à la vengeance qui tue. Ne l'a-t-on pas finalement accusé d'avoir prédit les malheurs et finalement la chute de l'Etat ?

Un cinquième motif de la condamnation d'Ibn al-Abbar fut l'accusation de « tashayyuʿ», c'est-à-dire de préférence pour « Ali et sa famille. Il y a, certes, plusieurs raisons de mettre en doute le bien fondé d'une telle accusation. Il reste qu'elle fut formulée de telle façon qu'elle ne pouvait qu'aboutir à une sentence de mort. Il ne faut pas oublier, en effet, qu'à cette époque, après l'extermination complète en Tunisie des Fatimides, les sunnites malékites, nouveaux maîtres du pays, étaient de farouches adversaires du shiisme.

En efecto, Ibn al-'Abbár se aferraba orgullosamente a sus ideas y opiniones y se exponía, por consiguiente, a las críticas y a la venganza y represalia. Además, se le acusaba de «tashyyu'»; es decir, de ser partidario de Alí y sus descendientes. No olvidemos que después del total exterminio de los fatimíes en Túnez, los nuevos jefes del país, sunnitas malikitas, eran enemigos mortales del chiísmo.

Por otra parte, Ibn al-'Abbár, administrador de talento, tenía empeño en desempeñar uno de los altos cargos políticos del país. Estaba dominado por la ambición de poder y gloria y era natural que el califa se sintiera celoso y ofendido y desconfiara de sus pretensiones «pérfidas».

Estos eran, creo, los motivos más importantes que contribuyeron a la desgracia y final trágico de Ibn al-'Abbár.

La inmigración de los andalusíes en Túnez empezó a principios del siglo XIII bajo el reinado de Abú Zakariyya al-Ḥafṣí quien los atrajo prometiéndoles ciertas ventajas particulares. El nuevo Estado necesitaba de sus servicios en los campos científico, literario, administrativo y artístico. Fue el arranque de un renacimiento que proporcionó a Túnez una de sus épocas más resplandecientes y la capital se convirtió en un punto de atracción tanto para científicos como para artistas.

Los andalusíes emprendieron considerables renovaciones culturales y técnicas en Túnez: renovaron la enseñanza, construyeron escuelas y bibliotecas, instalaron librerías etc... El país se convirtió en un centro de esplendor cultural en el que se multiplicaban las experiencias científicas, se realisaban notables hallazgos médicos y en el que se dio un fuerte impulso a los estudios sobre todas las ramas del saber: arquitectura, historia, gramática, oratoria, ciencia heráldica etc... Le capital era, en aquel entonces, un foco de un verdadero universo cultural arabo-musulmán.

b) Ibn Al-Abbar et son époque en Tunisie

J'ai essayé dans cette étude de synthétiser mes recherches autour de deux axes majeurs : les motifs de la condamnation à mort de Ibn al-Abbar, et l'impact de la présence andalouse en Tunisie.

Comment en est-on arrivé à la sentence de mort portée contre l'érudit Ibn al-Abbar et à son exécution au matin du 6 janvier 1260, à Tunis, sur les ordres de al-Khalifa al-Mustansir bi-Allah al-Hafsi (m. 1277) ?

Rappelons d'abord qu'Ibn al-Abbar arriva en Tunisie en 1238. La malchance voulut que son séjour y ait coïncidé avec le règne du plus puissant des Hafsides, plus puissant même que ne le furent les fondateurs de la

Les Résumés

I

a) Ibn al-ʾAbbár y su epoca en Túnez

En el presente estudio he procurado sintetizar mis investigaciones y centrarlas en dos puntos principales: los motivos de la condena a muerte de Ibn al-ʾAbbár y los efectos de la presencia andalusí en Túnez.

El califa al-Mustansir bi Alá al-Ḥafṣí (muerto en 1277) sentenció a muerte al erudito Ibn al-ʾAbbár y lo ejecutó en la mañana del 6 de enero de 1260 en Túnez. Influyeron en esta decisión, entre otros, los siguientes motivos:

Recordemos, primero, quela llegada de Ibn al-ʾAbbár à Túnez en el año 1238 coincidió desafortunadamente con el reino más poderoso y rigoroso de la dinastía ḥafṣí y que el antiguo equilibrio de las fuerzas raciales en la sociedad islámica empezó, por aquel entonces, a modificarse:

En efecto, los intransigentes diregentes ḥafṣíes se distinguían en aquella época por el rigor de su política interna y por la dureza de su lucha contra las fuerzas extranjeras que intentaran poner en peligro sus intereses. Para preservar la paz y la integridad del Estado, el califa no vacilaba en eliminar y ejecutar a todos los rebeldes y disidentes y exigía de los ciudadanos una fidelidad y una abnegación absolutas, y ello era inconciliable con el carácter de Ibn al-ʾAbbár.

Por otra parte, los emíres hafsíes y las poderosas familias que reinaban en el norte de Africa no eran árabes sino bereberes originarios de Alto Altas marroquí. Ibn al-ʾAbbár, en cambio, descendía de una vieja familia castizamente árabe y, por tanto, se vanagloriaba siempre de su noble origen profesando un verdadero sentimiento de superioridad con relación à los no árabes cualquiera que fuese su posición social.

Era asimismo uno de aquellos inmigrantes andalusíes que, concientes de la superioridad de su cultura respecto a la de los nativos, se recluían en comunidades aisladas constituyendo una sociedad aparte.

Además del rigor de los dirigentes hafsíes y del sentimiento de superioridad que Ibn al-ʾAbbár profesaba hacia ellos, la divergencia de tendencias y opiniones entre éste y aquéllos y, sobre todo, las pretensiones políticas de éste eran otros motivos importantes queinfluyeronen esta decisión:

moriscos » y « La problemática morisca a través de los escritos occidentales y árabo-musulmanes. »

Vemos un gran parecido entre estos encuentros modernos y aquellos que, entaño, ocurrían entre los hombres más versados en las distintas ramas del saber. En efecto, estos hombres de sapiencia se aviaban de lo necesario y emprendían largos y penosos viajes, yendo en ciudad y de país en país, en busca de otros ilustres sabios, maestros o alfaquíes para recibir nuevos conocimientos, intercambiar luminosas ensenanzas y ampliar horizontes. Así, el mismo sabio que en su tierra veíamos rodeado de discípulos, contestando a sus preguntas y dudas y juzgando sus aptitudes, lo veíamos en otros lugares convertido en un alumno que intentaba, a su vez, satisfacer su sed y anhelo de saber recibiendo ensenanzas sobre materias y cuestiones determinadas y, al final del cursillo, procurando demostrar su suficiencia ante sus muevos maestros. Estos modestos sabios de antano, con sus alumnos eran tan generosos cual una fuente inagotable y, con sus maestros, tan ávidos de saber cual una sed inextinguible.

Algo semejante ocurre con los distinguidos talentos contemporáneos. El investigador moderno que sube al estrado y diserta sobre cierta materia embargando la atención de los presentes y demás participantes en el encuentro, cual un alumno, vuelve a su asiento a prestar oídos y enriquecer sus conocimientos con la disertación investigativa de otro maestro que hace un momento aprendía de él.

Como acabamos de ver, estos encuentros modernos tienen raices muy antiguas y no creemos, por tanto, que los medios de comunicación actuales, tan desarrollados y tan rápidos, que ván acostumbrando a la gente a desarrollar una actividad pasiva de exclusiva recepción matando así sus facultades intelectuales, puedan desbancar a esta lucrativa y secular tradición que tiene un encanto especial y cuyo fruto es, ante todo, el progreso de la investigación científica.

El Director de la revista
CHEIKHA Djomaâ

Presentación

Pese al difícil mercado de la prensa especializada y a los obstáculos, previstos e imprevistos, que hemos encontrado, he aquí la revista DIRĀSĀT ANDALUSIYYA que cumple su promesa y reaparece sin ningún retraso. En efecto, nos mantendremos siempre fieles a nuestro propósito y dichos obstáculos, lejos de frenarnos, nos alientan a proseguir nuestra tarea que consiste en velar por un inmarcesible patrimonio humano cuyo néctar seguimos libando.

Entre diciembre de 1988 y junio de 1989, fechas de la aparición del primer y segundo número de nuestra revista, se han celebrado tres encuentros que dejan sobrada constancia del interés y la atención creciente que se está prestando a los estudios andalusíes :

— En Túnez y a lo largo de una semana (del 3 al 10 de febrero de 1989), universitarios españoles y tunecinos participaron en un fecundo encuentro, organizado por el Centro de Estudios y de Investigaciones Económicas y Sociales de Túnez, sobre « El patrimonio andalusí y su influencia, tanto en el pasado como en la actualidad, en la cultura árabe y espanola. »

— Por otro lado, la Universidad de Alicante, con el patrocinio de la Consejería de Cultura, Educación y Ciencia de Valencia y la colaboración del Ayuntamiento de Onda, organizó en esta maravillosa ciudad andalusí, del 20 al 22 de febrero de 1989, un encuentro sobre la figura del gran poeta e historiador valenciano Ibn al-ʾAbbār[1].

— Por último, el Centro de Estudios y de Investigaciones otomanas, moriscas, de documentación y de información (CEROMDI) celebró en Túnez, del 15 al 19 de marzo de 1989, el IV Simposium Internacional de Estudios Moriscos que versó sobre « El Pensamiento religioso de los

(1) La revista «ŠARQ AL-ANDALUS» se comprometió a publicar las ponencias pronunciadas en español o francés mientras que «DIRĀSĀT ANDALUSIYYA» prometió dedicar un número especial à Ibn al-ʾAbbār e incluir en él las ponencias pronunciadas en árabe.